تلخيص البيان
في مجازات القرآن

تصنيف
الشريف الرضي

حققه وقدم له وصنع فهارسه
محمد عبد الغني حسن

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه
القاهرة — ١٩٥٥

الطبعة الأولى

١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م

الشريف الرضي
بين مجازات القرآن والحديث

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المجازات فى القرآن

لعل أول كتاب وأقدمه فى « مجازات القرآن » هو الكتاب الذى صنفه أبو عبيدة بهذا العنوان . فإن هذا الراوية من أسبق الرواة إلى التصنيف والتدوين ، لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى (المتوفى سنة ١١٧ هـ) . وأبى عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤ هـ) وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبا ، وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة . أما أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ) فقد ترك بعده طائفة من الكتب زادت على المائة ، كما عدها صاحب « الفهرست » . ومن حسن الحظ أن يطبع كتابه « مجاز القرآن » طبعة محققة لأول مرة فى المكتبة العربية [1] .

وليس كتاب أبى عبيدة فى مجازات القرآن بالمعنى الاصطلاحى الذى تناوله الشريف الرضى فى كتاب « تلخيص البيان ، فى مجازات القرآن » وهو ذلك المعنى الذى يوضع اصطلاحا فى مقابل « الحقيقة » كما فعل البيانيون فى تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز . لا! ليس كتاب أبى عبيدة فى مجازات القرآن بهذا المعنى . ولكن لفظة « المجاز » عنده تساوى طريق الجواز إلى فهم اللفظة القرآنية ، فهو أقرب إلى تفسير غريب القرآن منه إلى الكشف عن وجوه البيان فيه بالمعنى الذى يريده البيانيون [2] . فالمجاز القرآنى ـ عند أبى عبيدة ـ لا يعدو أن يكون

---

(١) حققه السيد فؤاد سزجين الأديب التركى بجامعة أستنبول بمعاونة المستشرق ريتر ، ونشره السيد سامى الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٥٤ .

(٢) نؤكد هنا أن « مجازات القرآن » لأبى عبيدة لا يدخل فى علوم البيان . وقد وهم مؤلفا « الوسيط فى الأدب العربى » حين ذكرا ذلك فى ص ٢٢٩ وعدا مجازات أبى عبيدة أول كتاب دون فى علوم البلاغة والبيان . والحق أنه تفسير لألفاظ القرآن على طريقة اللغويين لا البيانيين ...

تفسيراً لألفاظ القرآن ومعجما لمعانيه . وإذا شئنا أن نأخذ أبا عبيدة بنص كلامه فإننا لانجد أصرح من مقدمته فى الدلالة على ما ذهبنا إليه . فإنه يقول : (فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه ، لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه ، وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الإعراب ، ومن الغريب ، والمعانى) (١) .

ومالنا ومقدمة أبى عبيدة لنستدل منها على أن المجاز عنده هو تفسير المعنى من غير نظر إلى الاصطلاح البيانى الذى لم يظهر فى القرن الثانى الهجرى ، وإنما ظهر على شكل لمع متناثرة قليلة فيما كتبه الجاحظ أولا ، وفيما كتبه ابن قتيبة بعده فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ؟ نقول : مالنا ومقدمة أبى عبيدة مع أن كتابه كله بين أيدينا فنرى فيه أنه يعنى بالمجاز تفسير المعنى للألفاظ القرآنية ؟

ويتناول القرآن كله من فاتحة الكتاب فالبقرة فآل عمران سورة سورة، فيعرض مافى كل سورة من الألفاظ يشرحها شرحا لغوياً ويفسر غريبها ويقيم إعرابها ، ذاكرا من الشعر العربى الفصيح مايؤيد المعنى الذى ذهب إليه ، كقوله فى مجاز قوله تعالى: ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [أى مُوجع من الألم ، وهو فى موضع مُفعل . قال ذو الرمة :

ويرفع فى صُدور شمرْدلاتٍ ... يصُكُّ وُجُوهَها وَهجٌ أليمُ

الشمردلة : الطويلة من كل شىء] (٢) .

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ : [أى بغيهم وكفرهم ، يقال : رجلٌ عَمِهٌ ، وعامِهٌ ، أى جائر عن الحق . قال رؤبة :

ومَهمهٍ أطرافهُ فى مَهْمَهِ ... أعمى الهدى بالجاهلين العُمَّهِ] (٣)

(١) صفحة ٨ من « مجازات القرآن » لأبى عبيدة .
(٢) مجازات أبى عبيدة ص ٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢ .

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ : [سُقُوه حتى غلب عليهم ، مجازه مجاز المختصر ؛ أشربوا فى قلوبهم العجل : حب العجل :][1] وأين هذا من كلام الشريف الرضى فى هذه الآية : [.. وهذه استعارة ، والمراد بها صفة قلوبهم بالمبالغة فى حب العجل ، فكأنها تشربت حبه ، فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشىء الملزوذ . وحذف حب العجل لدلالة الكلام عليه ، لأن القلوب لا يصح وصفها بتشرب العجل على الحقيقة] .

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ : [أى يجيبونى ، قال كعب الغنوى:

وداعٍ دعا يامن يجيب إلى الندى　　فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى : فلم يجبه عند ذاك مجيب][2] .

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ : [وهى مصدر عال فلان : أى افتقر ، فهو يَعيل . وقال :

وما يَدْرِى الفقيرُ متى غناهُ　　وما يدرى الغنىُّ متى يَعيل][3]

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ : [مجازها : أن كل شىء غَيَّب عنك شيئاً فهو غيابة . قال المنخل بن سبيع العنبرى :

فإن أنا يومًا غيّبتنى غيابتى　　فسيروا مسيرى فى العشيرة والأهل

والجب : الركية التى لم تطو ، قال الأعشى :

لئن كنت فى جب ثمانين قامة　　ورُقِّيت أسباب السماء بسُلَّمِ][4]

وكقوله فى مجاز قوله تعالى : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : [مجازه : لأستميلنهم

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ .　　(٢) المصدر نفسه ص ٦٧ .
(٣) مجازات القرآن لابى عبيدة ص ٢٥٥ .　　(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

ولأستأصلنهم ، يقال : احتنك فلان ماعند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره ، أخذه كله واستقصاه] [1] .

وأين هذا من قول الشريف الرضى فى هذه الآية : [وهذه استعارة على بعض التأويلات فى هذه الآية ، وهو أن يكون الاحتناك ههنا افتعالا من الحنك . أى لأقودنهم إلى المعاصى كما تقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة على قائدها ، وهى عبارة عن الاستيلاء عليهم ، والملكة لتصرفهم كما يملك الفارس تصرف فرسه ، بثنى العنان تارة ، وبكبح اللجام مرة . وقال يعقوب فى « إصلاح المنطق » : حنك الدابة يحنكها حنكا ، إذا شد فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، وقد احتنك الدابة ، مثل حنكها ، إذا فعل بها ذلك . وقال بعضهم : لأحتنكن ذريته ، أى لألقين فى أحناكهم حلاوة المعاصى حتى يستلذوها ويرغبوا فيها ويطلبوها ، والقول الأول أحب إلى . وقال بعضهم : لأستأصلن ذريته بالإغواء ، ولأستقصين إهلاكهم بالإضلال ، لأن اتباعهم غيه ، وطاعتهم أمره يؤولان بهم إلى موارد الهلاك ، وعواقب البوار . وقال الشاعر :

نشكو إليك سنة قد أجحفت واحتنكت أموالنا وجلّفت

أى أهلكت أموالنا ، ويقال : احتنكه ، إذا استأصله وأهلكه . ومن ذلك قولهم : احتنك الجراد الأرض : إذا أتى على نبتها . وقيل أيضا : المراد بذلك لأضيقن عليهم مجارى الأنفاس من أحناكهم ، بإيصال الوسوسة لهم ، وتضاعف الإغواء عليهم . ويقال : احتنك فلان فلانا : إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه ، فكان كالشبا فى مقلته ، والشجا فى مسعله] [2] .

يتضح من هذه الأمثلة التى نقلناها هنا من « مجازات القرآن » لأبى عبيدة ماقرناه من

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

(٢) انظر ذلك فى كتاب « تلخيص البيان » فى مجاز هذه الآية من موضعها فى سورة بنى اسرائيل .

أنه استعمل « المجاز » بمعنى التفسير ، وأن المجاز البيانى المقابل للحقيقة لم يكن فى حسبانه وهو يصنف فى مجازات القرآن ، وأن عنوان كتابه قد يوهم القارىء بأنه أول من ألف فى المجاز البيانى للقرآن ، مع أن منهجه فى الكتاب بعيد عن ذلك بعدا عظيما .

وإذا صح ماذكره صاحب « الفهرست » من أن لأبى عبيدة كتابا اسمه « غريب القرآن » فليت شعرى أين يكون موضوع هذا الكتاب من كتابه فى مجازات القرآن ؟ أليس كتاب المجازات هو فى الحق كتابا فى غريب القرآن أو فى تفسير ألفاظه ؟ فهل يكون الكتابان اسمين على مسمى واحد؟ أو قد يكون ابن النديم وَهِمَ فحسب أن « غريب القرآن » لأبى عبيدة هو كتاب آخر غير المجازات له ؟

على أن ممايزيد المشكلة تعقيدا أن صاحب « الفهرست » لم يذكر كتاب « مجازات القرآن » لأبى عبيدة وهو يسرد أسماء الكتب المؤلفة فى معانى القرآن ومشكله ومجازه (١) ، ولكنه ذكر كتاب « معانى القرآن » لأبى عبيدة . فهل يكون هذا الكتاب هو « مجازات القرآن » الذى تم طبعه أخيرا ، أم يكون كتابا آخر غيره لا يزال مستسرا فى ضمير الغيب . ؟

---

(١) الفهرست لابن النديم . طبع القاهرة ص ٥١

الجاحظ ومجازات القرآن

لعل الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ هو أول من استعمل المجاز فى القرآن بالمعنى المقابل للحقيقة، وهو ذلك المعنى القريب جد القرب مما استعمله البيانيون المتأخرون، وبهذا كان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هو أول مصنف عربى استعمل لفظتى المجاز والاستعارة على نحو يقرب مما قصد بهما عند البلاغيين . فهو لا يريد بكلمة المجاز ذلك المعنى الذى قصده أبو عبيدة بالتفسير، ولكنه يريد ذلك الشىء المقابل للحقيقة . ونراه فى مواطن متفرقة من كتابيه « الحيوان » و « البيان والتبيين » يشير إلى المجاز والاستعارة إشارات تعد أول ماسجل منهما بالمعنى البيانى فى المؤلفات العربية . حتى ليعد الجاحظ بذلك أول رائد للبلاغة العربية بمعناها الاصطلاحى الذى أخذ يتطور على الزمن حتى بلغ قمته على يد السكاكى، والقزوينى وغيرهما من أعلام البلاغة الفنية .

ولعل من أوائل اللمع البيانية عند الجاحظ قوله فى « الحيوان » : [باب آخر فى المجاز والتشبيه بالأكل، وهو قول الله عزوجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ وقوله تعالى عز اسمه : ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ وقد يقال لهم ذلك، وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحدا فى سبيل الأكل، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ وهذا مجاز آخر][1] .

ولا يكتفى الجاحظ بهذه اللمعة البيانية الواضحة بل يضيف إليها بابا آخر فى مجاز الذوق: [وهو قول الرجل إذا بالغ فى عقوبة عبده : ذق ! وكيف ذقته ؟! وكيف وجدت طعمه ؟ ! وقال عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ .... وقال يزيد بن الصعق :

---

(١) الحيوان . بتحقيق عبد السلام هارون . جـ ٥ ص ٢٥

وإن الله ذاق حلوم قيس فلما ذاق خفتها قلاها
رآها لا تطيع لها أميرا فخلاَّها تردد فى خلاها

فزعم أن الله عز وجل يذوق . . . . وللعرب إقدام على الكلام ، ثقة بفهم أصحابهم عنهم ، وهذه أيضاً فضيلة أخرى .

وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عضَّ ، وأكل وإنما أفنى ، وأكل وإنما أحاله ، وأكلَ وإنما أبطل عينه — جوزوا أيضا أن يقولوا : ذقت ما ليس بطعم ، ثم قالوا : طعمت لغير الطعام . وقال العرجى :

وإن شئت حرّمت النساء سواكمُ وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ يريد : لم يذق طعمه] (1)

" فالمجاز عند الجاحظ هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له ، على سبيل التوسع من أهل اللغة ، ثقة من القائل بفهم السامع . "

وقد حلت هذه النظرة الجاحظية البيانية كثيراً من المشكلات التى قامت بسبب التعبيرات القديمة . فقد أنكر المنكرون وعلى رأسهم الحسن قول القائل : طلع سهيل ، أو برد الليل ، وقالوا فى إنكارهم: إن سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد . وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل عن الغيم والسحاب : ما أخلقها للمطر ! ولكن الجاحظ يرى أن إخراج الكلام على وجه المجاز يحلُّ المشكلة ويقيم الكلام على وجه سليم ، فهو يقول عن التعبير الأول : ولهذا الكلام مجاز ومذهب . وهو يقول عن التعبير الثانى : وهذا كلام مجازه قائم ، ويقول عن مثال آخر مما ينكره المنكرون : وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل .

والحق أن الجاحظ قاس هذه العبارات على نظائرها فى كلام العرب فوجد لها دعامة من

(1) المصدر نفسه ص 31 ، 32 .

الصحة وسندا من القياس السماعى الصحيح ، فإن العرب من قديم تقول : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . والشاعر العربى يقول :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولـكن المنكرين أنكروا لمعنى دينى قائم فى نفوسهم ، وهو إسناد الأفعال جميعها إلى الله تعالى ، تنزيها له عن أن يشركه غيره فى فعل ، أو يشاركه فى خلق ، فاحتج لهم الجاحظ بشواهد من اللغة تجيز ماذهبوا إليه من الاستعمال . أما لفظة «استعارة» التى يكررها الشريف الرضى فى كل آية فيها مجاز ، فقد كان الجاحظ ـ فيما نعلم ـ أول من استعملها بمعنى تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه . فكان بذلك ـ أيضا ـ ممهدا للبيانيين ، ورائدا فى البلاغة العربية . فإن هذه اللفتات البيانية الوجيزة كانت الأساس الذى بنى عليه صرح البيان العربى ، وأخذه الأعاجم فجعلوا منه موضوعا عتيدا لصناعة البيان والبلاغة .

وتصادفنا فى بعض كتب الجاحظ أمثال هذه الإشارات البيانية الاستعارية ، كقوله : [وقال عز وجل : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ والعذاب لايكون نزلا . ولـكن لما قام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه ... وقال الله عز وجل : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ وليس فى الجنة بكرة ولاعشى ، ولـكن على مقدار البكر والعشيات . وعلى هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ والخزنة الحفظة ، وجهنم لايضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها ، ولـكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به] (١) .

وكقوله وهو يشرح أرجوزة يقول فيها صاحبها :

وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

(١) البيان والتبين جـ ١ ص ١٥٣ . طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

[وطفقت : يعنى ظلت . تبكى على عراصها عيناها . عيناها ههنا للسحاب . وجَعَل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه][1] .

هذه اللمع البيانية عند الجاحظ لا نراها من الكثرة بحيث تكون مذهبا بيانيا قائما بذاته ، و إنما كانت معالم طريق لمن جاءوا بعده ، فقد أفاد منها تلميذه ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ﻫ وخاصة وهو يتحدث عن ألفاظ القرآن فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » .

(١) المصدر السابق ص ١٥٣ .

ابن قتيبة ومجازات القرآن

جاء بعد الجاحظ تلميذه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦)، ويشير ابن قتيبة إلى هذا التلمذ على الجاحظ بقوله فى « عيون الأخبار » مثلا فى أكثر من موضع : [وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه، قال] [١] .

وقد توسع التلميذ فى نظرته إلى الاستعارة والمجاز أكثر من أستاذه قليلا، وخطا باللمع البيانية عند أستاذه الجاحظ خطوة وسعت دلالات كثير من الألفاظ والاصطلاحات التى أخذت تظهر بعد ذلك بالتدريج فى علوم البلاغة، فنراه يقول فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » : [وللعرب المجازات فى الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه . ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز، إن شاء الله تعالى] [٢] .

ثم نراه يعقد بعد ذلك بابين أولها فى «المجاز» وثانيهما فى « الاستعارة » فيتحدث عن المجاز فى القرآن، ويكثر من الأمثلة القرآنية يخرجها تخريجا مجازيا يبعدها عن الاصطدام بالحقيقة، ولا يكتفى بالقرآن وحده، وإنما يذهب إلى الإنجيل فينكر من يرون من النصارى أبوة الولادة فى قول المسيح عليه السلام : (أدعو أبى، وأذهب إلى أبى) [٣] ، ويفسر هذا القول

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٩٩، ٢١٦، ٢٤٩ .
(٢) تأويل مشكل القرآن . طبع عيسى الحلبي ص ١٥، ١٦
(٣) المصدر نفسه ص٧٦ .

تفسيرا مجازيا فيقول: [ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصة دون غيره، ماجاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى الله - تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيرا - مع سعة المجاز، فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره؟ كقوله حين فتح فاه بالوحى: « إذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك، فإن أباك الذى يرى الخفيات يجزيك به علانية، وإذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذى فى السماء! ليتقدس اسمك، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير أبيك » . وقد قرأوا فى الزبور أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام: « سيولد لك غلام يسمى لى ابنا، وأسمى له أبا » وفى التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام: « أنت بكرى. وتأويل هذا أنه فى رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده][1] .

والحق أن الاشتغال بفهم القرآن الكريم ومدارسته وتفسيره كان سببا قويا لظهور هذه المجادلات المجازية الاستعارية ظهورا متميزا فى عصر ابن قتيبة، وهو عصر بدأ علم الكلام فيه يتميز بظهور طائفة من المتكلمين من أمثال ابن الهذيل العلاف (المتوفى سنة ٢٣٥) وأبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى (المتوفى سنة ٣٠٣) . فقد كان علماء الكلام شديدى الجدل أقوياء العارضة، وكانت لهم فى الله وصفاته وأفعاله وذاته وفى العدل والجبر والاختيار آراء لا بد لها من الفهم البيانى القوى ليؤيدوا بها وجهات نظرهم . فحين يلتقى المفسرون بقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ فمنهم من يقول بالكلام على وجه الحقيقة لا على سبيل المجاز، بدليل توكيد الفعل بالمصدر تكليما، ومنهم من يقول بالكلام على وجه المجاز . ويقول ابن قتيبة فى إرادة الكلام هنا على حقيقته: [إن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا توكد بالتكرار . فتقول: أراد الحائط أن يسقط، ولا تقول: أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة . وقالت الشجرة فمالت ولا تقول: قالت الشجرة فمالت قولا شديدا . والله تعالى يقول:

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٧٦

﴿ وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ فوكد بالمصدر معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز][1] .

ويدافع ابن قتيبة عن المجاز فى القرآن دفاعا قويا فيقول : [وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد[2] ، والقرية لا تُسأل[3] . وهذا من أشنع جهالاتهم . وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ، ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا ، كان أكثر كلامنا فاسدا . لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر . ونقول : كان هـذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كُوِّن . ونقول : كان الله . وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن .

والله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وإنما يُعزَم عليه .

ويقول تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ وإنما يُربح فيها .

ويقول : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ وإنما كُذِّب به][4] :

ويصل ابن قتيبة فى دفاعه عن المجازات فى القرآن إلى قمة الدفاع حين يقول : [ولو قلنا للمنكر لقوله : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ : كيف كنت أنت قائلا فى جدار رأيته على شفا انهيار : رأيتَ جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا يَهُمُّ أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض . وأيًّا ما فقد جعله فاعلا . ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٢ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الكهف : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » .

(٣) إشارة إلى قوله تعال فى سورة يوسف : « واسأل القرية التى كنا فيها » .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٩٩ .

وأنشدني السجستاني عن أبي عبيدة في مثل قول الله : (يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) :

يريد الرمح صدر أبي براء ... ويرغب عن دماء بني عقيل

وأنشد الفرّاء :

إن دهرا يلف شملي بجُمْلٍ ... لزَمَانٌ يَهُمُّ بالإحسان

والعرب تقول : بأرض فلان شجر قد صاح ، أي طال . لما تبين الشجر للناظر بطوله ودل على نفسه ، جعله كأنه صائح ، لأن الصائح يدل على نفسه بصوته] [1] .

فهذا السبيل الذي سلكه ابن قتيبة في مجازات القرآن هو السبيل الذي أفضى إلى تطور الدراسات البلاغية البيانية عند ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦ هـ) وعند الشريف الرضي في كتابه هذا الذي نقدم له ، وعند الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) وهو مؤلف « أسرار البلاغة » ، في علم البيان ، و « دلائل الإعجاز » في علم المعاني ، وعند السكاكي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) حين ألف كتابه المشهور : « مفتاح العلوم » ، وعند ابن الأثير [2] (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) حين ألف كتابيه المشهورين : « المثل السائر » ، و « البرهان في علم البيان » .

أما الباب الذي عقده ابن قتيبة للاستعارة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » فهو لا يقل إمتاعا ولا فائدة عن باب المجاز ، وتكاد ألفاظه تكون هي الألفاظ التي استعملها البيانيون بعد هذا . اسمعه مثلا وهو يقول : [فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو مشاكلا . فيقولون للنبات : نوء . لأنه يكون عن النوء عندهم ... ويقولون للمطر : سماء . لأنه من السماء ينزل ، فيقال : مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٠ . (٢) هو ضياء الدين بن الأثير .

ويقولون : ضحكت الأرض . إذا أنبتت ، لأنها تبدى عن حسن النبات ، وتنفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر ، ولذلك قيل لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره : الضحك ، لأنه يبدو منه للناظر كبياض الثغر . ويقال : ضحكت الطلعة . ويقال : النَّوْر يضاحك الشمس لأنه يدور معها .](1) .

ثم يمضى ابن قتيبة فى الكشف عن بعض الاستعارات فى القرآن الكريم ، كالاستعارة فى قوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) وقوله : (وَلاَ يُظْلَمونَ فَتِيلاً) وقوله : (وَقَدِمْنَا إِلىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) وقوله : (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) وقوله : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ) أى كان كافرا فهديناه ، وقوله : (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً) وغير ذلك من عشرات الآيات التى كشف ابن قتيبة عما بها من استعارة ، على نحو ماصنع الشريف الرضى هنا فى كتابه هـذا ، وقد استغرق هذا الباب أكثر من أربعين صفحة من كتاب ابن قتيبة .

وتمضى السنون بعد وفاة ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ ويمضى القرن الثالث بما فيه من موجات أدبية لغوية نحوية كلامية ، وبمن فيه من أمثال أبى عثمان المازنى ، وثعلب ، والزجّاج ، وابن الأنبارى ، والسجستانى ، والمبرد ، وغيرهم ، ويجىء القرن الرابع بمن فيه من أمثال ابن خالويه (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) ، وأبى بكر الزبيدى (المتوفى سنة ٣٧٩هـ) ، وابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢هـ) ، والسيرافى (المتوفى سنة ٣٦٨هـ) ، وأبى على الفارسى (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) ، وأبى حسن الرمانى (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) وغيرهم فلا نجد كتابا ألف فى « مجازات القرآن » من هؤلاء الأعلام المشتغلين باللغة والنحو . ونرى الشاعر العلوى الأبى الشريف الرضى ينصب همته ، ويلقى عزمه بين عينيه ، فيصنف كتابا فى « مجازات القرآن » هو الذى نقدم له بهذه المقدمة الطويلة وعنوانه :

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٣ .

« تلخيص البيان فى مجازات القرآن »

ظل هذا الكتاب الثمين سرا مطويا فى ضمير الغيب إلى أن وقع السيد محمد المشكاة على نسخة خطية لكتاب يبحث فى آيات القرآن الكريم بعنوان الاستعارة. وقد محا الزمان عنوان المخطوط، [1] كما عاثت أيدى البلى فى بضع صفحات منه انتزعتها من المخطوط، فظن السيد المشكاة ـ أول الأمر ـ أنه لمؤلف قديم من الشيعة، ولكن لم يخطر على باله أن ذلك المؤلف الشيعى المعتدل الرأى، الكثير النصفة، العف اللسان هو الشريف الرضى. فلما مضى فى قراءة المخطوط، لاحظ أن المؤلف يحيل على كتاب له اسمه «حقائق التأويل»، وهنا قطع الشك باليقين، واستظهر عن ثقة أن هـذا المخطوط الباحث عن الاستعارات فى آى القرآن الكريم هو كتاب الشريف الرضى الذى ظل قرابة عشرة قرون مفقودا، والذى يشار إليه فى مراجع كثيرة بأنه من كتب الشريف الرضى التى خلفها تراثا غاليا فيما خلفه للفكر العربى من تراث قيم.

ولم تكن الإحالة على كتاب « حقائق التأويل » فى هذه المخطوطة هى وحدها المفتاح الذى كشف عن حقيقة صاحبها وشخصية مؤلفها الشاعر العلوى الفحل، فهناك بعض المواطن يشير فيها المؤلف إلى كتابه « مجازات الآثار النبوية »، ولاشك أن المجازات النبوية هى للشريف الرضى وقد طبعت من زمن فى بغداد مرة، وطبعت فى مصر طبعة محققة ومعلقا عليها بقلم المرحوم الأستاذ محمود مصطفى الذى اشتغل بتدريس الأدب العربى فى كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية. فلم يعد بعد ذلك مجال للشك فى حقيقة صاحب الكتاب.

(١) تفضل صديقى الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى الأستاذ بجامعة القاهرة فأهدى إلى ـ فيما حمله من ألطاف إيران بمناسبة اشتراكه فى مهرجان ابن سينا ـ مخطوطة مصورة من كتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » هى التى ننشرها اليوم نشرا علميا، ونقدم لها بهذه المقدمة التحليلية التى تقوم بذاتها كتابا مستقلا جعلنا عنوانه « الشريف الرضى بين مجازات القرآن والحديث » فله أجزل الشكر بما أتاح لنا من نشر كتاب الشريف الرضى، الكاشف عن وجوه البيان، وأسرار البلاغة فى كتاب الله الكريم.

على أن هاتين الإحالتين ليستا وحدهما الدليل القاطع على صحة انتساب هذا المخطوط لمؤلفه الشريف الرضى ، وقد يكونان وحدهما قاطعين فى الدلالة ، إلا أننا نسوق من الأدلة الحاسمة والبراهين الجازمة مايقطع بأن هذا الأثر العلمى النفيس هو للشريف الرضى لالغيره ، وأنه ـ رحمه الله ـ ترك فى طى الكتاب من قواطع الأدلة مايشير بصراحة إليه ، ويدل بقوة عليه .

فهو يقول فى كلامه عن مجازات سورة الرحمن : [وقد كان والدى الطاهر الأوحد ذو المناقب أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوىّ رضى الله عنه وأرضاه سألنى عن هذه الآية (١) فى عرض كلام جر ذكرها ، فأجبته فى الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها] .

وما من شك فى أن أبا أحمد الحسين بن موسى الموسوى هو والد الشاعر العلوى الشريف الرضى . وقد لقب بالطاهر الأوحد ـ كما يذكر ولده المصنف ـ وكان هذا اللقب مما لقبه به أبو نصر بهاء الدولة (٢) بن عضد الدولة بن بويه الذى كان سلطانا على العراق فى سنة ٣٧٩هـ بعد وفاة أخيه أبى الفوارس شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه .

وأكثر من هذا فإنا نجد المصنف يقول فى موطن آخر من المخطوط وهو يتحدث عن الاستعارة فى سورة ص : [وقال لى الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى ـ أدام الله توفيقه ـ عند بلوغى عليه فى القراءة من مختصر أبى جعفر الطحاوى إلى هذه المسألة] (٣) والمعروف أن الشيخ أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمى كان أستاذا للشريف الرضى ، وكان شيخه فى الحديث كما أشار هو إلى ذلك أيضا فى كتابه « المجازات النبوية » (٤) .

وفوق هذا فإنا نرى المصنف يقول فى معرض الحديث عن مجازات سورة النحل :

---

(١) هى آية « سنفرغ لكم أيها الثقلان » من سورة الرحمن .

(٢) هو بهاء الدولة لابهاء الدين كما ذكر خطأ فى بعض المراجع الحديثة .

(٣) هى مسألة مسح الرأس كله أو بعضه . وقد عرضت هذه المسألة فى خلال الحديث عن قوله تعالى فى سورة ص « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » .

(٤) المجازات النبوية . طبع القاهرة ص ١١٥ .

[وكان شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى رحمه الله يقول ...] ويقول فى مجازات سورة طه : [وهو مما سمعته من شيخنا أبى الفتح النحوى عفا الله عنه] . ومن المقطوع به أن أبا الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ ﻫ) والذى كان إماما فى النحو والعربية ـ كان شيخا للشريف الرضى ، وقد أكثر الشريف النقل عنه فى كتابه « المجازات النبوية » . وقد عده الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى ـ مؤلف موسوعة الغدير ـ أستاذا له وجعل ترتيبه الخامس فى قائمة أساتذته ومشايخه (١) .

بقى من أدلة الاستشهاد بالشيوخ والأساتذة دليل أستاذه قاضى القضاة أبى الحسن (٢) عبد الجبار بن أحمد ، فإن المصنف يذكر فى معرض الحديث عن استعارات سورة الكهف هذا الشيخ المعتزلى الأصولى قائلا : [وفيما علقته عن قاضى القضاة أبى الحسن عبدالجبار بن أحمد ـ أدام الله توفيقه ـ عند قراءتى عليه كتابه الموسوم بتقريب الأصول] ونرى الشريف الرضى فى « المجازات النبوية » يشير إليه إشارة التلميذ إلى شيخه ، مما يقطع بأن مصنف هذا المخطوط هو بعينه مؤلف المجازات النبوية ، وهو الشريف الرضى رضى الله عنه .

هذه هى الأدلة المادية القاطعة بأن هذا المخطوط الذى نطبعه اليوم هو للشريف الرضى. بقيت بعض القرائن التى نضيفها إلى الدلائل القطعية لا لتعزيزها وتوكيدها ـ فهى بغير حاجة إلى توكيد ـ بل لنستكمل بها سبيل التحقيق العلمى فى مخطوط لم تترك لنا عاديات الأيام اسمه ، ولم تبق على اسم مؤلفه . فإننا نلاحظ فى كتابنا هذا « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » أسلوبا أدبيا عاليا يمشى مع الأسلوب العلمى فى درب واحد . وقد اجتمع هذا فى الشريف الرضى بما لم يجتمع لغيره من المؤلفين ، فإن العبارة هنا أدبية متأنقة واضحة الحجة ، بينة المعالم لا تشوبها عجمة ، ولا يعيبها غموض، ولا يشينها إبهام . اسمع قوله فى قوله تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاء

(١) الغدير ، للشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى ج ٤ ص ١٦٢ طبعة النجف .

(٢) كذا فى الأصل . وهو فى الأعلام للزركلى : أبو الحسين . وكذلك جاء فى « الغدير » ج ٤ ص ١٦٣ .

يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : [وهذه استعارة ، والمراد بها ـ والله أعلم ـ أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة ، وذلك كما يقول الرجل لصاحبه إذا كان مخالفا له فى رأى ، أو مباعداً له فى كلام : أنا فى واد وأنت فى واد . أى أنت ذاهب فى طريق ، وأنا ذاهب فى طريق . ومثل ذلك قولهم : فلان يهبُّ مع كل ريح ، ويطير بكل جناح ، إذا كان تابعاً لكل قائد ، ومجيبا لكل ناعق . وقيل إن معنى ذلك تصرُّف الشاعر فى وجوه الكلام من مدح ، وذم ، واستزادة ، وعتب ، وغزل ، ونسيب ، ورثاء ، وتشبيب . فشبهت هذه الأقسام من الكلام بالأودية المتشعبة ، والسبل المختلفة .

ووصْفُ الشعراء بالهيان فيه فرط مبالغة فى صفتهم بالذهاب فى أقطارها ، والإبعاد فى غاياتها . لأن قوله سبحانه : يهيمون ، أبلغ فى هذا المعنى من قوله : يَسْعَوْنَ أو يسيرون . ومع ذلك فالهيان صفة من صفات من لا مسكة له ، ولا رجاحة معه . وهى مخالفة لصفات ذى الحلم الرزين ، والعقل الرصين] .

فالعبارة هنا أنيقة ، وفيها ضرب من المزاوجة التى يعرفها كل من قرأ للشريف كتابه فى المجازات النبوية ، أو قرأ له بعض ما نشر من رسائله .

على أن قارئ المجازات النبوية ، وقارئ مجازات القرآن هنا يجد أن القلم الذى جرى هنا هو بعينه الذى جرى هناك ، وأنهما جميعا ينبعان من معين واحد ، هو ذلك الفيض البليغ الذى كان يقطر به قلم الشريف شعرا أو نثرا . فإن فى أسلوبه من العلو ما يناسب علو نسبه ، لأن من خصه الله بهذا النسب النبوى الكريم يأبى أن يميل عن مستوى العلو فيما يأخذ بسبيله من قول أو فعل .

على أن النفَس فى مجازات القرآن والمجازات النبوية يكاد من لطفه ورَوحه ووحدة متنفَّسه يدل على أن الكتابين لكاتب واحد . فلا تجد فى أى من الكتابين ضرباً من

المعاظلة أو التفيهق أو التعقيد أو ما إليها مما يعيب القول وقائله ... ولـكنك واجد فيهما من الأدب وحسن الذوق ولطف النقد وسلامة المنهج ، ونصوع البيان وكثرة الاستشهاد وتطبيقه المحزّ ما يدل على مقام المؤلف ومنزلته من البلاغة ، وموضعه من الفصاحة . ولو كنت لا تعرف أن الشريف الرضى شاعر من الفحول العباقرة لجزمت بأن مؤلف هذين الـكتابين لا بد أن يكون شاعرا ... فإن الرقة فى معالجة موضوع المجازات النبوية والقرآنية لا تصدر إلا عن شاعر رقيق . إلا أنها رقة مازجها العلم الغزير ، وصاحبتها المعرفة الأدبية ، وناصرها الفقـه الإسلامى ، وظاهَرَها النحو واللغة ، فاجتمع من ذلك كله قوام معتدل سليم لـكتابين سيظلان على مدى الدهور مفتاحا لبلاغة القرآن والحديث النبوى ، من حيث اشتمالهما على أبدع الاستعارات وأعجب المجازات .

والآن وقد فرغنا من صحة انتساب هذا المخطوط إلى الشريف الرضى ، فقد يقول قائل: وما أدراكم أن هذا المخطوط هو كتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » ؟ فقد يكون كتابا آخر للشريف الرضى غير التلخيص . ونحن نقول للمعترض : على رسلك ! فإن كتب الشريف الرضى معروفة ، ما طبع منها وما لم يطبع ، وقد ذكروا له فى كتب الدراسات القرآنية كتاب « حقائق التأويل فى متشابه التنزيل » وكتاب « معانى القرآن » وكتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » . وقد طبع « حقائق التأويل » فى النجف ، وكتب الشيخ عبد الحسين الحلى النجفى [1] ترجمة للشريف الرضى صدر بها الجزء الخامس من هذا التفسير المطبوع . أما «معانى القرآن »فلم يطبع ، ويجوز أن يكون هو بعينه كتاب « حقائق التأويل » فاختلط أمره على مترجميه وكتاب سيرته . فلم يبق إلا كتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » وهو هذا الـكتاب الذى بين يديك ، وفيه من الحديث عن استعارات القرآن الـكريم ما يقطع بكونه كتاب الشريف الرضى فى مجازات القرآن .

(١) وهو غير الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى العالم المعاصر الذى ألف موسوعة « الغدير » ، وقد ظهر منها إلى الآن تسعة أجزاء فى طبعة العراق ، ومثلها من طبعة إيران .

هذه الطبعة من تلخيص البيان

إذا قلنا : إن هذه الطبعة التى بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ هى أول طبعة لكتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » فإننا لا نعدو الحق فى قليل أو كثير ، فقد ظهر الكتاب قبل ذلك بطريقة « الفوتوتيب » ، أى أن المخطوطة الوحيدة نفسها صورت وظهرت كلها مصورة كأصلها ، مع مقدمتين لناشر الكتاب السيد محمد المشكاة ، والأستاذ حسين على محفوظ ، ومع الفهارس للآيات والمطالب والأعلام والأمثال والأمكنة والألفاظ والأشعار . وقد طبعت المقدمتان والفهارس بطريقة الحروف المطبعية ، أما متن الكتاب نفسه فقد طبع مصوراً كما هو بأصله على النسخة الوحيدة فى العالم التى كان يملكها السيد محمد المشكاة .

لهذا لم نكن مجافين للحقيقة حين قلنا إن هذه الطبعة التى نقدمها لك هى أول طبعة لهذا الكتاب ، فإن طبعة إيران المصورة عن المخطوطة لا تعدو أن تكون نتاً وتكثيرا للمخطوط نفسه ، بحروف الناسخ نفسه ، وبخطه ، و بأوهامه فى النسخ ، و بترميجه للكتابة ، و بغير ذلك من العقبات التى لا تيسر الاستعانة بالكتاب ، ولا تحقق المنفعة منه على وجه صحيح سليم .

على أننا هنا نعيذ أنفسنا أن ننقص ذرة من قيمة الجهد العلمى العظيم الذى بذله السيد محمد المشكاة فى إخراج المخطوط على الصورة التى خرج بها ، والهيئة التى ظهر عليها . فإن تلك الفهارس التى صنعها ونسقها وافتن فيها و بذل لها من الجهد ما يقدره المنصفون ـ تدل على روح علمية أصيلة فى نفس السيد المشكاة ، كما تدل أكبر الدلالة على أكيد رغبته فى تيسير النفع بهذا الكتاب بأدنى جهد وأيسر مشقة . إلا أن عيب هذه الطريقة التصويرية فى نشر المخطوطات أنها تعرض أمام عينى القارئ أصلا محرفا ، ونصا غير مقوّم ولا مصحح . فقد لاحظت أن أغلب ما فى المخطوطة المصورة من الشعر محرف مشوه فى الصفحات المصورة ،

ولعل الزمن أعْجَلَ السيد محمد المشكاة فلم يتسع له الوقت لتصحيح هذه الكثرة الكاثرة من الأخطاء والتحريفات وهو يفهرس لأبيات الشعر التي استشهد بها المؤلف في كتابه ...

ففي مجازات سورة « الطارق » استشهد الشريف الرضي ببيت من الشعر شطره الأول هكذا :

* وجاءت سِلْبَمَ لارَجْع فيها *

فأعاده السيد المشكاة في فهرس الأشعار كما هو ، مع أن تصويبه :

* وجاءت سِلْتِمٌ لارجع فيها *

والسِّلْتِمَ بكسر التاء المثناة الفوقية هي الداهية أو السنة الصعبة .

وفي مجازات سورة « الزمر » جاء هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي :

ولا شبوب من الثيران أفرده　　عن كَوْره كثرةُ الإغراء والطَّرَد

فأعاده الناشر هكذا :

ولا شبوب من النيران أفرده　　عن كَوْرَة كثرة الأغراد والطّردِ

والبيت ـ كما صححناه في المتن ـ هكذا :

ولا شبوبٌ من الثيران أفرده　　عن كَوْرِه كثرةُ الإغراء والطَّرَدُ

والشَّبوب من الثيران هو المسنُّ منها ، والكَوْرُ : هو القطيع من الحيوان ،فهي الثيران جمع ثور ، لا النيران جمع نار كما أثبته المحقق .

على أن كثيرا من الآيات القرآنية وردت محرفة من الناسخ في المصورة المطبوعة ، وقد فات المحقق الفاضل أن يصحح خطأها ويقيم عوجها ... ولعله أحسن الظن بناسخ المخطوطة فوثق به في مقام لا يحمد فيه الوثوق ، وخاصة حين يحقق المرء نصا قرآنيا كريما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

ولسنا هنا بسبيل تعداد الآيات المحرفة في المخطوطة المصورة ، والتي فات المحقق الفاضل أن

يردها إلى صواب موضعها وصحة أصلها، ولكننا نذكر هنا بعض هذه التحريفات، دفعا لتهمة التجنى على رجل لا تحملنا أسباب التقدير لعمله إلا إلى الثناء عليه والإشادة بجهده، وسبحان من تنزه عن السهو وتعالى عن الخطأ !

الآية محرفة	الآية صحيحة
وضُربت عليهم الذّلة	ضُربت عليهم الذّلة
فلا تقعد معَهم حتى يخوضوا	فلا تقعُدوا معَهم حتى يَخُوضُوا
واستبقوا الخيراتِ	فاسْتَبِقوا الخيْراتِ
وإذا أذقنا الإنسان منارحمة	ولئن أذقنا الإنسانَ منّا رحمةً
إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط	وإنى أخافُ عليكم الخ
يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة	ويستعجلونك الخ
ولما تراءى الجمعان	فلما ترَاءى الجمْعان
فافتح بيننا وبينهم فتحا	فافتح بينى وبينهم فتحا
وجعلنا الجبال أوتادا	ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا

إن هذه الكثرة من الآيات القرآنية الكريمة المحرفة تؤكد ماندعو إليه ويدعو إليه التحقيق العلمى من شدة الحذر فى الاطمئنان إلى نص المخطوط وخاصة فيما يتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف والآثار والأشعار، فإن المرء قد يكون جيد الحفظ لكتاب الله تعالى، ومع هذا فقد يلتبس عليه الأمر، فيخلط آية بآية، أو يبدل حرفا بحرف، مما يوسوس به الوهم أو يوحى به الظن، وأسلم الطرق فى ذلك هى الرجوع إلى كتاب الله نفسه، أو إلى طبعة موثقة من الحديث نفسه، حتى تطمئن النفس إلى عملها.

ولقد لقى صديقنا المحقق المدقق الأستاذ عبدالسلام محمدهارون (١) ـ جزاه الله عن العلم خيرا ـ

(١) انظر كتاب « تحقيق النصوص ونشرها » للأستاذ عبد السلام هارون ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ وهو كتاب ثمين فى هذا الموضوع .

كثيرا من التحريفات لآيات من القرآن وهو يحقق طبعته الثمينة من كتاب « الحيوان » للجاحظ ، وهى تحريفات تؤكد لنا أن الاعتماد على الحافظة فى رواية القرآن الكريم قد يفضى غالبا إلى الوقوع فى الخطأ ، وهو مما لا يجوز للمسلم ارتكابه مع توفر حسن النية لديه ، فلا بد دائما من الرجوع إلى المصحف ، ولابد من أن يطمئن الناقل شيئا من القرآن إلى أنه نقل عن المصحف نفسه، لا عن حافظ أو راوٍ مهما كان حفظه ، فإن أمور الذاكرة عجيبة فى هذا الباب.

ومن أعجب تحريفات الجاحظ القرآنية فى كتابه « الحيوان » :

خطأ الآية	صوابها
« فلما أتوا على وادى النمل »	« حتى إذا أتوا على وادى النمل »
« إنى مبتليكم بنهر »	« إن الله مُبتليكُم بنَهَرٍ »
« ثم اسلكى سبل ربك ذللا »	« فاسْلُكى سُبُلَ ربكِ ذُلُلاً »
« فلما جاء أمرنا وفار التنور »	« حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنُّور »
« هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً »	« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً »
« وأنهار من ماء غير آسن »	« فيها أنهارٌ من ماء غير آسن »
« وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولّى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين »	« وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقِّب ، يا موسى لا تخفْ إنى لا يخاف لدىَّ المرسَلون »

لقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة[1] أن الشريف الرضى — رضى الله عنه — حفظ القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة . فهل نقول إن هذا الحفظ المتأخر للقرآن قد جرّ إلى هذه التحريفات فى « تلخيص البيان » ، أم إنها تحريفات من الناسخ الذى قد يكون اعتمد فى نسخ الآيات على حافظته فخانته الحافظة ؟؟ .

(١) انظر « شرح ديوان الشريف الرضى » طبع عيسى الحلبى وشركاه، ص ١٤

والحق أن السيد محمد المشكاة قد بالغ فى حسن الظن بناسخ المخطوطة مبالغة أفضت به إلى أن يترك تحقيق النص جانبا ، وأن يهتم بالفهارس البديعة أكثر من اهتمامه بإصلاح الهفوات وتصحيح التحريفات ! وهي فهارس نرى من حشو الكلام أن نزيد فى قدرها ، وأن نشيد بها ، وأن نكرر الثناء على صاحبها .

وقد بلغ من حسن ظن السيد المشكاة بهذه النسخة الخطية الوحيدة أنه قال فيها : [إنها نسخة مهذبة ... إلا أنها مع ذلك لا تخلو من أغلاط قليلة لا يسلم منها أى ناسخ] ، وتلك شهادة الرجل الكريم حين يحسن الظن بالناس و بالأشياء ! فالحق أنها نسخة مملوءة بأغلاط كثيرة ستظهر من الهوامش الكثيرة التى سيلقاها القارئ هنا فى هذه الطبعة المصرية .

والحق أننا كدنا نحسن الظن بالنسخة وناسخها حينما وقعت العين لأول وهلة على خطها الواضح المقروء فى سهولة ويسر ، ولكننا آثرنا جانب الحذر والحيطة على جانب الإحسان بالظن ، حين يكون حسن الظن مفضيا إلى مشايعة المخطىء ، ومتابعة المحرِّف ، ومجانبة المصيب !

والحق أن تصحيح الآيات القرآنية لم يتعبنا قدر ما أتعبنا تقويم النص وإصلاح الشعر ، ورد أكثره إلى قائليه الذين أغفلهم الشريف الرضى رحمه الله ، ثقة منه بعرفان الناس فى زمانه لهذه الشواهد ولأصحابها . ولكن بعضا من هذه الشواهد الشعرية قد خفى قائلوه حتى على السابقين من المفسرين والأدباء ومؤلفى كتب الشواهد، وصاحب « لسان العرب » نفسه ! مع أنه أكثر مصادرنا ومراجعنا فى أبيات الاستشهاد . ومع ما بذلتُ من جهد فى سبيل تحقيق نسبة الشعر المستشهد به إلى قائليه ، فقد بقيت بضعة أبيات لم أقف لها على أثر فى كتب المراجع التى يجدها القارئ فى فهرس خاص فى آخر الكتاب ، ولعل الله يتيح لها من القراء الكرام من يزيح عنها نقاب الخفاء ، فيسهم فى التحقيق بما توجبه وشائج العلم وروابط الفكر ، وهى وشائج مجابة الدعاء ، وحقوقها واجبة الأداء .

القيمة العلمية والأدبية لهذا الكتاب

أشار الشريف الرضى فى مقدمة كتابه « المجازات النبوية » إلى كتابه هذا : «تلخيص البيان فى مجازات القرآن » إشارة تحمل رأى المصنف فى تصنيفه قال فيها : (فإنى عرفت ما شافهتنى به من استحسانك الخبيئة التى أطلعتها ، والدفينة التى أثرتها ، من كتابى الموسوم بتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، وأنى سلكت من ذلك محجة لم تسلك ، وطرقت بابا لم يطرق ، ومارغبتَ إلىّ فيه من سلوك مثل تلك الطريقة فى عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ...[1]) .

وظاهر هذه العبارة أن هذا ليس رأى الشريف الرضى فى كتابه «تلخيص البيان» ، ولكنه رأى الذى يخاطبه فى مقدمة المجازات النبوية ...! وأيًّا ما كان الأمر فإن الحق أن الشريف الرضى سلك فى « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » محجة لم تسلك ، وطرق بابا لم يطرق. فإن كتابا قائما بذاته مستقلا بنفسه لم يظهر فى مجازات القرآن كما ظهر كتاب الشريف الرضى فى أخريات القرن الرابع الهجرى . وقد ذكرنا قبلا أن « مجازات القرآن » لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩هـ،لا يدخل فى باب المجاز بمعناه البيانى ومدلوله البلاغى المقابل للحقيقة عند علماء البيان ، ولكنه يستعمل المجاز بمعنى التفسير والتأويل لمعانى القرآن ، سواء أكانت واردة على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز البيانى .

أما إشارات الجاحظ وتلميذه ابن قتيبة إلى المجازات والاستعارات القرآنية بالمعنى الاصطلاحى عند البيانيين فلم تكن إلا لمعا بيانية منثورة فى « البيان والتبيين » ، « والحيوان » ، « وتأويل مشكل القرآن » ، ولم تأخذ ذلك المنهج القائم الكامل الذى سلكه الشريف الرضى فى « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » .

---

(١) المجازات النبوية . طبع مصر . ص ١٩

ومن هنا كان « تلخيص البيان » أول كتاب كامل ألف لغرض واحد ، وهو متابعة المجازات والاستعارات فى كلام الله كله سورة سورة وآية آية . ومن هنا كانت القيمة العلمية لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى هذا الغرض . فهو يقوم فى التراث العربى الإسلامى وحده شاهدا على أن الشريف الرضى خطا أول خطوة فى التأليف فى مجازات القرآن واستعاراته تأليفا مستقلا بذاته ، ولم يأت عرَضا فى خلال كتاب ، أو بابا من أبواب مصنَّف .

ويظهر أن الله شاء أن يظل كتاب مجازات القرآن للشريف الرضى وحده ، وأن يتفرد بهذه المزية فلا يشركه كتاب عربى آخر فى مجازات القرآن . فقد ذكر صاحب « كشف الظنون » أن لعز الدين بن عبدالسلام سلطان العلماء المصرى الشافعى الدمشقى (المتوفى سنة ٦٦٠ ﻫ) كتابا اسمه « مجاز القرآن » ، وأن جلال الدين السيوطى(المتوفى سنة ٩١١ ﻫ) قد اختصره وسماه : « مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن » فأين كتاب العز بن عبد السلام ؟ وأين مختصر السيوطى له ؟ وهل هو فى مجاز القرآن بالمعنى الذى قصده أبو عبيدة ؟أم بالمعنى البيانى الاستعارى الذى انفرد الشريف الرضى بالتصنيف فيه ؟ الحق أن مصادرنا تسكت سكوتا مطبقا عن كتاب « مجاز القرآن » للعز بن عبد السلام . ولعله ضاع فيما ضاع من تراث الإسلام .

والحق أن السيوطى المؤرخ ــ رحمه الله ــ وهو يترجم لنفسه بنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة » ﺟ ١ ص ١٨٨ ذكر ثبتا شاملا بأسماء كتبه ورسائله ، فلم يذكر فيه اسم كتاب « مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن » الذى ذكر صاحب « كشف الظنون » أنه اختصره من كتاب « مجاز القرآن » لعز الدين بن عبد السلام . فكيف يفوت السيوطى نفسه أن يسجل لنفسه كتابا اختصره لسلطان العلماء قبله ؟ مع ما نعرفه من مبلغ حرص السيوطى على أن لا يفوته فى هذا الثبت الجامع كتاب واحد من كتبه ؟

إن السيوطى نفسه ــ فى كتاب آخر من كتبه ــ يساعدنا على حل هذا اللغز . ففى كتابه

« الإتقان فى علوم القرآن[1] » وفى الفصل الذى عقده للحديث عن حقيقة القرآن ومجازه يقول هذه العبارة عن المجاز القرآنى : (وقد أفرده بالتصنيف الإمام عز الدين بن عبد السلام ، ولخصتُه مع زيادات كثيرة فى كتاب سميته مجاز الفرسان ، إلى مجاز القرآن) .

فكيف نعلل إغفال السيوطى لذكر كتابه هذا عن مجاز القرآن فى ثبت مؤلفاته الذى ذكره فى ترجمة حياته فى كتابه « حسن المحاضرة » ؟ يبدو أن العلة من اليسر والوضوح بحيث لا تثير شكا ولا خلافا ولا إلغازا ؟ فقد كتب السيوطى كتابه « حسن المحاضرة » قبل أن يؤلف « مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن » ، الذى يبدو أنه صنفه بأخرة من عمره ، ومن هنا لم يدرجه فى ثبت مؤلفاته لأنه كان لا يزال مستكنا فى طوايا المجهول المغيَّب .

على أن ابن شاكر الكتبى لم يذكر فى « الوافى بالوفيات[2] » ـ وهو يترجم لعز الدين ابن عبد السلام ـ أن له كتابا فى « مجاز القرآن » مع أنه ذكر له « القواعد الكبرى » و « القواعد الصغرى » و « مقاصد الرعاية » و « مختصر نهاية المطلب » وغيرها ، فلماذا أغفل ابن شاكر الكتبى كتاب مجاز القرآن لعز الدين بن عبد السلام ؟ مع أن موضوع المجازات القرآنية نادر فى التأليف الإسلامى العربى ؟ .

الحق أن هذا الإغفال قد أوقعنا على عشوة من الأمر ، وحيرة من الرأى . وليست هذه بأول حيرة وقعنا فيها ونحن ننقب عن مجازات القرآن فى المصادر والمراجع ، فقد أوقعنا حاجى خليفة ـ صاحب كشف الظنون ـ فى حيرة أخرى وهو يذكر لنا فى حرف التاء من حروف المعجم كتابا باسم « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » للشيخ رضى الدين العزى ! ! فما هو هذا الكتاب الذى يتفق اسمه واسم كتاب الشريف الرضى الذى نقدمه اليوم إلى القراء الكرام محققاً مصححا مفهرسا ؟ ومن هو الشيخ رضى الدين

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ٣٦ (٢) الوافى بالوفيات ج ١ ص ٢٨٨ .

العزّىّ هذا الذى يقول صاحب « كشف الظنون » إنه مؤلف كتاب « تلخيص البيان عن عن مجازات القرآن » ؟؟ .

الحق أننا فى داجية من الأمر مظلمة ! فإن ملاچلبى - أو حاجى خليفة صاحب « كشف الظنون » - لم يذكر لنا « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » للشريف الرضى الذى يعرف المسلمون جميعا بأنه للشريف الرضى ، والذى صرح الشريف نفسه فى مقدمة كتابه « المجازات النبوية » بأنه صنع هذا على غرار ماصنع فى كتابه « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » .

والذى نعرفه عن صاحب « كشف الظنون » أنه بحاثة عن الكتب من طراز نادر فى تاريخ التراث الفكرى العربى ، فكيف فاته أن يذكر للشريف الرضى كتابه « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » الذى ذكره الشريف وأشار إليه فى كتابه « المجازات النبوية » ؟

إن حاجى خليفة لا يذكر للشريف الرضى إلا كتابا واحدا يسميه « المجاز » ، وهو بهذه التسمية المفردة يوقعنا فى حيرة أخرى ؛ فأى المجازات يعنى ؟ أهو مجاز الحديث النبوى ؟ أم هو مجازات القرآن، الذى صرح الشريف الرضى نفسه بأن عنوانه هو « تلخيص البيان عن مجاز القرآن » ؟؟

إن قراء « المجازات النبوية » فى الأمم الإسلامية كلها كانوا يعلمون حق العلم أن للشريف الرضى كتابا هو « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » ، ولكنهم لم يروه ولم يطلعوا عليه ، إلا حين يجوز الاطلاع على الغيب ! حتى جاء السيد الجليل محمد المشكاة ، فوفقه الله إلى العثور على نسخة خطية لهذا الكتاب الذى ينطق بالأدلة القاطعة التى

لا تثير شكا ولا تقبل نقضا بأنه للشريف الرضى ، كما أشرنا إلى ذلك قبلا بما لا يتسرب الوهم إلى خلافه

فكيف سكت صاحب كشف الظنون عن ذكر « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » ، للشريف الرضى ؟ وكيف نسب كتابا بهذا الاسم نفسه إلى الشيخ رضى الدين العزى ؟ فمن هو هذا الشيخ رضى الدين العزى ياترى ؟

لقد أضنانى البحث فى كل مظنة وغير مظنة من كتب التاريخ والتراجم والطبقات ، فلم أجد للشيخ رضى الدين العزى ذكرا ولا أثرا . وهنا لم أجد غير الظن بأن صاحب كشف الظنون يكون قد وهم فى الاسم فحرفه هذا التحريف ، أو يكون الاسم محرفا تحريفا مطبعيا حين طبع كشف الظنون فى استنبول سنة ١٣١١ هـ

بقى بعد هذا الكلام الطويل أن نثبت القيمة العلمية والأدبية لكتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى بعد أن حققنا صحة الكتاب وصحة نسبته للشريف الرضى ، وتفرُّدَه فى التراث الفكرى الإسلامى بمكان التحدث عن مجازات القرآن الكريم ، كما تفرّد كتاب « المجازات النبوية » للشريف أيضا بحديثه عن مجازات السنة النبوية .

* * *

إن إعجاز القرآن فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه من الحقائق الخالدة التى أطبق المسلمون عليها ، وقد سلك فى التعبير سبلا هى مما ألفه العرب ، ولكن فصحاءهم وبلغاءهم أعجز من أن يأتوا بمثله ولو ظاهر بعضهم بعضا . فهذه المسالك اللطيفة والدروب الدقيقة ، والغرائب العجيبة فى التعبير ، والنكت البلاغية الخفية والظاهرة ، مَنْ يرفع الستر عنها ، ويكشف النقاب عما حوته من روعة الجمال ، وقدسية الجلال ؟ وهذه الأسرار البلاغية فى

كتاب الله ، مَن يُطلع دفائنها ويخرج خزائنها ويعرضها عرض الصير في الخبير والناقد البصير ؟

وهذه الاستعمالات القرآنية العجيبة مَنْ يجد لها في لغة العرب ماجرى القرآن على مسنونه ، حتى لا يكون هذا الكتاب الكريم بدعا مما اعتادته العرب من وجوه الكلام ؟

وهذه المجازات القرآنية مَنْ يميط اللثام عن حقيقتها ، ويزيح الشُّبَهَ الناجمة من سوء فهمها ؟ ألم يفهم قوم من قوله تعالى: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ معنى التناسخ . مع أن الله - كما يقول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن - لم يرد في هذا الخطاب إنسانا بعينه ، وإنما خاطب جميع الناس كما قال : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ كما يقول القائل: يأيها الرجل ! وكلكم ذلك الرجل. فأراد أنه صوَّرهم وعدَّلهم في أي صورة شاء ركَّبهم من حسن وقبح ، وبياض وسواد ، وأدمة وحمرة .

وهذه الاستعارات القرآنية مَنْ يكشف عن حقيقتها فيبين أن ظاهر اللفظ لم يقصد ، وإنما قصد غيره لعلاقة ؟ ففي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ لم يقصد ظاهر الكلام من الكشف عن السوق حقيقة ، [وإنما المقصود أنه يكشف عن شدة من الأمر - كما قال قتادة - أو عن أمر عظيم كما قال إبراهيم النخعي . وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمَّر عن ساقه . فاستعيرت الساق في موضع الشدة] (١)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ مَن الذي يبين لنا أنه المقصود ليس تطهير الثياب حقيقة وإنما القصد تطهير النفس من الذنوب، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه؟(٢) ثم قد تكون الثياب هنا بمعنى الأزواج ، لأنَّ الله قال في آية أخرى عن الأزواج : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ واللباس والثياب بمعنى واحد ، فكأنه تعالى أمر النبي

---

(١) تأويل مشكل القرآن . لابن قتيبة ص ١٠٣ .   (٢) المصدر السابق ص ١٠٧ .

عليه السلام أن يستطهر النساء، أي يختارهن طاهرات من دنس الكفر، ودرن العيب، لأنهن مظان الاستيلاد، ومضام الأولاد[1].

وهذه الأساليب القرآنية والمقاصد البيانية اللطاف، مَنْ يفسِّرها بما يزيح لثامها ويوضح أعلامها، فيبين لنا مثلا أنّ القصد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى لاتعيبوا إخوانكم من المسلمين، لأنهم كأنفسكم، أو أن القصد من قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أن الله عز وجل يسم وجهه يوم القيامة بالسواد جريا على مذاهب العرب حين يقولون: وسم فلانا بميسم سوء. أى سبَّه سبةً قبيحة وثنا عليه فاحشة، يريدون: ألصق به عارا لايفارقه، كما أن السّمة لا تمّحى ولايعفو أثرها كما قال جرير

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمى وعلى البَعيث جدعتُ أنف الأخطَل

أى أنه وسم الفرزدق وجدع أنف الأخطل بالهجاء، أى أبقى عليه عارا باقيا مثل الجدْع والوسم؟؟

لقد تناول المفسرون والمؤولون السابقون أمثال هذه الأساليب والتعبيرات بالشرح والتفسير، ملتمسين لها فى لغة العرب أمثالا وأشباها. ولكن هذه التأويلات والشروح لم تنتظم القرآن كله سورةً سورةً من أوله إلى آخره، ولكنها كانت تأتى متفرقة متناثرة فى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين. وهؤلاء كانوا يفسرون اجتهادا منهم أوسماعا من رسول الله، الذى لم يكن يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعد، علَّمهن إياه جبريل[2].

فهذا على بن أبى طالب كان أكثر الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - تفسيراً للقرآن الكريم، حتى روى مَعْمر عن وهب بن عبدالله بن أبى الطفيل قال: «شهدت عليا رضى الله عنه يخطب ويقول: سلونى! فو الله لاتسألونى عن شىء إلا أخبرتكم. وسلونى عن كتاب الله. فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار؟ أفى سهل أم فى جبل[3]

(١) تلخيص البيان، فى تفسير مجازات سورة «المدثر». (٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٢٩

(٣) مناهل العرفان فى علوم القرآن: للزرقانى جـ ١ ص ٤٨٣.

وهذا ابن عباس رضى الله عنه يسأل عن معنى آية أو لفظة من القرآن الكريم فيجيب عن علم غزير تحقيقا لقول النبى فيه : « نعم ترجمان القرآن أنت » . فقد رُوى أن رجلا جاء ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم تعالى أخبرنى ! فذهب فسأله فقال ، : « كانت السموات رتقا لاتمطر ، وكانت الأرض رتقا لاتنبت، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات » فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره بجواب ابن عباس . فقال : « قد كنت أقول : ماتعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمتُ أنه أوتى علما » (1)

فتأويل مجازات القرآن وتوضيح أساليبه والكشف عن أسرار البلاغة فيه ، وتحليل استعاراته هو عمل بدأه الشريف الرضى متناولا القرآن كله وفق ترتيب السور فى المصحف الذى بين أيدينا ، ومتناولا كل آية فيها مجاز وَفقْ ترتيبها من السورة التى هى فيها . ومن هنا حق لنا أن نقول : إن الشريف الرضى فعل فى مجازات القرآن مافعله الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى تفسير القرآن ، من حيث وضع التفسير لكل آية من كتاب الله أو جزء من آية مرتبة حسب ترتيب المصحف (2)

على أننا نتتهز هنا هذه الفرصة لنقول إن « مجازات القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنه ٢٠٩ قد أصبح ـ بعد طبعه الآن ـ أقدم التفاسير المطبوعة لكتاب الله ، وأنه أسبق من تفسير الطبرى بعشرات من السنين

* * *

ولسنا نعد « تلخيص البيان » للشريف الرضى تفسيرا للقرآن بالمعنى الكامل الصحيح لكلمة التفسير، لأنه لم يتناول القرآن الكريم كلمة كلمة كما فعل الطبرى

(١) المصدر السابق ص ٤٨٤ .

(٢) قد يقال إن الفراء المتوفى سنه ٢٠٧ هو أول من فسر كتاب الله آية آية حسب ترتيب المصحف كما يفهم ذلك من نص ساقه ابن النديم فى الفهرست ص ٦٦ ، ولكن ذلك ليس قاطعا فى القضية .

والنسفى والقرطبى والبيضاوى وابن كثير وغيرهم ، ولكنه كان يعرض القرآن كله سورة سورة ، فيستخرج من كل سورة الآيات التى فيها مجاز بيانى ، ويكشف عما فيها من وجوه المجاز والاستعارة والبيان . وقد تكون السورة مثلا مائتين أو أكثر من الآيات ، فلا يخلص منها على المجاز إلا بضع عشرات من الآيات ، أما بقية الآيات التى ليس فيها مجاز فلم يتعرض الشريف الرضى لها ، ولكنه يسقطها من سمط السورة . وقد يحدث أن تكون سورة قرآنية قد خلت من المجاز جملة ، فيشير المصنف إلى ذلك قائلا : « وليس فى هذه السورة شىء من غرض كتابنا هذا » أو « ولم نجد فى هذه السورة شيئاً من المعنى الذى قصدنا إليه » أو غير ذلك من العبارات الدالة على خلو السورة من المجاز ، كما فعل فى سورة « عبس » و « الانفطار » وغيرهما .

على أننا إذا أعرضنا جانبا عن ذكر المجازات البيانية فى « تلخيص البيان » فإننا نجده بجانب ذلك قد خدم اللغة خدمة لا ينتظر صدورها إلا من مثل الشريف الرضى فى علو كعبه وثبوت قدمه فى لغة العرب . فهذا الفيض الغزير من العبارات الفصاح والألفاظ اللغوية ، والتراكيب التى جرت من العربية فى الصميم ، والاستعمالات التى صح ورودها عن العرب الفصحاء البلغاء ـ هـذا الفيض الفياض من الذخيرة اللغوية الحية فى الأمثال والتراكيب ، قد فاض به « تلخيص البيان » فيضانا كانت مظنته فى كتب اللغة لا فى مجازات القرآن ، ولكن الشريف الرضى بحر صادف فى القرآن الكريم محيطا لا تنفد مادته ولا ينضب معين القول فيه ، فملأ كتابه باستعمالات عربية فصيحة ساقها دعما لقضيته وسندا لمسائله ، فاجتمع من ذلك هذا السيل اللغوى الذى لا تغبُّ فواضله ...

وأين لنا بمثل الشريف الرضى ليزخر كتابه بأمثال هذه الاستعمالات :

أخذت المرأة قناعها : أى لبسته . وأخذتُ هذا الأمر باليد : أى بالسلطان . وأعطيتُه

رجلا بريشه: أى بكُسْوَته . وأكلت الضبعُ القومَ : أى نهكتهم سنة الجدب . وأنا بعين الله: أى بمكان من حفظه . وبكينا فلانا بأطراف الرماح : أى طلبنا دمه وأدركنا ثأره . والقوم بيوتهم رِياء : أى متقابلة . ودُورُ بنى فلان تتراءى : أى تتقارب . وعلى وجه فلان قبول : أى كل ناظر إليه يقبله قلبه وتسر به نفسه . وفلان عندى بالميزان الراجح : إذا كان كريما عليك أو حبيبا إليك . وفلان يمشى على وجهه: إذا كان لا ينتفع بمواقع بصره . وهفا حلم الرجل : إذا احتد عند الغضب . ونفح الفرس فلانا بحافره : إذا أصابه إصابة خفيفة ولم يبلغ فى إيلامه الغاية . وهذه المرأة فى حبال فلان : أى فى ملكه وأسره . وهو عربى قلبا : أى عربى صريح النسب . وفلان على الواضحة من أمره : إذا كان عالما بما يورده ويصدره ؟

أين لنا بمن يدون مئات من الاستعمالات الفصاح فى كتاب يتحدث عن مجازات القرآن ؟ لقد دل الشريف هنا على أنه واسع الاطلاع فى العربية، عليم بأسرارها ، خبير بدقائقها ، ملم باستعمالاتها ، وأنه تثقف ثقافة لغوية بعيدة الأصول، عميقة الجذور . وحسبه أن يكون من بيت الرسول العربى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو مدينة العلم[1] . وأن يكون جده على بن أبى طالب باب مدينة العلم ، وأن يكون من أساتذته السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨هـ، وأبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة

(١) قال صلى الله عليه وسلم . « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، ولن تدخل المدينة إلا من بابها » المجازات النبوية طبع مصر ص ١٥٨ .

٣٩٢ هـ ، وأبو الحسن على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٢٠[1] هـ ، وعبد الرحيم بن نباتة الخطيب العربى المعروف المتوفى سنة ٣٩٤ هـ وغيرهم .

ثم هـذه الشواهد الشعرية الكثيرة المبثوثة فى تضاعيف كتاب « تلخيص البيان » والتى ترتد بنسبها إلى أبى ذؤيب الهذلى ، وأبى كبير الهذلى ، والأفوه الأودى ، ، وامرىء القيس ، والنابغة الذبيانى ، وعبـدة بن الطبيب ، وعنترة العبسى ، والمتنخل ، وملاعب الأسنة ، وبقيلة الأكبر الأشجعى ، وأبى الهندى ، والعديل بن الفرخ ، وطرفة ، والخطام ، وذى الرمة ، وعمر بن أبى ربيعة ، وجرير وغيرهم من أساطين الشعر العربى الذين يحتج بهم ويستشهد بأقوالهم ـ ألا تدل هذه الكثرة الكاثرة من أبيات الاستشهاد على أن الشريف الرضى ضارب فى أعراق الأدب العربى بأوفر السهام ، وأنه ينزع إلى صميم العربية بأعراق وأعراق . فما استشهد بشاعر واحد من المولدين ـ على كثرتهم ـ فى عصره وقبل عصره . ولكنه وقف بغاية الاحتجاج عند العصر الأموى ، فلم يجاوزه إلى العصر العباسى ، الذى انقطع فيه الاستشهاد بالشعر العربى بما بدأ يدخل فيه أو يطرأ عليه من العوامل التى نحّته عن مكان الاستشهاد ، ومقام الاحتجاج .

أما الأحاديث النبوية التى استشهد بها الشريف الرضى فى مقامات الاستشهاد فلم تبلغ من الكثرة مايجعلها ظاهرة واضحة المعالم فى الكتاب ، إنها ستة أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهن صحيح الإسناد . فحديث: (اللهم اشدد وطأتك على مضر) أى أغلظ عليهم عقابك ، وضاعف عليهم عذابك ، حديث صحيح السند ذكره ابن حنبل فى « المسند » عن سفيان عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة ، وقد رواه ابن سعد

(١) فى المجازات النبوية طبع القاهرة س ٢٨٣ أن الربعى توفى سنة ٤٣٥ : وهذا خطأ صوابه ماذكره القفطى فى « إنباه الرواة » بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم من أنه توفى سنة ٤٢٠ . ج ٢ س ٢٩٧ . وهـذا موافق لما ذكره جورجى زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٢ س ٣٠٤ ، وما ذكره العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى فى الغدير ج ٤ س ١٦٢ .

في « الطبقات » عن الفضل بن دكين عن سفيان بن عيينة عن بقية الإسناد السابق ، ورواه مسلم فى صحيحه عن طريق يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب ، ورواه البخارى من أوجه كثيرة عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقد أورد الشريف الرضى من هذا الحديث مايحتج به لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أما نص الحديث كاملا فهو ـ كما جاء فى مسند ابن حنبل : (لما رفع النبى صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الأخيرة من صلاة الصبح قال : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين بمكة . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف)[1]

أما حديث : (أنا برىء من كل مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما) فهو من صحيح أبى داود ، وقد رواه هشيم ، ومعمر ، وخالد الواسطى . وقد أورده الشريف غير تام ، كعادته فى إيراد مايحتج به . ونص الحديث كاملا كما فى سنن أبى داود : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود ، فأسرع فيهم القتل . قال فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قالوا : يارسول الله ! ولم ؟ قال : لا تراءى ناراهما)[2] وقد أورد الشريف الرضى هذا الحديث فى كتابه « المجازات النبوية » ليكشف هناك عما فيه من استعارة[3] .

أما قوله عليه الصلاة والسلام « وهل ترك عقيل لنا من دار » الذى ساقه الشريف

---

(١) المسند لابن حنبل ، بتحقيق المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ، ونشر دار المعارف بمصر ج ١٢ ص ٢٥٠ ـ الحديث رقم ٧٢٥٩ . وانظره فى « صحيح البخارى » ج ٢ ص ٢٦

(٢) سنن أبى داود ج ١ ص ٢٦١ .

(٣) المجازات النبوية ص ١٩٨ .

الرضى فى معرض الحديث عن قوله تعالى فى سورة « ق » : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ فهو من الأخبار النبوية التى أضنانا العثور عليها فى مظان كثيرة ، حتى كاد اليأس يصرفنا عن مواصلة البحث . إلى أن هدانا الله للوقوف عليه فى كتاب « إمتاع الأسماع » للمقريزى . وقد قاله النبى عليه السلام يوم فتح مكة حين مضى الزبير بن العوام برايته حتى ركزها عند قبة رسول الله ، وكان معه أم سلمة وميمونة رضى الله عنهما ، وقيل : يا رسول الله ! ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال : وهل ترك عقيل لنا منزلا ؟ وكان عقيل بن أبى طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل إخوته[1] .

وهذا خبر لم تأت به كتب التاريخ والسيرة والمغازى التى بين أيدينا ـ على قدر اطلاعنا ـ فكان للعثور عليه « فى إمتاع الأسماع » للمقريزى فرحة بعد طول المراجعة ، وكثرة التنقير . وقد أفادنا السيد محمد المشكاة محقق المخطوطة المصورة فائدة جليلة حين ذكر هذا الخبر النبوى نقلا عن « تفسير التبيان » للشيخ الطوسى (طبع طهران ج ٢ ص ٦١٤) .

وبمثل هذا الخبر النبوى نستطيع أن نقول إن « تلخيص البيان » قد ذكر من أنباء فتح مكة ـ على الإيجاز ـ ما لم تذكره أكثر المراجع التاريخية وأكبرها وأقدمها تدوينا لحوادث الرسول . وكذلك كان شأنه حين ذكر قوله عليه الصلاة والسلام : (إنكم تموتون كما تنامون ، وتبعثون كما تستيقظون) فهذا الحديث النبوى البليغ هو من خطبة

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٨١ .

النبي عليه السلام ، وهي أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه إلى الإسلام . والخطبة كاملة فى كتاب « جمهرة خطب العرب » ج ١ ص ٥١ ، وقد نقلها صاحب الجمهرة عن « السيرة الحلبية » ج ١ ص ٢٧٢ ، وعن « الكامل » لابن الأثير ج ٢ ص ٢٧

أما حديث (نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر) الذى ساقه الشريف الرضى فى خلال الحديث عن مجازات سورة الزمر ، فهو من الأحاديث التى أوردها المصنف فى كتابه الآخر « المجازات النبوية » وهو الحديث رقم ١٠٧ من الطبعة المصرية . وقد ساقه الشريف الرضى فى « تلخيص البيان » غير تام ، وتمام الحديث ـ كما فى المجازات النبوية ـ : (اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحَوْر بعد الكور ، وسوء النظر فى الأهل والمال) .

ويقتضينا التحقيق فى سبيل الحق هنا أن نقول إن « الحَوْر » هى بالحاء المهملة المفتوحة والواو الساكنة ، وهو النقصان ، و « الكَوْر » بفتح الكاف هو الزيادة . فنقط الحور بالجيم المعجمة فى نسخة إيران المصورة(١) هو وهم لا محل له ، وخاصة بعد وجود الحديث صحيحاً فى المجازات النبوية وفى معاجم اللغة(٢) .

القراءات فى تلخيص البيان

يلاحظ المتأمل عند أدنى نظر إلى هذا الكتاب أن الشريف الرضى يورد كثيراً من الآيات على قراءات غير القراءة فى المصحف الذى بين أيدينا . وهى قراءات صحيحة غير شاذة ، لأنها للأئمة السبعة المروية قراءاتهم بالتواتر ، وهم ابن عامر المتوفى بدمشق سنة ١١٨ هـ ،

---

(١) انظر صفحة ٩٠ من فهارس « تلخيص البيان » المطبوعة تصويراً فى إيران .
(٢) انظر « أساس البلاغة » للزمخشرى مادة (حور) .

وابن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠هـ ، وعاصم بن أبي النَّجود المتوفى بالكوفة ـ أو بالسماوة ـ سنة ١٢٧هـ ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات (المتوفى بحلوان سنة ١٥٦ هـ ، ونافع بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، والكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ .

ففي سورة البقرة نجد هذه الآية : ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمنوا وما يخادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ وقراءة حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر : ﴿ وما يَخْدَعُون ﴾ .

وفي سورة النساء نجد هذه الآية ﴿ والَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ بفعل المفاعلة وهي قراءة .

وفي سورة الأنعام نجد هذه الآية : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ ٱللَّيْلِ سَكَنًا ﴾ أي أن جاعل بصيغة فاعِل ، وهي قراءة رويس عن يعقوب ، وبها يقرأ أهل المدينة ، أما قراءة حمزة والكسائي والحسن وعيسى بن عمر فهي ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ وهي القراءة التي نقرؤها نحن .

وفي سورة الأعراف ذكر الشريف الرضي قراءة « ورياشا » مع قراءة « وريشًا » في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

وفي سورة يونس نجد قراءة « فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ » من الجَمْع ، بَدلاً من « فأَجْمِعُوا أمْرَكُمْ » من الإجماع . والأولى هي قراءة عاصم الجحدري ، وهو غير عاصم بن أبي النجود ، وقد رَوى عنه عيسى الثقفي من أصحاب القراءات الشاذة .

وفي سورة هود يروي الشريف الرضي قوله تعالى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ

مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ بكسر الواو المشددة ، ومسوَّمين بفتحها ، والكسر هو قراءة أبي عمرو وعاصم وابن كثير، والفتح هو قراءة بقية السبعة

وفى سورة التحريم ذكر المصنف رضى الله عنه قراءة «نُصوحا» مع قراءة « نَصوحا » بضم النون فى القراءة الأولى وفتحها فى الثانية فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ والضم هو قراءة أبى بكر بن عياش قرأها عن عاصم بن أبى النجود .

وقس على ذلك كثيرا من الآيات التى أوردها الشريف الرضى على بعض القراءات السبعة الصحيحة . وقلَّ أن نراه يلجأ إلى قراءة شاذة كما صنع فى قراءة « فاجْمَعُوا أمركم » التى أشرنا إليها سابقا .

ولا شك أن هذه القراءات التى روى بها الشريف الرضى فى كتابه هذا تجعل منه مرجعا لمن يطلبون معرفة القراءات ،وتضيف إلى قيمة الكتاب قيمة جديدة يهتم بها طلاب القراءات .

أفاضة الشريف الرضى فى البيان

لقد كان يقال عند مؤرخى الأدب فى الخمسين الماضية : إن « مجازات أبى عبيدة » هو أول كتاب فى علم البيان تناول كتاب الله من الناحية البيانية فيه . ولقد تابع مؤرخو الأدب أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى ـ رحمه الله ـ زمانا طويلا ونقلوا عنه كلامه هذا الذى ذكره فى كتابه « الوسيط » . فلما طبع كتاب «مجاز القرآن» لأبى عبيدة فى عامنا هذا بتحقيق الأديب التركى فؤاد سزكين بجامعة استنبول و بمعاونة المستشرق هـ. ريتر. تبين أن «مجاز القرآن» لأبى عبيدة ليس إلا تفسيرا وجيزا لألفاظ القرآن الكريم ، وليس فيه من المعانى البيانية

فى كتاب الله ما يُغرى به عنوانه ، وما يوهم بأنه « أول كتاب دون فى علم البيان » كما ذكر ذلك فى « الوسيط » للأستاذين أحمد الإسكندرى ، ومصطفى عنانى .

وعذر القائلين بهذا ومن تابعهم على هذا الرأى أنهم لم يطلعوا على « مجازات القرآن » لأبى عبيدة ، وقد كان مطويا فى ضمائر الغيب ، ولم يأخذوا إلا بظاهر عنوان الكتاب ، وبما صنعه ابن النديم من عدّه كتاب أبى عبيدة فى كتب مجازات القرآن .

على أن الله قد أذن لمجازات أبى عبيدة أن يرى النور فى هذه الطبعة الوثيقة المحققة التى نشرها السيد سامى الخانجى ، فخدم بها الحقيقة خدمة لا تقل عن خدمته لكتاب الله تعالى بنشر هذا الأثر القديم ، الذى أصبح الآن أول وأقدم كتاب فى تفسير معانى القرآن الكريم ، بعد أن كان تفسير الطبرى له مكان الأقدمية فى هذا

ولكن أبا عبيدة ــ رحمه الله ــ لم يكن فى تفسيره هذا ــ أو فى مجازاته ــ طويل النفَس ، ممدود الأمراس . فهو يوجز فى تأويل اللفظة القرآنية إيجازا قد يبلغ فى أكثر الأحيان إلى حد وضع اللفظة المفسِّرة مكان اللفظة المفسَّرة . كقوله فى تفسير سورة آل عمران .

﴿ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الحسرة : الندامة .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ أى إذا أجمعت.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ : أنْ يُخان.

﴿ لو نَعْلَمُ قِتَالاً ﴾ : أى لو نعرف قتالا .

﴿ فادْرَءوا عَنْ أنفسِكُمْ ﴾ : أى ادفعوا عن أنفسكم .

﴿ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ ﴾ : يختار .

﴿ سَيُكْتَبُ مَا قَالُوا ﴾ : سيحفظ .

ولا يزيد أبو عبيدة على هذا التفسير اللفظي كلمة واحدة توضح المعنى ، أو تؤيده من شواهد العرب، أو توثقه برأى بعض المفسرين السابقين عليه . ويمضى فى الكتاب كله على هذا الضرب من الإيجاز كأنه يفصّل التفسير على القدّ ، لا يزيد على الكلمة المفسرة حرفا . . . وإن كان فى كثير من الألفاظ يزيد الشرح ويسوق الشاهد من شعر صحيح فصيح يحتج به ، ويُعرب اللفظة على الوجه الذى يستقيم به المعنى المراد ، ويذكر اللغة أو اللغات فى اللفظة القرآنية [1]

فإذا انتقلنا إلى ابن قتيبة ـ فى القرن الثالث ـ فى « تأويله لمشكل القرآن » وجدناه يطيل الشرح ويتوسع فى التفسير ويزيد فى بيان المعنى بما يتضح به المراد . وإذا كان الكلام لا يبين إلا بالمثال، فإن مثلا واحدا هنا هو أبلغ فى الدلالة على ما نقول، فإن أبا عبيدة فى « مجاز القرآن » يفسر قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ بقوله : [الفتيل الذى فى شق النواة] [2] ولا يزيد على هذا حرفا واحدا يبين مرامى هذه الآية ، على حين أن ابن قتيبة فى « تأويل مشكل القرآن » يقول فى هذه الآية : [والفتيل ما يكون فى شق النواة ، والنقير النقرة التى فى ظهرها ، ولم يُرد أنهم لا يُظلمون ذلك بعينه ، وإنما أراد أنهم إذا حوسبوا لم يُظلَموا فى الحساب شيئا ، ولا مقدار هذين التافهين الحقيرين] [3]

---

(١) انظر الصفحات ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٦ من « مجاز القرآن » لأبى عبيدة . (٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة ص ١٢٩ . (٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٤ .

فإذا انتقلنا إلى الشريف الرضى ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ وجدناه يفيض فى الشرح ، ويتوسع فى التأويل بما لا يكشف عنه إلا الموازنة بين هؤلاء الثلاثة فى مواضع متحدة ، وآيات بعينها من كتاب الله .

فأبو عبيدة يقول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ من سورة الإسراء : [مجازُه فى موضع قولهم : لا تمسك عما ينبغى لك أن تبذل من الحق ، وهو مثل وتشبيه] على حين أن الشريف الرضى يقول فى مجاز هذه الآية : [وهذه استعارة . وليس المراد بها اليد التى هى الجارحة على الحقيقة ، وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير ، والكلام الآخر كناية عن التبذير . وكلاهما مذموم ، حتى يقف كل منهما عند حده ، ولا يجرى إلا إلى أمده ، وقد فسر هذا قولهُ سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾] .

وأبو عبيدة يقول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ : [الخيط الأبيض هو الصبح المصدق ، والخيط الأسود هو الليل ، والخيط هو اللون][1] ثم لا يزيد على هذا كلمة واحدة فى تفسير هذه الآية ، على حين أن الشريف الرضى يقول فى بيان مجازها : [وهذه استعارة عجيبة . والمراد بها على أحد التأويلات : حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل ، والخيطان ههنا مجاز ، وإنما شبها بذلك لأن خيط الصبح يكون فى أول طلوعه مستدقا خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً موليًا ، فهما جميعاً ضعيفان ، إلا أن هذا يزداد انتشاراً ، وهذا يزداد استسرارا] فهل ترك الشريف الرضى ـ رضى الله عنه ـ بهذا الشرح اللطيف ، والبيان الدقيق ، والبلاغة

---

(١) مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ص ٦٨ .

الواضحة مجالا لسائل ، أو محلا لمستوضح عن التعبير هنا بالخيط ؟ اللهم إنك واهب البيان ، ومعطى البلاغة بقدَر لكلّ لسان ! .

ومثال آخر حتى تجرى الموازنة إلى مداها ... وهو قول أبى عبيدة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ من سورة آل عمران : [تنقص من الليل فتزيد فى النهار ، وكذلك النهار من الليل][1]. فاسمع هنا قول الشريف الرضى فى مجاز هذه الآية الكريمة : [وهذه استعارة ، وهى عبارة عجيبة جداً عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا . والمعنى : أن ما ينقصه من النهار يزيده فى الليل ، وما ينقصه من الليل يزيده فى النهار . ولفظ الإيلاج ههنا أبلغ . لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما فى الآخر ، بلطيف الممازجة ، وشديد الملابسة] فنقْصُ هذا من ذاك هو المعنى المشترك المردَّد بين أبى عبيدة والشريف الرضى . أما النكتة البلاغية الدقيقة فى التعبير بلفظ الإيلاج بدلا من لفظ الإدخال ، فهو مراد بعيد جاء متأخراً عن عصر أبى عبيدة ، ولكنه لم يجد أحسن من الشريف الرضى فى التعبير عن لطف مسلكه ، ودقة سبيله .

وخذ أى آية شئت ـ أيها القارئ الكريم ـ من كتاب الله العزيز ، وتتبعها عند أبى عبيدة فى مجازه ، وعند ابن قتيبة فى مشكله ، وعند الشريف الرضى فى تلخيص بيانه ، فإنك مؤمن معنا فى النهاية بأن سليل البيت النبوى الكريم كان أغزر الثلاثة بياناً ، وأفصحهم لساناً ، وأبلغهم فى التعبير عن مرامى القرآن بعبارة أدبية مشرقة ناصعة ، يتضح فيها ذوق الأديب ، ورقة الشاعر ، وحسُّ البليغ ، أكثر مما يتضح فيها فقه اللغوى ، وعلم النحوى . . .

---

(١) مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ص ٩٠ .

خذ قوله تعـالى فى سورة آل عمران : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ واسمع ما يقوله فيها أبو عبيدة : [أى لم يلتفتوا إليه . يقال : نبذتَ حاجتى خلف ظهرك ، إذا لم تلتفت إليها . قال أبو الأسود الدؤلى :

نظرتَ إلى عنوانه فنبـــذته كنبذكَ نَعْلاً أخْلَقَتْ من نِعَالـكا]

ثم اسمع ما قاله الشريف الرضى فى كتابنا هذا : [وهذه استعارة . والمراد بها : أنهم غفلوا عن ذكره ، وتشاغلوا عن فهمه ، يعنى الـكتاب المنزل عليهم ، فـكان كالشىء الملقى خلف ظهر الإنسان ، لا يراه فيذكره ، ولا يلتفت إليه فينظره] .

الحق أن أبا عبيدة لغوى ، على حين أن الشريف الرضى أديب شاعر مطبوع ! .

وخـذ قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ ٱلَّيْلِ سَكَنًا ، وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ واسمع ما يقول أبو عبيدة هنا : [منصوبتين ؛ لأنه فرق بينهما و بين الليل المضاف إلى جاعل قولهُ : سكنا . فأعملوا فيهما الفعل الذى عمل فى قوله : سكنا ، فنصبوهما كما أخرجوهما من الإضافة][1] ثم اسمع واقرأ هنا ما كتبه الشريف الرضى : [وهذه استعارة ، والمعنى شاقُّ الصبح ومستخرجه من غسق الليل . وقوله سبحانه : فالقُ الإصباح ، أبلغ من قوله : شاق الإصباح ، إذ كانت قوة الانفلاق أشد من قوة الانشقاق ، ألا تراهم يقولون : انشق الظُّفر ، وانفلق الحجَر . وقوله تعالى : ﴿ وجاعِلُ ٱلَّيْلِ سَكَنًا ﴾ استعارة أخرى ، ومعناها على أحد القولين أنه سبحانه جعل الليل بمنزلة الشىء المحبوب الذى تسكن إليه النفوس وتحبه القلوب . يقال : فلانٌ سَكَنُ فلانٍ ، على هذا المعنى . والتأويل الأخير يُخرج الـكلام عن معنى الاستعارة ، وهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل الليل مظنة لانقطاع الأعمال ، والسكون بعد الحركات] .

---

(١) مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ص ٢٠١ .

ألا ترى أن أبا عبيدة فى مجاز هذه الآية الكريمة أو فى تأويلها - لم يكن أكثر من نحوى إمام فى النحو ، يبين لنا كيف انتصب الشمس والقمر باسم الفاعل « وجاعل » . وأن اسم الفاعل لما أضيف إلى مفعوله الأول وهو كلمة الليل جُرَّتْ بالإضافة ، على أن المعطوف على هذا المفعول الأول نصب لأن محله النصب .

أما الشريف الرضى فقد خرج فى هذه الآية من زمرة النحو والنحاة لأنه أديب شاعر بليغ يلتمس مواطن البلاغة والإعجاز فى الكلام ، فيبين لنا الفرق الدقيق بين فلق الصباح وشقه ، ولم قال الله : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ ولم يقل شاق الإصباح ؟ وما وجه الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا ﴾ ؟ وكيف ينتفى المجاز عن هذا التعبير إذا فسرنا السكن بمعناه الحقيق وهو السكون بعد الحركة ؟

وقد يقول قائل : إن الموازنة بين الشريف الرضى وأبى عبيدة فى مجازيهما للقرآن الكريم جائزة السبيل لأن سبيلهما فى المجاز غير واحدة ، فأبو عبيدة مفسر (وجائز) إلى معانى القرآن من أخصر طريق ، والشريف الرضى موضح لوجوه البلاغة والبيان فى القرآن . وفى هذا الكلام كثير من الحق الذى لاتنعقد معه موازنة بين اثنين مختلفى السبيل . ولكن ماظن القارىء فيما عقده ابن قتيبة من مجاز بيانى واستعارة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » وما تناوله الشريف الرضى من مجازات القرآن فى كتابه « تلخيص البيان » الذى نقدمه اليوم ؟

إن ابن قتيبة لم يفهم « المجاز » على أنه التأويل والتفسير والجواز إلى المعنى كما فهمه أبو عبيدة من قبل ، ولكنه فهمه على أنه المجاز المقابل للحقيقة أو الذى تقوم العلاقة فيه على التشبيه ، وهو ماسماه ابن قتيبة نفسه بالاستعارة ، وعقد له بابا مستقلا فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » .

فلننظر كيف يوضح ابن قتيبة مجاز آية من القرآن ، وكيف يتناول الشريف الرضى هذه الآية بعينها وكيف يكشف عن المجاز فيها .

يقول ابن قتيبة فى مجاز قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ وهى من سورة الرحمن : [والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن . ومجازُهُ : سنقصد لكم بعد طول الترك والإمهال . وقال قتادة : قد دنا من الله فراغ لخلقه ، يريد أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها](1) .

ويقول الشريف الرضى فى مجاز هذه الآية : [وهذه استعارة . وقد كان والدى الطاهر الأوحد ذو المناقب أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوى ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ سألنى عن هذه الآية فى عرض كلام جرّ ذكرها ، فأجبته فى الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها ، وهو أن يكون المراد بذلك : سنعمد لعقابكم ، ونأخذ فى جزائكم على مساوىء أعمالكم ، وأنشدته بيت جرير كاشفاً عن حقيقة هذا المعنى ، وهو قوله :

أَلَانَ وقد فرغتُ إلى نُمير فهذا حين صرتُ لها عذابا ؟

فقال : فرغت إلى نمير ، كما يقول : عمدت إليها ، فأعلمنا أن معنى فرغت ههنا معنى عمدت ، وقصدت . ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال : فرغت لها ولم يقل فرغت إليها . وقال بعضهم : إنما قال سبحانه : سنفرُغُ لكم ، ولم يقل : سنعمد . لأنه أراد : أى سنفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تجبيع(2) فيه ، ولا اشتغال بغيره عنه ، ولأنه لما كان الذى يعمد إلى الشىء ربما قصر فيه لشغله معه بغيره ، وكان الفارغ له ـ فى الغالب ـ هو المتوفر

(1) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧٧ .
(2) التجبيع فى العمل : هو عدم أخذه مأخذ الجد .

عليه دون غيره ، دُلِلْنا بذلك على المبالغة فى الوعيد من الجهة التى هى أعرف عندنا ، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ ، وأدلَّ الكلام على معنى الإيعاد . وقال بعضهم : أصل الاستعارة موضوع على مستعار منه ، ومستعار له ، فالمستعار منه أصل ، وهو أقوى : والمستعار له فرع ، وهو أضعف ، وهذا مطرد فى سائر الاستعارات . فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ﴾ من هذا القبيل . فالمستعار منه ههنا ما يجوز فيه الشغل وهو أفعال العباد ، والمستعار له ما لا يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال الله تعالى ، والمعنى الجامع لهما الوعيد ، إلا أن الوعيد بقول القائل : سأتفرغ لعقوبتك أقوى من الوعيد بقوله : سأعاقبك ، مِنْ قِبَلِ أنه كأنما قال : سأتجرد لمعاقبتك ، كأنه يريد استفراغ قوته فى العقوبة له ، ثم جاء القرآن على مطرح كلام العرب ، لأن معناه أسبق إلى النفس وأظهر للعقل . والمراد به تغليظ الوعيد ، والمبالغة فى التحذير . .]

ولا يقف الشريف الرضى عند هذا المدى من بيان الاستعارة فى هذه الآية . . . ولكنه يمضى فى البيان نصف صفحة أخرى حتى يوفى البيان حقه ، ويُبلغ البحث أجلَه . فأين هذه الإفاضة فى توضيح مغازى الكلام ومرامى القول فى هذه الآية من قول ابن قتيبة فى مجازها وهو لا يعدو ثلاثة أسطر ؟ .

على أن موازنة واحدة قد يكون فيها من الجور فى الحكم ما لا نرضى لأنفسنا به ، ونحن هنا لا نوازن قَصْدَ التعصب لرجل على رجل ، ولكن لنبين عن مدى التطور فى النظرة إلى تأويل القرآن الكريم والكشف عن مجازه ، ووجوه إعجازه . فأبو عبيدة فى القرن الثانى الهجرى يوجز فى التأويل والتفسير إيجازاً كان من طبيعة العصر الذى عاش فيه ، وابن قتيبة فى القرن الثالث يمد فى حبل البيان بما يوائم زمانه وما اقتضته سنة التدرج

فى نشأة البيان . والشريف الرضى فى القرن الرابع الهجرى يرخى الطِّول لحبل البيان ، ويمزج فى ذلك بين التطور البلاغى الذى صار إليه الأمر فى عصره، وبين ذوقه الأدبى الخاص الذى انحدر إليه من ميراث آبائه الكرام ، والذى صار إليه من طبيعته الأدبية الشعرية الخاصة . فإذا بلغنا القرن الخامس رأينا الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ والذى جمع فى البلاغة بين العلم والعمل ، فكان بجانب نظرياته وقوانينه البلاغية التى وضعها ، أديباً عملياً بليغاً يختلف عن المتأخرين بعده من البلاغيين الذى سلكوا بالبيان العربى مسلك العلوم النظرية الجافة ، فأحالوا البلاغة العربية إلى ألغاز وأحاج ومعميات، بعد أن كانت عند رجل ـ كالشريف الرضى ـ تطبيقاً عملياً رائعاً للبيان العربى الناصع المشرق الملامح ، الواضح القسمات .

ولن ننسى هنا موازنة ثانية بين ابن قتيبة والشريف الرضى فى بيان المجاز فى قوله تعالى فى سورة ق : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ قال ابن قتيبة : [وليس يومئذ قول منه لجهنم ، ولا قول من جهنم . وإنما هى عبارة عن سعتها[1]] ولم يزد ابن قتيبة على هذا كلمة واحدة ، مع أنه ساق هذه الآية فى باب المجاز المغاير للحقيقة . أما الشريف الرضى فإنه قال فى هذه الآية : [وهذه استعارة . لأن الخطاب للنار والجواب منها فى الحقيقة لا يصحان . وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنها فيما ظهر من امتلائها ، وبان من اغتصاصها بأهلها ، بمنزلة الناطقة بأنه لا مزيد فيها ، ولا سعة عندها ، وذلك كقول الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قَطْنى مهلا رويدا ! قد ملأْتَ بطنى !

---

(١) تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ص ٧٩ .

ولم يكن هناك قول من الحوض على الحقيقة ، ولـكن المعنى : أن ماظهر من امتلائه فى تلك الحال جارٍ مجرى القول منه ، فأقام تعالى الأمر المدرك بالعين ، مقام القول المسموع بالأذن . وقيل المعنى : إنا نقول لخزنة جهنم هذا القول ، ويكون الجواب منهم على حد الخطاب . ويكون ذلك من قبيل : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ فى إسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . وذلك كقولهم : ياخيل الله اركبى . والمراد : يارجال الله اركبى . وعلى القول الأول يكون مخرج هذا القول لجهنم على طريق التقرير لاستخراج الجواب بظاهر الحال ، لا على طريق الاستفهام والاستعلام ، إذ كان الله سبحانه قد علم امتلاءها قبل أن يظهر ذلك فيها . وإنما قال سبحانه هـذا الـكلام ليعلم الخلائق صحة وعده ، إذ يقول تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والوجه فى قوله تعالى فى الحـكاية عن جهنم : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ بمعنى لا من مزيد فىّ . وليس ذلك على طريق طلب الزيادة ، وهذا معروف فى الـكلام ، ومثله قوله عليه السلام : « وَهَل ترك عقيل لنا من دار ؟ » أى ماترك لنا دارا .]

وليس بعد كلام الشريف الرضى فى هذه الآية بيان ولا مزيد لمستزيد ... فقد أفاض ـ كعادته ـ فى الـكشف عن وجوه الاستعارة فى الآية الشريفة ، وأبان أن اغتصاص جهنم بأهلها كان بمنزلة النطق منها بأنها لا زيادة فيها ، ولا سعة عنـدها ، كما أيّد ذلك المجاز بقول الراجز : امتلأ الحوض وقال قَطْنى ، أى حسبى . فإن الحوض لا يتكلم ، وكذلك جهنم لا تتكلم ، ولـكن مايظهر من امتلاء الاثنين جَرَى مجرى النطق منهما . ثم أبان بعد ذلك أنه يجوز أن يكون المراد بالقول لجهنم هو القول لأهلها ، فـكأن الله تعالى قال : يوم نقول لأهل جهنم ، وهذا المجاز جائز لغة وهو الذى سماه البيانيون الاصطلاحيون بعد

ذلك بالمجاز الذى عـلاقته المحلية ، لأن جهنم محل لأهلهـا ، فـكأنه ذكر المحل وأراد الحالّ .

لعلنا قد بلغنا ما نريد من الحديث عن إفاضة الشريف الرضى فى كشفه لوجوه البيان فى القرآن ، وهى إفاضة سيراها القارىء الـكريم واضحة فى كل صفحة من الـكتاب ، وفى كل موطن من مواطن بيانه .

القرآن الـكريم بين الحقيقة والمجاز

لم يكن قبول فـكرة (المجاز) فى القرآن الـكريم أمرا سهلا عند المسلمين جميعا ، فهم مجمعون ـ على اختلاف مللهم ونحلهم ـ على وقوع الحقيقة فيه ، ولا يفترق فى ذلك بعض أصحاب المذاهب عن بعض . والحقيقة عندهم هى كل لفظ بقى على موضوعه ولا تقديم فيه ولا تأخير . وأ كثر القرآن من الحقائق . أما المجاز ـ المقابل للحقيقة ـ فالجمهور على أنه واقع فى القرآن ، و إن كان أنكره الظاهرية ، و ابن القاص من الشافعية ، وابن خويز منداد من المالـكية . وشبهتهم أن المجاز غير الحقيقة ، فهو كذب ، والقرآن منزه عن الـكذب ، كما أن المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة أو عجز عن التعبير بها فيستعير ، وذلك محال على الله تعالى القادر المنزه عن العجز . فالمنـكرون لوقوع المجاز اللغوى والعقلى فى القرآن يحتجون لذلك بحجتين : أولاهما أن المجاز كذب والـكذب محال على الله ، وثانيتهما أن الالتجاء إلى المجاز هو عجز عن التعبير بالحقيقة ، والعجز محال على الله .

وقد رد على هذه الشبه جماعة من المسلمين ، وكان من أسبقهم إلى ذلك ابن قتيبة الذى يقول فى حرارة : (ولو كان المجاز كذبا . . . كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر ، ونقول كان هذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كوّن) .

ومن الذين ردوا على هذه الشبه أيضا الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ﻫ حيث يقول : (وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن ، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها)(١)

ولعل للظاهرية ـ وهم أتباع الإمام داود بن على الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ ﻫ ـ عذرهم فى إنكار المجاز فى القرآن ، لأنهم يتمسكون بظاهر الكتاب والسنة ـ كما يدل على ذلك اسمهم ـ ولهذا لا يأخذون بالمجاز إلا إذا كان مشهورا وكانت القرينة واضحة معلنة عنه ، كاشفة له(٢) . فإذا غمض المجاز أو خفيت القرينة فإنهم لا يأخذون به .

وقد جرى ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ مجرى داود الظاهرى فى الأخذ بالمجاز المشهور الواضح وعدم التأويل فيه مادام يجرى على سنن الفصيح فى اللغة ، وذلك الظاهر هو الذى كان يفهمه العربى عند قراءة القرآن ، وكان يفهمه الصحابة والتابعون كما يدل عليه ظاهره ، سواء أكان مجازا أم حقيقة ، فإن المجاز لا يخرج الكلام عن الدلالة الظاهرة الواضحة المبينة ، مادامت له قرينة واضحة(٣) .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى طبعة محمود توفيق ، سنة ١٣٥٢ القاهرة . ج ٢ ص ٣٦.
(٢) ابن حزم ـ حياته وعصره . للشيخ محمد أبو زهرة ص٢٢٦ ، ٢٩٥ (٣) المصدر السابق ص ٢٢٦

وقد أودع الإمام السيوطى فى « الإتقان » كثيرا من المجازات والاستعارات القرآنية ، وردها إلى أنواع المجاز اللغوى ـ وهو المجاز فى المفرد لا فى التركيب ـ و بلغت هذه الأنواع عنده عشرين نوعا ، ثم انقسم النوع العشرون ـ وهو إقامة صيغة مقام أخرى ـ إلى أنواع أخر تزيد على العشرين .

على أن هـذه الأقسام والأنواع للمجاز والاستعارة لم يتعرض لها الشريف الرضى وهو يكشف عن مجازات القرآن كشفا تطبيقيا بلاغيا ، فإن تلك المسميات والمصطلحات لم تكن قد وضعت أو عرفت بعد فى عصر الشريف، الذى يقول مثلا فى مجاز قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [وهذه استعارة من مشاهير الاستعارات، والمراد : واسأل أهل القرية التى كنا فيها] . أما السيوطى فيتكلم عن هذه الآية بطريقة اصطلاحية فى علم البيان فيقول فى خلال حديثه عن أنواع المجازات القرآنية : [الرابع عشر : إطلاق اسم المحل على الحال نحو : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى أهل ناديه أى مجلسه ، ومنه التعبير باليد عن القدرة نحو : ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ . . . وبالقرية عن ساكنيها نحو : ﴿ وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾][1] .

وقد اشتدت حاجة مفسرى القرآن الكريم إلى طائفة من العلوم كان على رأسها ما عرف فى القرن الخامس وما بعده بعلوم البيان والمعانى ، فقد وضعوا لمفسر القرآن شروطا ، وأوجبوا عليه أن يعرف علم اللغة ليعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، وأن يعرف علم النحو ، لأن المعنى يتغير و يختلف باختلاف الإعراب ، وأن يعرف علم الصرف ، فإن الجهل بالصرف قد يفضى إلى الخطأ فى التفسير ، وللإمام الزمخشرى هنا كلمة نفيسة فقد قال:

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن . جـ ٢ ص ٣٧ .

[مِنْ بِدْعِ التفاسير قول من قال : إن « الإمام » فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ جَمْعُ أم ، وأن الناس يُدْعَوْن يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم . قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أمًّا لا تجمع على إمام] .

كما أوجبوا على المفسر أن يعرف طائفة أخرى من العلوم يبلغ مجموعها خمسة عشر علما . ولم يفتهم أن يضعوا البيان والمعانى بين هذه العلوم لمعرفة خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وخواصها من حيث اختلافها بحسب خفاء الدلالة ووضوحها .

وقد عد السيوطى علوم البلاغة من أعظم أركان المفسر ، لأنه لا بد له من مراعاة مايقتضيه الإعجاز ، وإنما يدرك هذا بهذه العلوم [1] .

مكان « تلخيص البيان » بين كتب التفسير

ليس « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى تفسيرا للقرآن الكريم بالمعنى العام الذى تدل عليه كلمة التفسير . فهو هنا لم يفسر القرآن كله آية آية ، وإنما تناول من كل سورة مافيها من الآيات المشتملة على مجاز . ولذا كان من الدقة أن نقول إن « تلخيص البيان » هو التفسير للآيات المجازية فى كتاب الله .

على أن للشريف الرضى كتابه الكبير فى تفسير القرآن، وهو « حقائق التأويل »

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨١ .

الذى يشير إليه فى « المجازات النبوية » وفى « تلخيص البيان » ، فيسميه تارة حقائق التأويل[1] ، ويسميه تارة بالكتاب الكبير فى مواضع غير قليلة .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن «حقائق التأويل» ، فليس هنا موضعه ، ولكننا نشير إشارة عابرة إلى قول النسابة العمرى فى المجدى : (شاهدت له ـ أى للشريف ـ جزءاً من مجلد من تفسير منسوب إليه فى القرآن ، مليح ، حسن ، يكون بالقياس فى كبر تفسير أبى جعفر الطبرى أو أكبر[2]) كما نشير إلى قول المؤرخ ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » وهو يقول : (وصنف كتاباً فى معانى القرآن الكريم يتعذر وجود مثله . دل على توسعه فى علم النحو واللغة)[3] ولعل كتابه هذا فى معانى القرآن الذى يشير إليه ابن خلكان هو كتاب حقائق التأويل أو الكتاب الكبير الذى يشير إليه الشريف نفسه[4] .

ولقد اختلفت طرائق المفسرين لكتاب الله بحسب الزوايا التى نظروا منها إليه ، وبحسب النواحى التى تخصصوا فيها ، ووقفوا دراساتهم عليها . فالنحوى لا همّ له فى تفسير القرآن إلا الإعراب وتكثير الأوجه المختلفة فيه ، ونقل قواعد النحو ومسائله وأصوله وفروعه وخلافاته ، فهو لا ينظر فى تفسيره إلا فى هذه الناحية النحوية التى غلبت عليه كما فعل الزجاج والواحدى فى « البسيط » ، وكما فعل أبو حيان فى تفسيره الكبير المسمى « البحر » ، وكما فعل فى « النهر » أيضا . واللغوى لا ينظر فى تفسيره إلا إلى ناحية لغات

---

(١) انظر « المجازات النبوية » طبع مصر ص ٢٥ ، وانظر « تلخيص البيان » فى مجازات سورة المائدة والتوبة والرعد والزخرف والتكوير . (٢) الغدير للعلامة عبد الحسين أحمد ، ج ٤ ص ١٧٥ طبع النجف . (٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣ . (٤) الغدير ج ٤ ص ١٧٥ .

القرآن . والأخبارى لا هم له فى تفسير القرآن إلا العناية بالقصص وأخبار الأمم البائدة ، وما جرى للرسل مع أقوامهم ، وما أرسل الله عليهم من ألوان العذاب وأنواع الهلاك ، سواء أكانت هذه الأخبار صحيحة أم باطلة . وممن فسر القرآن على هذا النحو « الثعلبى » أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ ه ، وقد كان الثعلبى بفطرته ميالا إلى الأخبار وقصص الأمم الماضية والقرون الخالية ، وله غير التفسير كتاب « عرائس المجالس » فى قصص الأنبياء ، وهو مشهور معروف وقد طبع غير مرة . أما الفقيه فإنه ـ إذا فسر القرآن ـ يكاد يسرد فيه أبواب الفقه كلها من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد ، لا يكاد يخرم من ذلك بابا واحدا ، وربما استطرد إلى إقامة الدلائل على فروع المسائل التى لا علاقة لها بالآية التى يفسرها ، بل ربما ذهب إلى أبعد من ذلك فأورد أدلة الموافقين والمخالفين . وممن صنع ذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ ه فى تفسيره الكبير « الجامع لأحكام القرآن » الذى أصدرته دار الكتب المصرية فى عشرين جزءا .

أما صاحب العلوم العقلية فإنه يملأ تفسيره للقرآن بأقوال الحكماء والفلاسفة وأصحاب الملل والنحل والمذاهب ، وآرائهم فى العالم والكون والفساد ، والبعث والمعاد ، والعلل والغايات ، والثواب والعقاب ، كما فعل الإمام فخر الدين الرازى(١) المتوفى سنة ٦٠٦ ه فى تفسيره الكبير ، فخرج عن الآيات التى يفسرها ، واستطرد وأطال الاستطراد بما يجعل من التفسير كتاباً للفلسفة ومعرضاً للمباحث العقلية ، حتى لقد قال فيه أبو حيان فى تفسيره

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين ، كان أوحد زمانه فى علوم المعقول والمنقول ، وهو قرشى النسب وكان يحسن الفارسية .

المعروف بالبحر : (جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة ، لا حاجة بها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شى إلا التفسير) .

ومن هنا صح لنا أن نقول إن « تلخيص البيان » للشريف الرضى هو تفسير لمجازات القرآن واستعاراته ، وكشف لطيف دقيق لوجوه البيان فى كتاب الله الكريم ، ولذا قلّ أن تجد فيه اهتماما بالقصص والأخبار ، أو التفاتاً إلى أحكام الفقه، إلا ما جاء عارضاً فى مسح الرأس ، أو اشتغالا بمبحث عقلى فلسفى ، لأنه قصد منه أن يكون كتابه تفسيراً للإعجاز البيانى فى القرآن لا غير .

والكشف عن بيان القرآن يتطلب أن يكون الكاشف عنه ذا بيان قوى . حتى تكون الوسيلة شريفة شرف غايتها ، فلا يعقل أن يكشف عن بلاغة القرآن قاصر الباع فى البلاغة ، ضيق الذراع فى الفصاحة ، ولذا كان الشريف الرضى أولى من يكشف عن بيان القرآن ، فقد رزقه الله من سحر البيان ، وذلاقة اللسان ، ووضوح الحجة ، وإشراق الديباجة ما ينهض بالعبء الذى قام به فأحسن القيام .

لقد كان الإمام القرطبى فقيها فغلب عليه الفقه فى تفسيره ، وكان الثعلبى إخبارياً فغلبت عليه فطرته فى القصص ، وكان الفخر الرازى حكيما فيلسوفا فغلبت عليه الفلسفة وهو يفسر كتاب الله . وكذلك كان الشريف الرضى ، فإنه فرع دوحة البلاغة ، وغصن شجرة الفصاحة ، وسليل البيت الذى خصه الله بالبيان ، فغلب ذلك على تفسيره الصغير المسمى « تلخيص البيان » ، وقد وصفناه بالصغير على طريق المقابلة ، حين وصف هو نفسه تفسيره الآخر بالكتاب الكبير . .

أيهما أسبق

مجازات القرآن أم المجازات النبوية ؟

للشريف الرضى غير هذا الكتاب فى مجازات القرآن كتاب آخر فى « المجازات النبوية » ، وقد تناول فيه أكثر من ثلثمائة وستين حديثاً من أحاديث الرسول عليه السلام، اشتملت على مجازات ولطائف استعارات ودقائق كنايات . وقد كنا قبل نشر المجازات النبوية نعد من مجازات الحديث وكناياته قلة تعد على أصابع اليد الواحدة ، كقوله عليه السلام : (الآن حمى الوطيس) و (هدنة على دخن) ، و (إياكم وخضراء الدمن) وهى المرأة الحسناء فى منبت السوء .

فلما طبع «المجازات النبوية» لأول مرة فى العراق منذ أربعين عاما تنبه الناس إلى حقول الحديث النبوى بكثرة رائعة من المجاز ، ولما أعيدت طبعته فى مصر سنة ١٣٥٦هـ سنة ١٩٣٧م ازداد عدد الذين وقفوا على هذه الكثرة من مجازات الرسول ، وتابعوا ذلك الشرح البيانى البليغ الذى جرى به قلم الشريف الرضى ، ورأوا فيه لوناً من الأدب العلوى الرفيع ، والذوق البلاغى الدال على حس مرهف .

ولم يتناول الشريف الرضى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية شرح غريبه كما صنع أبو عبيدة فى كتابه « غريب الحديث » وكما صنع ،الأصمعى وابن الأعرابى ، وابن قتيبة ، وابن الأنبارى ، وابن دريد ، والحضرمى ، والسلمى ، وابن درستويه ، وابن رستم وغيرهم من عشرات المصنفين فى غريب الحديث النبوى .

لا ! لم يفعل الشريف الرضى ذلك ، لأن البيان هنا غلب عليه ، كما غلب عليه

فى تفسيره لمجاز القرآن ، فألف « المجازات النبوية » : (إذ كان فى الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله كثير من الاستعارات البديعة ، ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة[1]) وأشار من ذلك إلى مواضع النكت ، ومواقع الغرض ، بالاعتبارات الوجيزة ، والإيماءات الخفيفة .

ولقد وجد الشريف نفسه أمام نصين أو مصدرين من مصادر البلاغة العربية ، أولهما معجز وهو القرآن الكريم الذى أنزل على النبى محمد ، وثانيهما فيه من معجزات البلاغة والفصاحة وجوامع الكلم ماجعله تاليا لكلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين[2] . فنصب الشريف الرضى مسنون عزمه لخدمة هذين المصدرين المقدسين عند المسلمين والعرب ، وتتبعهما تتبع دارس لهما ، مفتون بهما ، ليكشف عما فى كل منهما من جمال التعبير ، وروعة البيان ، وسحر البلاغة ، ولطف المسلك ، ووضوح الحجة ، وإشراق الديباجة، مما لم يَعْدُ أن يكون جاريا على سنن العرب ، ولكنهم لا يرقون إلى مثله مهما انقادت لهم أعنة الكلام ، وذلت لهم أزمّة البيان .

فأى المصدرين البلاغيين بدأ الشريف الرضى فى الكشف عن وجوه المجاز والإعجاز ؟ إنه يقول فى مقدمة كتابه «المجازات النبوية» : (فإنى عرفت ماشافهتنى به من استحسانك الخبيئة التى أطلعتها ، والدفينة التى أثرتها ، من كتابى الموسوم بتلخيص البيان عن مجازات القرآن) ثم يقول فى موضع آخر من المجازات النبوية : (وقد استقصينا الكلام على ذلك

---

(١) المجازات النبوية طبع القاهرة ص ١٩ ، ٢٠ .
(٢) لباب الآداب ، للأمير أسامة بن منقذ . تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر

فى كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن) وهاتان الإشارتان فيهما دليـل على أن كتاب تلخيص البيان كان سابقا فى تأليفه على المجازات النبوية ، وإلا لم يصنع المجازات النبوية على غراره ، ويسلك مثل تلك الطريقة[1] التى سلكها فى التلخيص .

ولـكننا نجد فى « تلخيص البيان » إشارة إلى كتاب المجازات النبوية ، فترى الشريف الرضى ـ فى مجازات سورة الشعراء ـ يقول : (وقد استقصينا الـكلام على معنى هـذا الخبر فى كتاب مجازات الآثار النبوية) ، وهذا نص يفهم منه أن « المجازات النبوية » كانت سابقة فى التأليف على « تلخيص البيان » .

ويبدو من ظاهر الإشارتين فى التلخيص والمجازات النبوية أنهما متعارضتان ، حيث يحيل فى التلخيص على المجازات النبوية، ثم يحيل فى هذه على التلخيص ، ولـكن المشكلة أهون حلاً من أن يظن فيها تعارض ، أو يتوهم فيها تناقض ، فالذى يبدو أن الشريف الرضى ـ رحمه الله ـ كان يشتغل فى تصنيف الـكتابين فى وقت واحد ، فهو يكتب هنا ويحيل على الـكتاب الثانى مادام فى حوزته ، وهو يجمع مادة المجازات النبوية فى الوقت الذى كان يصنّف فيه « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » ، فلما ظهر هذا الأخير واستحسن عند الخاصة والعامة ، ولقى من مشافهة الاستحسان ما اطمأنت به نفس الشريف ـ أخرج كتابه الآخر فى المجازات النبوية ، بعد أن كان بالفعل قد أعد مادته ، ومضى فيه لطيته .

---

(١) مقدمة المجازات النبوية ص ١٩

عصر الشريف الرضى

عاش الشريف الرضى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وأدرك ست سنوات من القرن الخامس . وولد سنة ٣٥٩ هـ ، وتوفى سنة ٤٠٦ هـ . فكأنه بذلك أدرك ثلاثة من خلفاء العباسيين ، وهم المطيع ، والطائع ، والقادر .

وكان الخلفاء فى ذلك العهد لا يملكون من الأمر شيئاً ، فليس الأمر بيدهم ، ولا تصاريف الحكم لهم ، وإنما كانت الدولة والكلمة والسلطان كله لبنى بويه الذين تغلبوا على بنى العباس ، ونزعوا من أيديهم كل سلطان ، وبدأوا ذلك فى عام سنة ٣٣٤ هـ أى ربع قرن قبل مولد الشريف .

على أن سلطان الخلفاء العباسيين كان قبل ذلك ضعيفا - أى قبل أن يمسك بنو بويه بزمام السلطان - فقد كان الخليفة المقتدر العباسى ، وهو أول خلفاء القرن الرابع الهجرى صبياً ضعيفاً ليس له من الأمر شىء ، وقد روعى فى انتخابه للخلافة بعد المكتفى أن يكون حدثاً صغيراً غراً ، وكان ابن الفرات الوزير مسئولا عن هذه الفضيحة الخلافية حين رشحه للخلافة قائلا : (إنه صبى لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن يُصرف من المكتب !) وكانت سنه حين اختير للخلافة ثلاثة عشر عاما .

ولقد كانت قوة بنى بويه على حساب الخلفاء العباسيين ، وكان معز الدولة بن بويه صاحب الأمر والنهى فى العراق ، على حين كان الخليفة مجرداً حتى من وزير يزرله ، وإنما كان له كاتب يدبر له إقطاعاته . وصار معز الدولة يستوزر لنفسه من شاء . ولقد بلغ من كراهة بنى بويه للعباسيين أن معز الدولة فكر فى أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن بنى العباس ، ويجعلها للعلويين ، لأنه كان شيعيا ، وكان يعتقد أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من

مستحقيها وأولى الناس بها وهم العلويون . ولكن بعض خواص معز الدولة أشار عليه أن لا يفعل ذلك ، وقال له : (إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا) فأعرض ابن بويه عما كان عزم عليه ، وأبقى للعباسيين اسم الخلافة ، وانفرد هو بالسلطان .

وما الظن بخليفة كالمستكفى ، لا يجلس فى كرسى الخلافة منذ استيلاء معز الدولة ابن بويه إلا أربعين يوما ، ثم يخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه ! وهو أضعف من أن يدبر . وقد كان خلعه مأساة مضحكة مبكية ، فقد دخل عليه اثنان من نقباء الديلم يصيحان وتناولا يده ، فظن أنهما يريدان تقبيلها ، فمدها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته فى حلقه ، ونهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، ونهبت الأموال ، وساق الرجلان الخليفة المستكفى ماشياً إلى دار معز الدولة بن بويه فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شىء .

ولقد كان الشريف الرضى فى مستكن الغيب حين وقعت هذه المأساة ، ولكن ما من شك فى أنها رويت له وهو طفل بعد مولده سنة ٣٥٩ ﻫ ، وما من شك فى أنه حين سمعها تعجب غاية العجب من مآسى الخلفاء .

ولقد ولد الشريف فى الخمس الأخيرة من خلافة المطيع العباسى ، ثم كان فى الخامسة من عمره حين تولى الطائع الخلافة العباسية سنة ٣٦٣ ﻫ ، ثم كان فى الثانية والعشرين من عمره حين تولى القادر الخلافة سنة ٣٨١ ﻫ ، وتوفى فى السنة الخامسة والعشرين من عهد هذا الخليفة .

وشهد الشريف الرضى من عهود بنى بويه عهدَ عز الدولة بختيار بن معز الدولة، ولكنه كان فى ذلك الحين صبياً لم يزد على الثامنة من عمره، وعهدَ عضدِ الدولة بن ركن الدولة بن بويه إلى سنة ٣٧٢ هـ، وعهد صمصام الدولة بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٦ هـ، وعهدَ شرف الدولة بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٩ هـ، وعصرَ بهاء الدولة بن عضد الدولة إلى سنة ٤٠٣ هـ، وأدرك من عصر سلطان الدولة بن بهاء الدولة ثلاث سنوات، إلى أن توفى سنة ٤٠٦ هـ كما سبق القول.

وقد شهد البيت البويهى صراعاً بين رجاله الذين شاركوا فى بنائه، وغلبت المطامع عليهم، فطمع بعضهم فى بعض، حتى لقد بلغ من عضد الدولة أن طمع فى ملك العراق وكان من نصيب ابن عمه بختيار، فتربص به الدوائر، وما زال به بين تهديد وإغراء حتى سلَّم له بختيار بملك العراق، فدخل عضد الدولة بغداد ظافراً، وأمر بابن بقية وزير بختيار أن يلقى بين قوائم الفيلة لتقتله، وصلب الوزير على رأس الجسر، وهو الوزير الذى رثاه الشاعر الأنبارى بقصيدته المشهورة التى مطلعها:

علو فى الحياة وفى الممات   لحقٌّ أنت إحدى المعجزات

ولم يكن صمصام الدولة بأسعد حظاً من بختيار، فقد اضطرب عليه أمر العراق حين خرج عليه أخوه شرف الدولة وناصبه العداء وقطع الخطبة باسمه، وهزم الجيش الذى سيره إليه. وانتهى الخلاف بين الأخوين بأن أصبح شرف الدولة سلطاناً على العراق، فدخل بغداد سنة ٣٧٦ هـ، ولما توفى سنة ٣٧٩ هـ تولى العراقَ بعده أخوه بهاء الدولة. ولم يهدأ له الأمر، فقد خرج عليه أقاربه وأهل بيته من بنى بويه، وحاولوا نزع السلطان منه، ولكنه انتصر عليهم.

وبهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى هذا هو سلطان العراق الذى اتصل به الشريف الرضى ، ومدحه مدائح جيادا ، وأطال القصائد فى مدحه . وطال الأمد ببهاء الدولة وهو ملك على العراق من سنة ٣٧٩هـ إلى سنة ٤٠٣هـ ـ أى ما يقرب من أربعة وعشرين عاما ، والشريف الرضى دائم الصلة به ، مجوّد المدائح فيه ، مطيل الثناء عليه ، محسن الدعابة معه . . . فيخاطبه تارة بالشعر الوحشى ، وأخرى بالقصائد الإنسية ، ويرق فى المديح فيقول مهنئاً إياه بعيد المهرجان سنة ٤٠٠ هـ :

انج من روعات أيا م وغارات خطوبِ
باقيا ما اختلف النَّوْ رُ على الغصن الرطيب
هــزّه الريح سليما من وُصُوم وعيوبِ
لالقاك الخَطْب إلا راميا غير مصيب
كلما أفنيتَ عُقبـــا جاد دهرٌ بعقيب
مهرجان عاد إلمـــا مَ مُحب بحبيب
وافدا جاء من الإقبـــال فى زوْر غريب
إن رَيْب الدهر أمسى لك مأمون المغيب(١)

ويقول من قصيدة أخرى مادحا إياه وشاكرا له على تلقيبه « بالرضى ذى الحسبين » وذلك سنة ٣٩٨ هـ :

رفعتَ اليوم من قدرى وأوطأتَ العدا عَقْبى

---

(١) شرح ديوان الشريف الرضى ، طبع عيسى الحلبى ج ١ ص ١٠١ .

ووسّعتَ لىَ الضِّيق إلى المضطرب الرحْبِ
وزاوجت لىَ الطَّوْل زواج الماء للعُشْبِ
فـكم من نعمة منك كعَرف المَندل الرطْبِ
أتتنى سمحة القَوْد ذَلولا سَهلةَ الرَّكْب
مهنّأةً كما ساغ زلال البارد العذب
وما إنعامك الغَمْرُ بزوّارٍ على الغِبِّ

و يظل الشريف الرضى على ولائه ووده و إخلاصه لبهاء الدولة البو يهى حتى يموت سنة ٤٠٣ هـ ، فيرثيه بقصيدة يقول منها :

رزيئة لم تدع شمسا ولا قمرا   ولا غماما ولا نجما ولا فلكا
لو كان يُقبل من مفقودها عوض   لأنفق المجدُ فيها كل ماملكا
لا يُبعد الله أقواما رزئتَهُمُ   لو ثلموا من جنوب الطَّود لانتهكا
فقدتَهمْ مثل فقد العين ناظرها   يبكى عليها بها ، ياطول ذاك بُكا !
لا تبصر الدهر بعد اليوم مبتسما   إن الليالىَ أُنْست بعده الضحكا ..

هذا هو الوضع السياسى للعراق فى العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى ، وهو وضع يبين لنا ضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ونفوذَ بنى بو يه وسلطانهم ونزعهم السلطة من أيدى الخلفاء من ناحية ثانية ، كما يصور لنا مطامع بنى بو يه ومنافسات بعضهم لبعض على السلطان ، وائتمار الأخ حتى على أخيه من ناحية ثالثة .

ولقد أثرت هذه الاضطرابات السياسية ، والمؤامرات والفتن والدسائس بين أبناء بو يه من ناحية ، و بينهم و بين العباسيين والأتراك من ناحية أخرى ، كما أثرت الخلافات والمنازعات

بين السنيين والشيعيين من ناحية ثالثة ـ أقول أثر ذلك كله فى الاستقرار السياسى والاجتماعى فى العراق جملة ، وفى بغداد على جهة الخصوص . فلقد شهدت طفولة الشريف الرضى ـ وهو فى الثانية من عمره ـ الفتنة الكبرى التى حدثت بالكرخ سنة ٣٦١ هـ ، فأرسل أبو الفضل الشيرازى ـ وزير معز الدولة البويهى ـ مَن طرح النار على دور أهل الكرخ ، فاحترقت أموال عظيمة واحترق جماعة من الرجال والنساء والصبيان فى الدور والحمامات . وكان جملة ما احترق ـ كما يروى المؤرخ ابن الجوزى ـ سبعة عشر ألف إنسان ، وثلثمائة دكان ، وثلثمائة وعشرين دارا ، ودخل فى جملة الإحصاء ثلاثة وثلاثون مسجدا[1]

وما من شك فى أن هذا التفكك فى جسم الخلافة العباسية كان سببا فى اجتراء الأجانب عليها ، وطمع الأعاجم فيها ، ومهاجمتهم لها . ألم يشهد مولد الشريف الرضى سنة ٣٥٩ هـ دخول الروم أنطاكية الإسلامية ، فملكوا البلد ، وأخرجوا الشيوخ والعجائز والأطفال على وجههم حيث شاءوا ، وأخذوا الشباب من النساء والغلمان والصبيان فحملوهم على وجه السبى ، فكان عددهم أكثر من عشرين ألفا[2] ؟

لقد فزع المسلمون لسقوط أنطاكية فى يد الروم على هذا النحو الفظيع ، ويروى المؤرخ يحيى بن سعيد أن الناس كان يخيل إليهم أنها لن تغلب .

ولم يكن سقوط أنطاكية أول صدع فى بناء الخلافة العباسية ، أو المملكة الإسلامية

---

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . لابن الجوزى طبع حيدر أباد الدكن . ج ٧ ص ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥١ .

على جهة العموم – ففى سنة ٣٦٤ ﻫ فتحت بعلبك و بيروت . واضطر أهل دمشق المسلمون أن يفتدوا أنفسهم من الروم بدفع ستين ألف دينار ، يحملونها للروم كل عام .

فى هذا العصر القلق المائج بأحداث كبار ، المرزوء بفتن ومؤامرات لاحد لها ، المنكوب بخلفاء للإسلام بلغوا من الوهن حدا لا زيادة بعده لمستزيد ، المملوء بأمراء يقتلون أنفسهم و إخوتهم وأبناء عمومتهم وأهل بيتهم فى سبيل مطامعهم الذاتية – فى هذا العصر عاش الشريف الرضى وعاش من قبله أبوه أبو أحمد الحسين ، فنكب الأب الجليل نكبة بلغت من نفس ابنه الشريف مبلغا عظيما ، فأنطقته بالشعر البليغ ، والشكوى المريرة ، ولم تصده عن أن يمضى فى العلم والبحث والدرس والتفقه إلى أجله ، فأمتع الأدب العربى بالروائع الخالدات .

الحياة الأدبية فى عصر الشريف

كان النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى – وهو الزمن الذى عاش فيه الشريف الرضى – ميدانا للأدب استبق فيه الفحول ، وقد كان انقسام الدولة العباسية إلى دويلات و إمارات عاملا من عوامل النهضة التى أخذت تتميز فى هذا العصر ، فقد كان الأمراء ينافس بعضهم بعضا فى تشجيع العلم والأدب . وانتقلت مراكز التشجيع من قصور الخلفاء إلى دور الأمراء والسلاطين والوزراء والعمال فى الأقاليم المختلفة ، فهؤلاء البويهيون أسهموا فى النهضة العلمية الأدبية فى القرن الرابع بما لا يليق بمنصف إغفاله ، فقد كانوا لا يستكتبون ولا يستوزرون إلا العلماء والشعراء والأدباء . وابن العميد والصاحب ابن عباد من الوزراء الأدباء المؤيدين لهذه القضية . وقد كان ملوك بنى بويه أنفسهم

مشهورين بميلهم إلى الأدب والعلم والمساهمة فيهما . وهذا عضد الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٢ ﻫ شارك فى عدة فنون من الأدب ، وقرب إليه الأدباء والعلماء وحثهم على التأليف . فألف له أبو إسحاق الصابى كتاب « الناجى » فى أخبار آل بويه ، وألف له أبو على الفارسى النحوى المشهور كتاب « الإيضاح » و « التكملة » فى علم النحو ، وقصده فحول الشعراء فى عصره كالمتنبى والسلامى وغيرهما ، وكان هو نفسه ينظم الشعر الحسن ـ كما ذكر الثعالبى صاحب يتيمة الدهر ـ كما كان عز الدولة وتاج الدولة بن عضد الدولة من شعراء بنى بويه .

ومن الوزراء الأدباء الذين ظهروا فى عصر بنى بويه « ابن العميد » الذى وزر لركن الدولة بن بويه ، «وسابور بن أردشير» الذى وزر لبهاء الدولة البويهى، وكان شاعرا أديباً ، وهو الذى أنشأ فى الكرخ خزانة كتب عظيمة وقفها على إفادة الناس ، ينهلون من منابعها ، ويستخرجون أثمن مافى بطونها . وليس يجمل فى هذا المقام أن نغفل « الصاحب ابن عباد » وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهى ووزير أخيه فخر الدولة ، وكان من المعالم الأدبية الواضحة فى الأدب العربى .

ولقد بلغت الكتابة فى هذا العصر مبلغا يدل على ماوصلت إليه البلاغة العربية تطبيقا لا نظريا ، واشتهرت الرسائل فى هذا العصر بالجمال وبلوغها قمة الفن الأدبى ، ووصولها بالبيان العربى المشرق إلى الغاية التى عدت آية فى التعبير الجميل . وكانت البلاغة وحدها سبيل الكتاب إلى أكبر المناصب مهما اختلفت دياناتهم ، فالصابى الكاتب المترسل البليغ قلد ديوان الرسائل ببغداد ، مع أنه كان على دين الصابئة ولم يدخل فى الإسلام ، ولما مات هذا الكاتب العبقرى على دينه المخالف للإسلام لم يمنع

ذلك الشريف الرضي ـ وهو نقيب العلويين ـ أن يرثيه رثاء بليغا متفجعا، فقال فيه :

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا أنّى ومثلك معوز الميلاد ؟
مَنْ للبلاغة والفصاحة إن همى ذاك الغمام وعبَّ ذاك الوادى ؟
مَن للملوك يحز فى أعدائها بظبا من القول البليغ حداد ؟

ولقد أحس الصابى نفسه قدر نفسه ومنزلته فى البلاغة فقال مفتخرا :

وقد علم السلطان أنى أمينه وكاتبه الكافى السديد الموفق
فيمناى يمناه ، ولفظى لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمق
ولى فِقَرٌ تضحى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق[1]

على أن الشريف الرضي نفسه قد أسهم فى أدب الرسائل، فقد دارت بينه و بين بعض الأعلام من عصره رسائل أدبية أثبت السيد على خان المدنى المتوفى سنة ١١١٨ هـ بعضها فى كتابه (الدرجات الرفيعة) ونشر بعضها فى الأجزاء الأولى من مجلة العرفان التى يصدرها فى صيدا، إلى اليوم، الشيخ أحمد عارف الزين .

وقد أشار ابن النديم فى « الفهرست » إلى كتاب « مراسلات الشريف الرضى » وهو مما جمعه أبو إسحاق الصابى الذى كان معاصرا للشريف والذى رثاه شاعرنا بالدالية التى ذكرنا منها الثلاثة الأبيات السابقة[2] . ولكن كتاب الصابى هذا لا يزال سرا فى ضمير الغيب .

---

(١) رسائل الصابى، طبع لبنان ص ٨ .

(٢) الفهرست ، طبع مصر ص ١٩٤ .

فالشريف الرضى لا يقف بالشعر وحده فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وإنما كان منشئاً مترسلا بليغاً لا يقل عن كبار المترسلين فى عصره ، من أمثال أبى الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وأبى بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، وأبى إسحاق الصابى المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ ، و بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، وأبى الفتح البستى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، وأبى الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ.

ولقد ازدهر عصر الشريف الرضى بجماعة من الأدباء والنقاد ، فوق كتّاب الرسائل البلغاء الذين سبق القول عنهم ، كأبى على التنوخى صاحب كتاب « الفرج بعد الشدة » و « المستجاد من أفعال الأجواد » و « نشوار المحاضرة » وقد توفى سنة ٣٨٤هـ ، وأبى هلال العسكرى المتوفى سنة٣٩٥هـ ، وهو صاحب كتاب « الصناعتين » و « ديوان المعانى » وغيرها ، وكالشريف المرتضى ـ أخى الشريف الرضى ـ وقد توفى سنة ٤٣٦هـ، وهوصاحب كتاب « الدرر والغرر » الذى طبع باسم أمالى السيد المرتضى ، وكالآمدى المتوفى سنة٣٧١هـ، وهو صاحب كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وغيرهم .

* * *

أما النحاة واللغويون فى عصر الشريف الرضى ، فكان على رأسهم ابن خالويه المتوفى سنة٣٧٠هـ . وابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ وقد قرأ عليه أبو على الفارسىُّ والشريف الرضى ـ كما سبق القول . وأبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨هـ وقد تتلمذ عليه الشريف الرضى ـ كما أسلفنا ـ وأبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧هـ . والرمانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ .

والربعى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من شيوخ الشريف فى النحو ، وأبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ[١] ، وهو صاحب « المجمل » و « مقاييس اللغة » . والأزهرى صاحب « التهذيب » المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . والجوهرى أبو نصر إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، وهو صاحب كتاب « الصحاح » المشهور فى اللغة الذى لخصه محمد بن أبى بكر الرازى ـ من علماء القرن الثامن ـ وسماه « مختار الصحاح » .

هذا هو مجمل الخطوط الأدبية فى عصر الشريف الرضى . على أننا قد تركنا حركة الشعر والشعراء فى هذا العصر ، إيثاراً للحديث عنها حديثاً خاصا يتناسب مع مكانة الشريف الشعرية ، ومع مكانته شاعراً أكثر من مكانته كاتباً مترسلا مصنفاً . . .

الشعر والشعراء فى عصر الشريف

ذهب النصف الأول من القرن الرابع الهجرى بجماعة من الشعراء منهم أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن بسام المتوفى سنة ٣٠٢ هـ ، والخبزأرزى المتوفى سنة ٣١٧ هـ ، وأبو بكر بن العلاف المتوفى سنة ٣١٨ هـ ، وهو صاحب القصيدة فى رثاء الهر التى يقول فيها : « يا هِرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ » . وأبو الطيب المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ . وأبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، وأبو الفتح كشاجم المتوفى سنة ٣٦٠هـ . والسرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ . وابن هانىء الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ وهو الذى أسف المعز

---

(١) اختلف فى تاريخ وفاته ، فابن خلكان يقول إنه توفى سنة ٣٩٠ هـ والقفطى فى « إنباه الرواة » يقول إنها سنة ٣٩٥ هـ ، ونقل ياقوت الرومى عن الحميدى أنه توفى سنة ٣٦٠ هـ ثم عقب على ذلك بأنه قول لا اعتبار به .

لدين الله الفاطمى لوفاته وقال : هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق .

ولقد ترك بعض هؤلاء الشعراء دويًّا فى آذان الزمان كالمتنبى وابن هانىء ، كما ترك مِنْ قَبْلِهما ـ فى القرن الثالث الهجرى ـ أبو تمام والبحترى جلجلة فى سمع الدنيا .

وجاء النصف الثانى من القرن الرابع فظهر فيه حفنة من الشعراء ، منهم أبو الفرج محمد ابن أحمد الوأواء المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، وأبو الحسن محمد عبد الله السلامى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وأبو الفرج الببغاء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، وأبو العباس أحمد بن محمد النامى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ وابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ . ـ وهو غير ابن نباتة المصرى من شعراء القرن الثامن ، وغير ابن نباتة الفارقى الخطيب الذى تتلمذ له الشريف الرضى ـ وصريع الدلاء المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، ومهيار الديلمى المتوفى سنة ٤٢٨ هـ . وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

وقد تأخر الأجل بالثلاثة الأخيرين فعاشوا بعد وفاة الشريف الرضى ، بل امتد العمر بالمعرى إلى نصف القرن الخامس تقريباً . ولكنهم على كل حال تعاصروا مع الشريف واتصلوا به ، واتصل بهم .

ولما مات الشريف رثاه مهيار الديلمى بقصيدتين يقول فى أولاهما :

بكت السماء له وودت أنها فقدت غزالتها ولما يفقد
والأرض وابن الحاج سدت سبْله والمجدُ ضيم فما له من مُنجد
و بكاك يومك إذ جرت أخباره ترحا وسُمِّى بالعبوس الأنكد

صبغت وفاتك فيه أبيض فجره يا للعيون من الصباح الأسود !

ويقول فى الثانية :

فضَّ الحِمام إليك حلقة هيبة ما خلتُ حادثة تفض ختامها
واستعجلتك يد المنون بحثها قبل السنين وما اطلعت تمامها
أبكيك للدنيا التى طلقتَها وقد اصطفتك شبابها وعُرامها
ورميت غاربها بفضلة معرض زهداً وقد ألقت إليك زمامها

***

فبرغم أنفى أن أبثك لوعتى والأرضُ قد بثَّت عليك رغامها
وأ بِى الوفاة ـ إذا الرجال تحرجت حنث اليمين فحلَّلتْ أقسامها ـ
لأساهرنَّ الليل بعدك حسرة إنْ ليلةٌ غابت حزيناً نامها
ولأُبدلن الصبر عنك بقرحة فى الصدر لا يجد الدواء لحامها
أبكى لأطفئها وأعلمُ أننى بالدمع محتطب أشبُّ ضرامها[1]

ومن الشعراء الذين عاصروا الشريف الرضى شاعران أخرجهما الهزل وروح المعابثة عن أن يذكرا فى مواطن الجد ، ولكنهما لا يتخلف ذكرهما فى معرض التاريخ للشعر العربى فى النصف الثانى من القرن الرابع ، وهما ابن سكرة الهاشمى ، وابن حجاج

---

(١) ذكر فى الطبعة الأولى من « الغدير » أن المعرى رثى الشريف الرضى . وهو وهم استدركه العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد فحذفه من الطبعة الثانية فى طهران . والحق أن المعرى رثى والد الشريف .

اللذان شغلا الناس فى عصرهما بقصائد خليعة ماجنة تحدث الناس بها ، واتخذوها سمراً لهم .

على أن أعجب ما فى حكاية هذا الشعر الماجن أن الشريف الرضى أعجب به ـ جريا على ذوق عصره ـ فاختار من شعر ابن حجاج كتاباً سماه « الحسن من شعر الحسين » ، ولعل هذا الاختيار كان رد فعل لما كان فى نفس الشريف من سخط على مجتمع لا يحفل بالشعر الجاد الرصين ، فلجأ إلى شاعر هازل ليختار أحسن ما فى شعره ... وهو اختيار على كل حال لا يسوغ لنا إعجاب الشريف الرضى بشعراء العبث والمجون مع كثرة منادحه فى اختيار شعر الجادين من الشعراء . وقد يكون الشريف الرضى من المعجبين حقاً بظرف الشاعر ابن حجاج فى عصر اضطرت فيه قسوة الحوادث الناسَ إلى أن يتخففوا من وقارهم وجد زمانهم ، وأن يفيدوا طباعهم المكدودة بالجد راحة . ولعل مرثية الشريف لابن حجاج تؤكد لنا هذا المعنى حين يقول :

فزل كزيال الشباب الرطيـ ـب خانك يوم لقاء الغوانى !
ليبْكِ الزمان طويلا عليك فقد كنت خفة روح الزمانِ !!

* * *

وقد امتاز الشريف الرضى من شعراء عصره بتلك العفة اللفظية التى تطبع شعره الكثير الفياض . فلا تراه فى شعره مفحشا ، ولا نابياً ، ولا سليطاً ، ولا ماجنا .

وقد لفتت هذه الحقيقة نظر المستشرق « آدم متز » فقال(١) : [ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل النبيل حقاً كلمة واحدة من تلك الكلمات القبيحة التى يتلفظ بها السوقة ، والتى

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ج ١ ص ٤٥١ .

نرى أمثالها عند الصابى صاحب الرسائل ، وعند الوزير المهلبى ، وعند الوزير الصاحب بن عباد . وإذا كان غيره من الشعراء قد استباحوا لأنفسهم من الذم كل قبيح ، فإننا لا نجد للشريف الرضى فى باب الهجاء أقوى من ذم لمغن بارد قبيح الوجه . وهو :

تغشى[1] بمنظره العيون إذا بدا   وتقيء عند غنائه الأسماع
أشهى إلينا من غنائك مسمعا   زَجَلُ الضراغم بينهن قراع]

وإذا أخرجنا أبا العلاء المعرى من مجال الموازنة فى العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى فإن شاعرنا يحتل أعلى مكان فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ففى شعره ذلك النفس العربى الكريم ، وتلك العزة العربية الغلباء التى انحدرت إليه من أصلاب البيت العلوى ، وذلك المجد والعلا اللذان كثيرا ما دارا فى شعره ، حتى ليخيل إلى القارئ أن المعالى كانت دائما على مهامس شفتيه . وهو فوق ذلك وصاف بارع ، غزل رقيق الغزل ، وفىّ محسن الوفاء ، راث مجيد الرثاء .

وهو فوق ذلك كثير الحكمة يسوقها فى شعره سوقا ، ويرسلها إرسالا ، إلا أن أمثاله وحكمه لم تشتهر شهرة أمثال المتنبى وحكمه ، لأن أمثال أبى الطيب فيها من عناصر السيرورة والسهولة مايجعلها تدور على الألسن كل مدار .

أما أمثال الشريف الرضى وحكمه فكانت تحتاج إلى إعمال الخاطر ، وقدح الذهن ، وذلك يتجافى وانتشار الأمثال .

---

(١) فى الأصل « تغفى » وهو تحريف ، صوابه ما أثبتناه .

الشريف الرضى بين أهل السنة والشيعة

قضى الله أن يكون الشريف الرضى فى عصر استحكمت فيه أسباب الخلاف بين أهل السنة والشيعة ، ولقد سبق أن أشرنا إلى أنه شهد فى السنة الثانية من طفولته تلك الفتنة المروعة التى حدثت بالكرخ واحترقت فيها دور ودكاكين وأناسى كثيرون .ولم تكن الفتن المذهبية متركزة فى مكان بعينه ، ولكنها كانت فى العراق كله ، بل فى مدن كثيرة من بلاد فارس . وكانت كل مدينة تتلون بلون مذهبى خاص ، فكان فى مدينة « قم » غلاة من الشيعة ، وكانت أصفهان مثلا يغلب عليها مذهب أهل السنة ، وكان يكفى أن يقال مثلا إن شيعيا سب الصحابة أو بعضهم ، أو أن سنيا غالى فى مدح معاوية ، فتقوم من أجل ذلك فتنة لا قبل بإطفائها . والوقائع فى ذلك كثيرة لا يتقصنا استحضارها الآن للاستشهاد ، ولكن الخير أن يلقى على ذلك كله ستار من النسيان لأمًا للجراح ، ورأبا للصدوع .

لقد تعرض كثير من الأشخاص للأذى من جراء هذه الفتن المذهبية التى لا طائل تحتها ، فوق ماتعرضت له المدن والجماعات من أحداث جسام . فلقد قبض معز الدولة بن بويه على الخليفة المستكفى ، وأنزله من على عرشه بصورة مهينة ، لأن المستكفى اتهم بأنه كان قد قبض على رئيس الشيعة .

وبلغ من اشتداد النزاع بين هاتين الفرقتين من فرق المسلمين أن الفتنة التى قامت ببغداد سنة ٣٤٩ ﻫ تعطلت من أجلها صلاة الجمعة بمساجد أهل السنة .

ولعل نظرة على أحداث ذلك القرن عاماً عاما فى كتاب « المنتظم » أو « الكامل »

أو « تجارب الأمم » ترينا كيف استحالت الحياة بين الإخوة المسلمين إلى حرب عصبية مذهبية لم يكن من الحكمة قيامها .

ويروى ابن الجوزى صاحب المنتظم[1] » فى حوادث سنة ٣٩٨ هـ نبأ الفتنة التى جرت بين أهل الكرخ والفقهاء بقطيعة الربيع ، وكان سببها أن بعض الهاشميين من أهل باب البصرة تعرضوا بمحمد بن النعمان ــ فقيه الشيعة المعروف بابن المعلم ــ تعرضا امتعض له أصحابه من الشيعة ، الذين ساروا واستنفروا أهل الكرخ دفاعا عن فقيههم … ثم صاروا إلى دار القاضى أبى محمد بن الأكفانى وأبى حامد الأسفرائينى ــ وهما من علماء السنة ــ فسبوهما وطلبوا من الفقهاء المواقعة بهم . وازدادت نار الفتنة اشتعالا حين قصد أحداث الكرخ باب دار أبى حامد الأسفرائينى ، فانتقل عنها ونزل دار القطن . وبلغت الحوادث حدا أحفظ الخليفة ، فأرسل الحرس الذين حول بابه لمعاونة أهل السنة . واجتمع أشراف الكرخ وتجارها إلى دار الخليفة القادر ، فسألوه العفو عما فعل السفهاء والأحداث الأغرار فعفا عنهم .

وفى غمار هذه الأحداث والفتن عاش الشريف الرضى ، ولكنه كان أبعد مايكون عن التعصب ، وكان فيه من سماحة الرأى ، ورحابة الصدر واتساع النظر ماباعد بينه وبين الخوض فى غمرات لم تكن من مصلحة الأمة الإسلامية فى قليل ولا كثير .

ويحدثنا السيد محمد المشكاة فى مقدمة النسخة المصورة من « تلخيص البيان » بأن مؤلف هذا الكتاب هو الشيعى الخالى عن التعصب[2] .

---

(١) جزء ٧ ص ٢٣٧

(٢) مقدمة النسخة المصورة من « تلخيص البيان » صفحة ن

وأدرك المرحوم الدكتور زكى مبارك ذلك وهو يتحدث عن الشريف فى كتابه فقال : (والواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية ، والظاهر أنه كان حر العقل إلى حد بعيد)[1] .

والحق أن الشريف الرضى قد ورث السماحة والبعد عن التعصب البغيض من أبيه أبى أحمد الحسين بن موسى الذى كان يقوم دائما بدور المصلح الموفق بين المتخاصمين ، وكثيرا ماالتجأ إليه الخائف فوجد الأمن فى كنفه ، فإن ابن الجوزى يحدثنا أنه فى سنة ٣٦١ هـ وردت كتب الحاج بأن بنى هلال اعترضوا الحجاج فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، فبطل الحج ذلك العام ، ولم يسلم إلا من مضى مع الشريف أبى أحمد الحسين الموسوى على طريق المدينة ، وتم حجهم[2]

ولما اختلف الملكان الأخوان بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، وصمصام الدولة ابن عضد الدولة بن بويه سافر والد الشريف الرضى إلى فارس ليصلح بين الأخوين المتنازعين ، وليوفق بين غاياتهما التى أدت إلى النزاع بين العسكرين الفارسى والبغدادى . وقد انحدرت هذه النزعة الإصلاحية الموفقة إلى أبناء أبى أحمد الحسين الموسوى والد الشريفين ، الرضى والمرتضى . فى أحداث سنة ٤٢٠ هـ ـ أى بعد وفاة الرضى بأربعة عشر عاما ـ نرى أخاه الشريف المرتضى يذهب مع قوم من مشايخ أهل الكرخ إلى دار الخليفة القادر العباسى فيعتذرون من جناية مذهبية قام بها أحداث الكرخ من أبناء الشيعة[3]

---

(١) عبقرية الشريف الرضى ، لزكى مبارك جـ ١ ص ١٥١ مطبعة الجزيرة . بغداد .
(٢) المنتظم جـ ٧ ص ٥٧ (٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٤٥ .

لهذا لم يكن غريبا على الشريف الرضى أن يرث التسامح واتساع الأفق الدينى عن أبيه السمح الموفق . وقد كانت تلمذته ودراسته على مشايخه دليلا على رحابة أفقه المذهبى . فقد كان من شيوخه أبو حفص عمر بن إبراهيم الكنانى ، وقد روى عنه الحديث ، وأبو محمد عبد الله بن محمد الأسدى الأكفانى . وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وكان فقيها على مذهب الإمام مالك ، وكان ـ بشهادة المؤرخ ابن الجوزى ـ شيخ الشهود ومقدمهم ، كما كان كريما مفضلا على أهل العلم(١) .

وكانت علاقة الشريف الشيعى بهذا الأستاذ السنى علاقة الابن بأبيه . وقد روى ابن الجوزى أن الشريف قرأ على هذا الشيخ القرآن ، فقال له يوما : أيها الشريف! أين مقامك ؟ فقال : فى دار أبى بباب المحول ، فقال له : مثلك لا يقيم بدار أبيه ، ونحله الدار التى بالبركة فى الكرخ ، فامتنع الرضى ، وقال : لم أقبل من غير أبى قط شيئا ! فقال له : حقى عليك أعظم لأنى حفظتك كتاب الله ، فقبلها(٢) .

والحق أننا لم نلحظ فيما كتبه الشريف الرضى أو نظمه أثرا لتعصب ممقوت ، أو لمحة من عصبية ظاهرة ، ولم نر فيه خروجا عن جادة الحلم والتوقر حين يغضب لعلى بن أبى طالب أو لأبنائه وحفدته من العلويين ، ولم نلحظ عنده عنفا فى القول ، أو غلاظة فى الدفاع إلا حين تحدث فى « المجازات النبوية » عن حسان بن ثابت شاعر الرسول والدعوة الإسلامية . فحين أخذ يكشف عن وجوه المجاز فى قوله عليه السلام : (حسّان حجاز بين المؤمنين والمنافقين ، لا يحبه منافق ولا يبغضه مؤمن) بدأ يقول : [وهذا

---

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٧ ص ٢٢٣

(٢) المصدر السابق .

الـكلام عندنا فى حسان متعلق بوقت مخصوص ، وهو زمن النبى صلى الله عليه وآله ، فأما حين ظاهرَ أمير المؤمنين عليه السلام بعداوته ، ورماه بمعاريض القول فى أشعاره ، فقد خرج من أن يكون حجازا بين الإيمان والنفاق ، وتحيز إلى جانب النقمة والضلال][1] .

ولو أن الشريف الرضى ـ رضى الله عنه ـ كان من أنصار التعصُّب لوجد فى « تلخيص البيان » و « المجازات النبوية » مجالا فسيحا للتعبير عن تعصبه ، والتنفيس عن صدره ـ لو كان ضائق الصدر ـ ولـكنه كان أسمح من أن يثير مغمزا ، أو يوقظ نائمة ، إلا ما كان من اتهامه حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ بالتحيز إلى جانب النقمة والضلال .

أساتذة الشريف الرضى

رأينا من علاقة الشريف الرضى ببعض أساتذته وشيوخه ماجعل أستاذه الفقيه المالـكى أبا إسحق إبراهيم بن أحمد الطبرى ينحله دارا له ، فيمتنع الشريف ، لأنه لم يقبل من غير أبيه شيئا ، ولـكن الشيخ يدخل إليه من باب الأبوة الروحية العلمية فيقول له : حق عليك أعظم من حق أبيك ، فيقبل الشريف المنحة .

والحق أننا نجد من بر الشريف الرضى بشيوخه ، وإشادته بذكرهم ، والدعاء لهم فى مصنفاته ، مايحمل الدلالة على صفة العرفان بالجميل ، والقدر للمعروف ، وشدة الحفاظ للصنيع .

ولقد جمـله الله بالأدب النبوى ، والخلق العلوى فيما يتصل بأساتذته ، فلا يذكرهم

(١) المجازات النبوية . طبع مصر . ص ١٠٥ .

فى معرض الاحتجاج برأيهم إلا مترحما عليهم ، مشيدا بأقدارهم ، فلا يكتفى بأن يقول مثلا : سمعت شيخنا أبا الفتح ابن جنى ، أو : قال لى الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى أدام الله توفيقه ، أو كنت سألت شيخنا أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمى رحمه الله ، أو غير ذلك مما يفيد قراءته على شيوخه ، ولكنه حين يستحسن قولا لأحد شيوخه أو رأيا لأحد أساتذته لا ينى عن الإشارة إلى ذلك والإشادة به ، كما صنع مع شيخه أبى الفتح عثمان بن جنى الذى شرح معنى قولهم : لعمرُ الله ، أنهم يريدون القسَمَ بالحياة التى يُحْيِى بها الله ، لا الحياة التى يَحْيَا بها - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - فكأنَّ المقسِمَ إذا أقسم بهذه الحياة دخل مايخصه منها فى جملة قسمه ، وجرى ذلك مجرى قوله : لعمرى ، فيصير مقسما بحياته التى أحياه الله بها .

وقد أعجب الشريف الرضى برأى أستاذه ابن جنى فى هذا التعبير ، فكتب بعد إيراده : (وكنتُ أستحسن هذا القول منه جدا ، وله نظائر كنت أسمعها منه عند قراءتى عليه ، وكان عفا الله عنه كثير الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للخفايا)[1] فالتلميذ هنا لا يأخذ رأى أستاذه وحسب ، ولكنه يمضى فى استحسانه . ويبالغ فى صفة هذا الاستحسان بقوله : جدا . ثم يشير إلى نظائر لهذا كان يسمعها منه ، ثم يزيد بأن شيخه كان كثير الاستنباط والاستطلاع للخفايا . ولو أراد طالب علم أن يكون لسان صدق لأستاذه وداعية لشيخه مابلغ مابلغه الشريف الرضى فى حق شيخه ابن جنى مع بلاغة الإيجاز .

وقد عرفنا شيوخ الشريف الرضى من إشارته إليهم فى « تلخيص البيان « والمجازات النبوية » ، أو من إشارة المؤرخين إلى بعضهم بأنه قرأ عليهم أو أخذ عنهم ، كما فعل

(١) تلخيص البيان . مجازات سورة النحل .

ابن الجوزى حين أشار فى «المنتظم» إلى قراءة الشريف الرضى القرآن على الفقيه أبى إسحاق الطبرى المالكى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ[١] .

والحق أن الأستاذ الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى قد زودنا فى كتابه «الغدير» ببضعة عشر شيخا تتلمذ الشريف الرضى عليهم[٢] . وقد وجدنا فى الثبت الذى أورده بأسماء شيوخ الرضى مالم نجده فيما بين أيدينا من مراجع . ولعل المصادر الشيعية قد أسعفته بما أبت مصادرنا أن تساعفنا به .

ونحن نذكر هنا هذا الثبت ، ونزيد عليه ما أمدتنا به المصادر من تراجم حياتهم التى وجدناها مبعثرة متناثرة فى «تاريخ بغداد» و «المنتظم» و «معجم الأدباء» و «وفيات الأعيان» و «بغية الوعاة» و «النجوم الزاهرة» و «الكامل» وغيرها من مراجع الطبقات والتراجم والتاريخ :

(١) ـ السيرافى النحوى ، وهو أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان ، سكن بغداد ، وتولى القضاء فيها . وكان ثقة فى القراءات وعلوم القرآن والفقه واللغة والنحو وغيرها ، وكان من أعلم الناس بمذهب البصريين فى النحو ، أما فى الفقه فكان ينتحل مذهب أهل العراق . ولقد تعفف عن الكسب إلا من عمل يده ، فكان ينسخ فى كل يوم عشر ورقات ليأخذ عليهن أجرا قدره عشرة دراهم ، وهن قدر مئونته . وتوفى سنة ٣٦٨ هـ . ومن هذا نعلم أن الشريف تتلمذ له وهو قبيل التاسعة من عمره .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى . جـ ٧ ص ٢٢٣ .

(٢) الغدير . طبع . النجف . جـ ٤ ص ١٦٢ .

(٢) ـ أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى ، كان إماماً فى النحو والعربية ، وله شعر ذكر بعضه ياقوت فى معجمه الذى يشتمل على ترجمة مطولة له . وقد روى شعر المتنبى وشرحه ، وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى ، ولما مات المتنبى رثاه ابن جنى بقصيدة أولها :

غاض القريض وأذوت نضرة الأدب　　وصوّحت بعد رى دوحة الكتب

وقد صحب ابن جنى أبا على الفارسى أربعين سنة ، فلما مات أبو على تصدر عنه أبو الفتح فى مجلسه ببغداد . وتوفى سنة ٣٩٢ هـ فرثاه تلميذه الشريف الرضى بقصيدة رصينة محكمة النسج يقول فيها :

فمن للمعانى فى الأكمّة ألقيت　　إلى باقر غيث المعانى وفاتق
يطوّح فى أثنائها بضميره　　مرير القوى، ولّاج تلك المضايق
تسنّم أعلى طودها غير عاثر　　وجاوز أقصى دحضها غير زالق

ولم يكتف الشريف الرضى بحسن الإشارة إلى أستاذه ابن جنى فى مصنفاته ، ولكنه مدحه بشعره ، عرفاناً بقدره فى البلاغة ، ومنزلته فى الفصاحة ، فقال من قصيدة :

فدًى لأبى الفتح الأفاضل إنه　　يبر عليهم إن أرمّ وقالا
إذا جرت الآداب جاء أمامها　　قريعا ، وجاء الطالبون إفالا
فتى مستعاد القول حسنا ولم يكن　　يقول محالا ، أو يحيل مقالا
ليقرى أسماع الرجال فصاحة　　ويورد أفهام العقـــول زلالا
ويجرى لنا عذباً نميرا وبعضهم　　إذا قال أجرى للمسامع آلا

(٣) ـ أبو على الحسن بن أحمد الفارسى ، وقد أجازه فى كتابه المسمى « بالإيضاح »

كما ذكر ذلك الشريف فى « المجازات النبوية » ، وكان يسمع من شيخه ابن جنى الذى كان ينشده عن أبى على الفارسى ، كما فى « تلخيص البيان » فى مجازات سورة طه ، وسورة ص . وأبو على أحد الأئمة فى علم العربية ، زار كثيراً من بلاد المملكة العربية الإسلامية ، فدخل بغداد ، وقدم حلب وأقام مدة عند سيف الدولة بن حمدان . ودخل فارس فاتصل بعضد الدولة بن بويه ؛ وصنف له كتاب « الإيضاح » فى قواعد العربية . وصحبه ابن جنى أربعين عاما كما سلف القول . وتوفى سنة ٣٧٧ هـ.

(٤) ـ القاضى عبد الجبار أبو الحسن بن أحمد الشافعى المعتزلى ، ويروى الشريف عنه قائلا : (وفيما علقته عن قاضى القضاة أبى الحسن عبد الجبار بن أحمد أدام الله توفيقه) وقد ذكره الشريف فى « تلخيص البيان » فى مجازات سورة الكهف ، كما ذكره فى « المجازات النبوية » فى بيان المجاز فى قوله صلى الله عليه وسلم : (الأيدى ثلاث : فيد الله العليا ، ويد المعطى يَبلغَ قُبَالاً الوسطى ، ويد السائل السفلى) واسم هذا القاضى عبد الجبار وكنيته أبو الحسن كما فى « المجازات النبوية » و « تلخيص البيان » . وفى الأعلام للزركلى كنيته أبو الحسين . وكان شيخ المعتزلة فى عصره ، ويلقبونه بقاضى القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره . وتوفى بالرى سنة ٤١٥ هـ . ولم يذكره ابن الجوزى فى وفيات كتابه . وقد دلنا الشريف الرضى فى « التلخيص » على أنه قرأ عليه كتابه المسمى « تقريب الأصول » كما دلنا فى « المجازات النبوية » على أنه قرأ عليه كتابه المسمى « شرح الأصول الخمسة » .

(٥) ـ أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى ، وكان شيخه فى الفقه . وإليه يشير فى « المجازات النبوية » قائلا : (وكنت سألت شيخنا أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمى ـ رحمه الله ـ عند انتهائى فى القراءة عليه إلى هذه المسألة من كتاب الطهارة) ـ وهى مسألة

الشرب فى آنية الذهب والفضة ـ كما يشير إليه فى « تلخيص البيان » فى مجازات سورة ص قائلا : (وقال لى الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى أدام الله توفيقه) . والخوارزمى هذا ـ كما يقول الخطيب البغدادى ـ هو شيخ أهل الرأى وفقيههم ، وقد انتهت إليه الرياسة والفتوى فى مذهب الإمام أبى حنيفة . وكان لا يميل إلى مباحث علم الكلام ويقول : ديننا دين العجائز ، ولسنا من الكلام فى شىء . وقيل فيه : ما شاهد الناس مثله فى حسن الفتوى ، والإصابة فيها ، وحسن التدريس ، وقد دعى إلى ولاية الحكم مراراً فامتنع منه . وتوفى سنة ٤٠٣هـ ودفن بمنزله بدرب عبدة ببغداد ، ثم نقل بعد بضع سنوات إلى تربة فى سويقة غالب[١] .

(٦) ـ أبو القاسم عيسى بن على بن عيسى بن داود بن الجراح . وقد أشار إليه فى « المجازات النبوية » فى مجاز قوله عليه السلام : (الخلق عيال الله عز وجل ، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله) وقال عنه : (أخبرنا بهذا الحديث أبو القاسم عيسى بن على بن عيسى بن داود ابن الجراح فى جملة ما أخبرنا به من الأحاديث) . وأبو القاسم هذا ممن ترجم لهم الخطيب فى « تاريخ بغداد[٢] » وابن الجوزى فى « المنتظم[٣] » . وكان ثبت السماع صحيح الكتاب ، وأملى الحديث ، وكان عارفا بالمنطق ، ومن هنا رمى باشتغاله بشىء من مذاهب الفلاسفة . وكان ينظم الشعر ، ومن شعره ما يدل على نزعته العلمية كقوله :

رب ميت قد صار بالعلم حيا ومبقًى قد حاز جهلا وغيا
فاقتنوا العلم كى تنالوا خلودا لا تعدوا الحياة فى الجهل شيا

ويظهر من النادرة التالية أنه كان يتجمل فى حياته ، وأنه على الرغم من ضيق العيش كان

---

(١) تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى ج ٣ ص ٢٤٧ . (٢) المصدر السابق ج ١١ ص ١٧٩ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى . ج ٧ ص ٢١٨ .

يتجلد. فقد خرج يوما إلى جماعة من أصحابه فقال : الله بيننا وبين على بن الجهم ، فقيل له : ومن هو على بن الجهم ؟ قال الشاعر . قيل :وقد رآه السيد ؟ قال : لا ! ولكن له بيت آذانا به . وأنشد هذا البيت :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

ويظهر أنه كان غرضا لسهام الزمان ، فقد حدث أبو محمد الجوهرى قال : انقطعت عن زيارة أبى القاسم عيسى بن على ، ثم قصدته ، فلما نظر إلىّ قال :

رأيت جفاء الدهر لى فجفوتنى كأنك غضبان علىّ مع الدهر

وتوفى أبو القاسم سنة ٣٩١ هـ ودفن فى داره ببغداد .

(٧) ـ عمر بن إبراهيم بن أحمد المقرئ بن حفص الكتانى ، وقد أشار إليه الشريف فى « المجازات النبوية» وهو يتحدث عن المجاز فى قوله عليه السلام : (الخمر أم الخبائث) ، وقد سمع الشريف هـذا الحديث منه فى جملة مارواه له من الأحاديث . وأبو حفص ـ كما يذكر الخطيب البغدادى ـ كان من رجال الحديث ، وقيل إنه كان ثقة فيه ، وذكره ابن أبى الفوارس فقال : كان لا بأس به . وذكر صاحب «تاريخ بغداد » عن العتيق خبر وفاته فى سنة ٣٩٠ هـ . أما النسبة « الكتانى » ففى «المجازات النبوية » ، «والغدير» أنها الكنانى بنونين ، وفى « المنتظم » « وتاريخ بغداد » الكتانى ، بالتاء أولا والنون ثانيا .

(٨) ـ أبو إسحاق أبراهيم بن أحمد بن محمد الطبرى الفقيه المالكى ، ولم يذكره الشريف الرضى فى واحد من كتابيه فى المجازات ، ولكن ابن الجوزى ذكر فى تاريخه فى وفيات سنة ٣٩٣ هـ . وقال إن الرضى قرأ عليه القرآن ، وهو صاحب قصة منحه الدار بماله من حق الأبوة

الروحية عليه وهى أعظم من أبوة النسب . وأبو إسحاق كان فقيها مالكيا من المعدلين ـ أى القائلين بالعدل على الله ـ وكان فوق منزلته العلمية كريما مفضلا على أهل العلم ، وقصته مع الشريف هى دليل الكرم والإفضال من الأستاذ إلى تلميذه . وقد نقل ابن الجوزى من أخباره أكثر ما كتبه عنه صاحب «تاريخ بغداد» الذى يذكر أنه كان حسن المعاشرة ، جميل الأخلاق ، وأن داره كانت مجمع أهل القرآن والحديث .

(٩) ـ أبو الحسن على بن عيسى الربعى كما ذكره الشريف الرضى فى « المجازات النبوية » فى البيان عن المجاز فى حديثه صلى الله عليه وسلم المتعلق بالزواج بعد الطلاق ثلاثا . والربعى ـ كما يقول السيوطى فى بغية الوعاة ـ أحد أئمة النحويين وحذاقهم الجيدى النظر الدقيق الفهم والقياس ، وكان تلميذا للسيرافى فى النحو ، ثم رحل إلى شيراز ، فلازم أبا على الفارسى عشر سنين[1] ثم رجع إلى بغداد حيث مات بها سنة ٤٢٠ ﻫ أما أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ، فلم يكن شيخا للشريف الرضى بالذات وإنما كان شيخه بالواسطة . فقد كان شيخه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى يروى له عنه ـ كما ذكر ذلك الشريف فى « التلخيص » فى سورة ص ـ ولا ندرى لماذا لم يأخذ الشريف الرضى عن على بن عيسى الرمانى مباشرة كما أخذ عن على بن عيسى الربعى ؟ وكلاهما معاصر له ؟.

(١٠) ـ سهل بن أحمد بن عبد الله بن سهل الديباجى ، ولم يذكره الأستاذ الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى فى ثبت أساتذة الشريف ، ولعله سها عنه ، ولكن

---

(١) هذه رواية السيوطى فى « البغية ، ويذكر ابن الجوزى فى المنتظم ج ٨ ص ٤٦ أنها عشرون سنة .

الشريف نفسه يذكره فى أحد مصنفاته : « المجازات النبوية » فى خلال التحدث عن مجازات قوله صلى الله عليه وسلم : (الخلق عيال الله) . وقد بحثت عنه كثيرا فى المصادر والمظان إلى أن وجدته فى « لسان الميزان » (١) للحافظ الإمام ابن حجر العسقلانى المؤرخ المحدث المشهور ، وقد نقل عن ابن أبى الفوارس أن سهلا الديباجى كان رافضيا غاليا ، وذكر أنه توفى سنة ٣٨٥ هـ .

(١١) ـ الشيخ المفيد أبو عبد الله بن المعلم محمد بن النعمان ، وكان من أهل التحقيق وانتهت إليه رياسة الإمامية فى وقته ، وقد صنف كثيرا من الكتب فى الفقه والأصول وعلم الكلام ، وذكر ابن الجوزى فى المنتظم (جـ ٨ ص ١١) أن الشريف المرتضى ـ أخا الرضى ـ كان من أصحابه ، وذكر أنه لما توفى ببغداد سنة ٤١٣ هـ رثاه المرتضى فقال :

مَن لفضل أخرجت منه خبيئا ومعان فضضت عنها ختاما
مَن ينير العقول من بعد ما كن (٢) همودا ، ويفتح الأفهاما
مَن يعير الصديق رأيا إذا ما سلَّه فى الخطوب كان حساما ؟

ويذكر صاحب « الغدير » أن الشريف الرضى قرأ عليه هو وأخوه المرتضى .

(١٢) ـ أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى ، وقد ذكره صاحب « الغدير » : وأبو عبد الله المرزبانى أديب إخبارى مؤرخ . وهو صاحب « معجم الشعراء » وهو تراجم للشعراء إلى عصره ، على حروف المعجم ، وهو مصدر وثيق لمؤرخى الأدب . ووصفه ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » بأنه كان ثقة فى الحديث ، ومائلا إلى التشيع فى

---

(١) لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ـ طبع حيدر أباد الدكن بالهند جـ ٣ ص ١١٧ .
(٢) فى « المنتظم » : من بعد ما نحن همودا . وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتناه .

المذهب . وبلغ من اهتمام المرزبانى بالشعر والشعراء أنه أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى واعتنى به - على ميله هو إلى التشيع - فرفع بذلك الصنيع درجة العلم فوق حدود التعصب . وتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وقيل سنة ٣٧٨ هـ . والأول أصح على ما يراه صاحب « الوفيات » .

(١٣) - أبو محمد عبد الله بن محمد الأسدى الأكفانى . وقد ذكره صاحب « الغدير » فى ثبت شيوخ الشريف الرضى ، ولم أجد ذلك فى مصادرى . وابن الأكفانى هـذا كان كريما مفضلا على أهل العلم ، وقد ولى قضاء مدينة المنصور ، ثم ولى قضاء باب الطاق ، ثم جمع له قضاء بغداد سنة ٣٩٦ هـ . وكان أكثر من واحد من أهل الحديث يثنون عليه ثناء حسنا ويذكرونه ذكرا جميلا . وتوفى ابن الأكفانى سنة ٤٠٥ هـ كما يذكر صاحب « تاريخ بغداد » ودفن فى داره بنهر البزازين .

(١٤) - أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد الخطيب المشهور المعروف بابن نباتة الفارق ، وهو صاحب « ديوان الخطب المنبرية » المشهور ، وكان مبرزا فى الأدب والبلاغة ، وأجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها فى موضوعها . والتقى هو والشاعر المتنبى فى خدمة سيف الدولة ابن حمدان . وأثرت غزوات سيف الدولة فى الشاعر والخطيب، فنظم المتنبى قصائده الحماسية الحربية ، وصنع ابن نباتة خطبه فى الجهاد والحث عليه . واشتهر ابن نباتة بالتقوى والصلاح . وتوفى بحلب سنة ٣٧٤ هـ [1] .

(١٥) - أبو محمد الشيخ الأقدم هارون بن موسى التلعكبرى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ . وقد ذكره صاحب « الغدير » ولم أهتد إلى مصدره .

(١) كما فى « معجم المطبوعات العربية » و « الأعلام » لخير الدين الزركلى . وفى « الغدير » ج ٤ ص ١٦٢ أنه توفى سنة ٣٩٤ هـ ولعله تحريف من المطبعة .

الشريف الرضى

بين القرآن والحديث وكلام الإمام على

لقد كانت البلاغة هى السمة التى غلبت على الشريف الرضى حين نثر وحين شعر . والحق أنه وقف أمام ثلاثة مصادر لتدفق البلاغة العربية ، فعكف عليها ونهل من مواردها ، واستخرج ما فيها من كنوز بلاغية ، فجلاها أمام أهل العربية فى آنق أثوابها ، وأقشب أبرادها ، وأجمل معارضها .

وهذه المصادر الأصلية للبيان العربى هى القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وكلام الإمام على .

وكانت مهمة الشريف الرضى فى القرآن والحديث هى الكشف عما فيهما من وجوه البيان ، وضروب البلاغة ، وجهات الفصاحة ، حتى تحقق للقرآن الكريم الإعجاز ، مع أن ألفاظه لم تخرج عما كان العرب يستعملونه من ألفاظ ، وما يدور فى لغتهم من كلمات . وحتى تحقق للحديث النبوى ذلك المقام البلاغى ، والمنزل البيانى الذى لا يدانيه مقام ولا يقاربه منزل ، لأن صاحبه صلى الله عليه وسلم أوتى الحكمة وجوامع الكلم .

أما مهمة الشريف الرضى فى كلام الإمام على كرم الله وجهه فكانت تأليف كتاب يحتوى على مختار أقواله [فى جميع فنونه ، ومتشعبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ، علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام ، ولا مجموع الأطراف فى كتاب ، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ،

ومنه عليه السلام ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا ، وتقدم وتأخروا ، ولأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي ، وفيه عبقة من الكلام النبوي[1]] .

ولقد أنتج لنا اهتمام الشريف الرضى بهذه المصادر البلاغية ثلاثة كتب من خير ما صنف فى البيان العربى ، لأنها كتب خالصة فى البلاغة ، صريحة فى البيان ، خالية من المصطلحات البيانية المتأخرة بعد ذلك ، تلك المصطلحات التى جعلت من البلاغة علماً جافا ، وقواعد جامدة ، ونظريات تحفظ ولكنها لا تخرج بليغاً ، ولا تصبُّ على قوالبها فصيحاً .

وكان كتاب « تلخيص البيان » هو الذى كشف فيه الرضى عن وجوه البيان فى كتاب الله ، وكتاب « المجازات النبوية » هو الذى تناول فيه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بجلاء عرائسه ، واستخراج نفائسه . أما كتاب « نهج البلاغة » فقد كان كله جمعاً لكلام الإمام على ، ونظماً لعقود درره ، وضما لأشتات لآلئه . ولعله ـ لو طال به الأجل رضى الله عنه ـ لصنع فى كلام على كرم الله وجهه ما صنعه فى حديث الرسول عليه السلام ، من الكشف عن وجوه بيانه ، وبيان جمال استعاراته ومجازاته .

والحق أن الشريف الرضى بهذه الكتب الثلاثة قد استكمل صفات الموطِّد أركان البلاغة العربية ، والداعم آساسها ، والمقيمها على قرار مكين من المعالجة البيانية الواضحة ، التى لا يحاجزها عن حسن التأتى معاظلة ولا تعقيد ولا التواء . وتلك يد سلفت

(١) من مقدمة الشريف الرضى لكتاب « نهج البلاغة » طبع مصر . ص ٢ ، ٣ .

من الشريف الرضى للبيان العربى ، تجعلنا نعده رائداً كبيرا من رواد البلاغة والفصاحة الذين مهدوا الطريق ـ بتلك الدراسة البلاغية الكاملة للقرآن والحديث ـ لمن جاء بعدُ من علماء البلاغة النظريين .

ولن نعيد هنا القول فيما لوى به بعض المتعنتين أشداقهم من أن « نهج البلاغة » هو من كلام الشريف الرضى نفسه ، وأنه ليس للإمام على كرم الله وجهه . فتلك قضية أحسن الدفاعَ فيها « ابنُ أبى الحديد » فى القديم ، كما أحسن الدفاعَ عنها فى زماننا هذا الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد[1] .

نعم ! لن نعيد القول فى هذه المسألة ، ولكننا نشير إلى ما ذكره جورجى زيدان[2] من أن كتاب « نهج البلاغة » هو للشريف المرتضى ـ لا الشريف الرضى ـ مع تطابق الأخبار والآثار على أن النهج هو للرضىّ . وقد أخذ جورجى زيدان بأوهن القولين فى هذه القضية ، ونقل عن ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان »، ولكنه لم ينقل النص كاملا ، ولا الكلام تاما ، فاجتزأ من النقل بما يوهم أن « نهج البلاغة » للمرتضى ، وعبر عن ذلك بأنه « المشهور » ، مع أنه قول مرجوح . ولو أنصف جورجى زيدان لقال كما قال ابن خلكان : (وقد اختلف الناس فى كتاب « نهج البلاغة » المجموع من كلام الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى[3] ؟) .

والحق أن كتاباً من كتب الشريف الرضى لم ينل من الاهتمام به ، والتعليق عليه ، وحفظه ، وكثرة الشروح له ما ناله كتاب « نهج البلاغة » الذى جمعه من كلام الإمام

(١) انظر مقدمة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد لكتاب « نهج البلاغة » .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٢٨٨ .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ، جزء ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

على كرم الله وجهه ، فقد ذكر صاحب « الغدير »[1] أكثر من سبعين شرحا له ، وذكر أسماء أصحابها على مر العصور مما يقرب من عصر الشريف إلى زماننا هذا ، ولولا أنها مما لا يدخل فى مجال حديثنا الضيق لأتينا على أسمائها جميعا .

تآليف الشريف الرضى

لقد زخر عصر الشريف الرضى بطائفة من المصنفات فى شتى العلوم ، سواء أكان ذلك فى الأدب والنحو واللغة والتاريخ والفقه والحديث والكلام وغيرها . ويكفى أن يكون من إنتاج هذا العصر كتب ابن العميد والخوارزمى والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى ، و « يتيمة الدهر » للثعالبى ، و « الصناعتين » و « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ، و « الدرر والغرر » للشريف المرتضى ، و « الموازنة بين الطائيين » للآمدى ، و « الإمتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى، و « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى ، و « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى ، و « الخصائص » لابن جنى ، و« التهذيب » للأزهرى ، و « مقاييس اللغة » لابن فارس ، و « الصحاح للجوهرى » ، و « الفهرست » لابن النديم ، و « تجارب الأمم » لابن مسكويه ، وغيرها مما ألف فى مصر وأفريقية والأندلس ، « كزهر الآداب » للحصرى القيروانى المتوفى سنة ٤١٣هـ ، و « تاريخ مصر » لابن زولاق المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، و« الأفعال » لابن القوطية الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٧ هـ .

---

(١) الغدير جـ ٤ ص ١٦٤ ــ ١٦٩

والحق أن مصنفات الشريف الرضى تحتل أسمى مكان فى لجج هـذا البحر الواسع من التأليف العربى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ونحن هنا مثبتون ما استطعنا الحصول عليه من ثبت مؤلفاته :

(١) ـ « نهج البلاغة » ، وهو مما جمعه الشريف الرضى من كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة ، وتناوله كثيرون بالشرح ، حتى بلغت شروحه أكثر من سبعين شرحا ، أشهرها وأوسعها شرح ابن أبى الحديد أبى حامد عز الدين عبد الحميد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ . وقد اختصره المولى سلطان محمود الطبسى . ولنهج البلاغة شروح باللغة الفارسية منها « منهاج الولاية » وهو شرح المولى عبد الباقى الخطاط الصوفى التبريزى المتوفى سنة ١٠٣٩ هـ . وشرح المولى تاج الدين حسن المعروف بملا تاجا .

(٢) ـ « المجازات النبوية » ، وقد ذكرناه غير مرة فى هذه الدراسة ، وهو يشتمل على بيان وجوه المجاز والاستعارة ، والكشف عن مواقع النكت البلاغية والطرف البيانية فى ٣٦١ حديثا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد طبع فى العراق سنة ١٣٢٤ ، سنة ١٣٢٨ هـ ، ثم طبع فى مصر طبعة وثيقة بتحقيق المرحوم الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية .

(٣) ـ « تلخيص البيان ، فى مجازات القرآن » أو « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » كما فى مقدمة « المجازات النبوية » ، وهو هـذا الكتاب الذى نكتب له هـذه المقدمة التحليلية ، ولم يطبع قبل اليوم ، ولكن السيد محمد المشكاة نشر مخطوطته المصورة على طريقة « الفوتوتيب » بإيران سنة ١٣٦٩ هـ ، وألحق به فهارس جليلة

ضافية وكتب له مقدمة فى سبع صفحات ، كما كتب له الأستاذ حسين على محفوظ مقدمة فى ثمانى صفحات . وقد قال ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه جاء نادرا فى بابه[1] .

(٤) ـ ديوان شعره ، جمعه أبو حكيم الخبرى « بفتح الخاء وسكون الباء » المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وقد طبع فى بيروت سنة ١٣٠٧ هـ . بشرح الشيخ أحمد عباس الأزهرى ، ومحمد اللبابيدى فى جزءين صفحاتهما ٩٨٦ . وطبع فى بمباى سنة ١٣٠٦ هـ فى ٥٤٩ صفحة . وتولى فى مصر الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد القيام بشرحه وطبعه فى مطبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨ هـ ، ولكن لم يبلغ فيه إلا إلى قافية الباء . وقد ظهر هذا الجزء فى ٤٨٠ صفحة وضبط الشعر بالشكل التام .

(٥) ـ « خصائص الأئمة » وقد أشار إليه الشريف الرضى نفسه فى مقدمته لكتاب « نهج البلاغة » وذكر أنه ألفه ـ أو ابتدأ تأليفه ـ فى عنفوان السن وغضاضة الغصن ، وأنه يشتمل على محاسن أخبار الأئمة وجواهر كلامهم ، فلما فرغ من الخصائص التى تخص الإمام عليا كرم الله وجهه ، عاقته عن إتمام الكتاب محاجزات الزمان ومماطلات الأيام . والظاهر مما كتبه الشريف الرضى فى مقدمته لنهج البلاغة أن « خصائص الأئمة » لم يتم تأليفه ، وأن « نهج البلاغة » هو فصل من فصول خصائص الأئمة . ويذكر صاحب الغدير أن عنده نسخة من خصائص الأئمة ، ويعجب مما قاله الشيخ الحلّى من أنه توجد فى العراق نسخ باسمه تشبهه فى المنهج ، ولكن لم تصح نسبتها .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ ص ٣ .

(٦) ـ « حقائق التأويل فى متشابه التنزيل » ويشير الشريف الرضى إليه دائما فى « المجازات النبوية » وفى « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » فيسميه تارة بالكتاب الكبير[١] ، وتارة باسم حقائق التأويل ـ كما فى مجازات سورة آل عمران وسورة المائدة ـ ويسميه ثالثة الكتاب الكبير فى متشابه القرآن . وقد أسماه النجاشى « حقائق التنزيل » ، كما أطلق عليه صاحب « عمدة المطالب » : « كتاب المتشابه فى القرآن » .

(٧) ـ « معانى القرآن » ، وقد ذكره له ابن شهراشوب فى « المعالم » وقال عنه إنه يتعذر وجود مثله . وقال فيه ابن خلكان المؤرخ فى «وفيات الأعيان» : « إنه صنف كتابا فى معانى القرآن الكريم يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه فى علم النحو واللغة » ولا نستطيع الجزم إذا ما كان هذا الكتاب هو بعينه « حقائق التأويل» أم كتابا غيره .

(٨) ـ « الحسن من شعر الحسين » وقد ذكر ذلك فى ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٣٠٧هـ ونقل ذلك المستشرق متز فى كتابه «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»[٢] . وقد كان الشريف صديقا للحسين[٣] أبى عبد الله بن أحمد بن الحجاج الشاعر الماجن الظريف ،ووصفه حين رثاه بأنه كان خفة روح الزمان . وكان الرضى معذورا حين اختار من شعر الحجاج فى هذه المختارات ، فإن الثعالبى يقول عنه (إنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار

(١) انظر تلخيص البيان ، مجازات سورة المائدة ، والتوبة ، والرعد ، وابراهيم ، والزخرف .
(٢) جزء ١ ص ٤٤٩ .
(٣) فى اليتيمة : اسمه الحسن، والتصويب عن الوفيات ، والأعلام للزركلى، والغدير لعبد الحسين أحمد .

شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رقته وقذعه[1]) ولعل الثعالبي كان يقصد بالمحتشمين الشريف الرضى وأضرابه ممن تجلهم أقدارهم وأحسابهم عن النزول إلى المجون . ولكن شعر ابن الحجاج لم يكن سخيفاً كله ، ولا ماجنا كله ، فله قطع رائعة خالية من الفحش المفرط ، كانت تسر النفس وتعيد الأنس - كما يقول صاحب يتيمة الدهر - ولعل هذه القطع هى التى اختارها الشريف الرضى فيما اختار .

(٩) - وله « كتاب رسائله » الذى جمعه أبو إسحق الصابى وكان معاصراً له ، وقد ذكر ذلك ابن النديم فى « الفهرست[2] » . وهذا الكتاب مطوى فى أحناء الغيب ، ولعل الأيام لو كشفت عنه النقاب ، وأزالت عنه الحجاب تدلنا على ذخيرة أدبية رائعة فى فن الرسائل ، الذى لم يقلّ فيه الشريف الرضى عن أمراء الرسائل فى عصره، من أمثال الصاحب والصابى والخوارزمى وغيرهم .

(١٠) - أخبار قضاة بغداد . وقد ذكره له ابن عنبسة الحسنى الداودى المتوفى سنة ٨٢٩هـ ولا نعرف عنه شيئاً ، وذكره صاحب « الغدير » فى ثبت مؤلفاته .

(١١) - سيرة والده . وهو مما ذكره الحسنى فى «عمدة الطالب ، فى مناقب آل أبى طالب» ويقول العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى : إن هذا الكتاب ألفه الشريف الرضى سنة ٣٧٩هـ ، أى قبل وفاة والده بواحد وعشرين عاما .

(١٢) - أما ماذكره المؤرخ جورجى زيدان من أن للشريف الرضى كتاب «انشراح

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٥ . (٢) الفهرست ص ١٩٤ .

الصدر ، فى مختارات من الشعر » فهو غير دقيق تمام الدقة ، لأن انشراح الصدر هذا ليس إلا منتخبات من شعر الشريف الرضى ، اختارها بعض الأدباء كما يذكر حاجى خليفة فى « كشف الظنون[1] » وهو يتحدث عن ديوان الشريف الرضى .

استقلال شخصية الشريف فى النقد

يبدو الشريف الرضى فى مصنفاته التى وقعت لنا بادى الشخصية ، ظاهر الاستقلال فى الرأى ، والاعتداد بالفكر . فهو لا يقبل المسائل قضايا مسلمة وأموراً منتهية ، ولكنه يناقشها ويعلق عليها ، ويبدى فيها صريح الرأى ، ويبين إذا كانت قريبة من العقل ، أو بعيدة عن القبول ، أو دانية من اعتساف القول .

وقد لاحظنا ذلك فى مواطن كثيرة من كتابيه « المجازات النبوية » و « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » فإن استقلال شخصيته النقدية يبدو شيئاً يلفت النظر فى هذين الكتابين، إلى حد لا يجوز إغفاله فى معرض الحديث عن الشريف الرضى .

والشواهد على ذلك لا تعوزنا فى « المجازات » و « التلخيص » ، فهى منا على أطراف الثمام .

يقول المؤلف فى مجازات قوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ إن الأيدى ـ على بعض التأويلات ـ معناها الحجج والبينات التى جاء بها الرسل ، ويكون معنى الآية على هذا التأويل أن الكفار ردوا حجج الأنبياء من حيث

---

(١) جـ ١ ص ٥١٣

جاءت ، وطريق مجيئها أفواههم ، فكأنهم ردوا عليهم أقوالهم ، وكذبوا دعواهم . . .
ثم يقول بعد ذلك : (وفى هذا التأويل بعد وتعسف إلا أننا ذكرناه لحاجتنا إليه ، لما ذهبنا مذهب من حمل قوله سبحانه ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ على الاستعارة لا على الحقيقة) .

ثم يمضى الشريف الرضى رحمه الله فى عرض الأقوال المقولة فى تأويل هذه الآية والتعليق عليها فيقول : (وقال بعضهم : بل المراد بذلك ضرب من الهزؤ يفعله المُجان والسفهاء إذا أرادوا الاستهزاء ببعض الناس ، وقصدوا الوضع منه ، والإزراء عليه ، فيجعلون أصابعهم فى أفواههم ، ويُتبعون هذا الفعل بأصوات تشبهه وتجانسه، يستدل بها على قصد السخف وتعمد الفحش ، وهذا عندى بعيد من السداد ، وغيره من الأقوال أولى منه بالاعتماد) .

ويقول معلقاً على قول بعض المفسرين لقوله تعالى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ : (وفى هذا القول بعض التخليط ، والذى أذهب إليه فى ذلك ما ذكرته فى كتابى الكبير على شرح واستقصاء ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ والله أعلم : أى أخذنا أسماعهم ، فبطل استماعهم) .

ويقول معقباً على قول من فسروا العَجَلَ بالطين فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ : (فأما من قال من أصحاب التفسير إن العَجَل ههنا اسم من أسماء الطين ، وأورد عليه شاهداً من الشعر ، فلا اعتبار بقوله ، ولا التفات إلى شاهده ، فإنه شعر مولد) .

وقَصْدُ الشريف الرضى بالشعر المولد هو هذا البيت الذى ذكره بعض المفسرين مستشهداً على أن العَجَل اسم من أسماء الطين :

والنّبع فى الصخرة الصماء منبته   والنخل ينبت بين الماء والعَجَل

والشريف هنا يبدو ناقداً أديباً لغويا دقيقا ، فهو لا يحتج بشعر من لا يُحتج بشعرهم من المولدين ، وقد لاحظنا أنه فى « المجازات النبوية » و « تلخيص البيان » لم يستشهد إلا بشعر عربى فصيح صحيح ، فلم يستشهد مرة واحدة ببيت مولد .

ونراه فى مجازات سورة الزمر يسوقه القول إلى بيت الأعشى :

فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها   أو القمر السارى لألقى المقالدا

فيقول : (وقال بعض العلماء : ليس قول الشاعر ههنا « ينادى الشمس » من النداء الذى هو رفع الصوت ، وإنما هو من المجالسة . تقول : ناديت فلانا ، إذا جالسته فى النادى ، فكأنه قال : لو يجالس الشمسَ لألقت قناعها شغفاً به ، و تبرجا له . وهذا من غريب القول) .

وفى مجازات سورة الحشر نراه يقول فى مجاز قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : (. . . المعنى أنهم استقروا فى الإيمان ، كاستقرارهم فى الأوطان . وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة . وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقا . ألا ترى كم بين قولنا : استقرُّوا فى الإيمان ، و بين قولنا : تبوءوا الإيمان . وأنا أقول أبدا : إن الألفاظ خدم للمعانى ، لأنها تعمل فى تحسين معارضها ، وتنميق مطالبها) . فقوله رضى الله عنه : « وأنا أقول أبدا » يحمل معنى قيامه بقضية البلاغة ، وخدمة الألفاظ للمعانى ، مع مضيه فى هذه الدعوة البيانية ، والزعامة البلاغية إلى حد المناداة على نفسه .

فإذا تركنا « تلخيص البيان » جانبا لنكشف عما فى « المجازات النبوية » من استقلال فى الفكر ، واعتداد بالرأى لم تعوزنا الشواهد الكثر .

ففى مجاز قوله صلى الله عليه وسلم : (لا إسلال ولا إغلال) يقول الشريف الرضى : (وقد قال بعضهم : المراد بالإسلال ههنا سل السيوف ، وبالإغلال لبس الدروع . وهذا القول غير معروف ، والقول الأول هو القول السَّدَد ، والصحيح المعتمد)[1] .

وفى مجاز قوله صلى الله عليه وسلم . (الولد للفراش وللعاهر الحَجَر) يرى بعضهم أن المراد بالحَجَر هنا هو الرجم بالأحجار إذا كان العاهر محصنًا ، فإذا كان غير محصن فالمراد بالحجر حينئذ التعنيف به والغلظة عليه ، بتوفية الحد الذى يستحقه من الجَلْد ، ولكن الشريف الرضى لا يقبل هذا القول بل يرفضه قائلا : (وفى هذا القول تعسف واستكراه ، وإن كان داخلا فى باب المجاز ، لأن الغلظة على من يقام الحد عليه إذا كان الحد جلدا لا رجما لا يعبر عنها بالحَجَر ، لأن ذلك بُعْدٌ عن سنن الفصاحة ، ودخول فى باب الفهاهة)[2] ،

وفى مجاز قوله صلى الله عليه وسلم : (تؤخرون الصلاة إلى شَرَق الموتى) نراه يقول : (وقد قيل فى ذلك أقوال كلها بعيدة عن المحجة) ثم يشرح الحديث بعد ذلك شرحا أدبيا بليغا فيقول : (ومع ذلك فيخرج الكلام من حيز الاستعارة غير قول واحد ، وهو أن يكون المراد أنهم يؤخرون الصلاة إلى أن لا يبقى من النهار إلا بقدر

---

(١) المجازات النبوية . طبع مصر ، ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢ .

ما بقى من نفس الميت الذى قد شرق بريقه ، وغرغر ببقية نفَسه ، فشبه عليه الصلاة والسلام تلك البقية بشُفافة الدَّماء التى قد قرب انقضاؤها ، وحان فناؤها) [1] .

ولعل من هذه الأمثلة يتضح ماذهبنا إليه من اعتداد الشريف الرضى برأيه ، واستقلال شخصيته فى النقد استقلالا يبعده عن تقليد السابقين ، وترديد أقوال القائلين ، سواء أكانوا من رجال الفقه أم التفسير أم اللغة أم غيرهم . على أنه لا يخالف لمجرد المخالفة ، ولا يناقض لمحض المناقضة ، ولكنه يخالف ويعارض دائما حين يكون الحق دائما فى جانبه ، والصواب فى ناحيته رحمه الله ! .

القاهرة { رجب ١٣٧٤ / مارس ١٩٥٥ }

محمد عبد الغنى حسن

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

يقول حقًا ○ ومن السورة التي يذكر فيها
س ٢٠ موسى عليه السلام وهي طه

قوله سبحانه إن الساعة آتية أكاد أخفيها وهذه استعارة ١٥
على أحد التأويلين وهو مما سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوي عفا الله
عنه قال الذي عليه حذاق أصحابنا أن أكاد هاهنا على بابها من معنى
المقاربة إلا أن قوله تعالى أخفيها يؤول إلى معنى أظهرها لأن المراد
بقوله أكاد أسلبها خفاءها والخفاء الغشاء والغطاء مأخوذ من خفاء
القربة وهو الغشاء الذي يكون عليها فإذا سلب عن الساعة غطاؤها
المانع من تجليها ظهرت للناس فرأوها فكأنه تعالى قال أكاد أظهرها
قال لي وأنشدنا أبو علي منذ أيام بيتًا هو نص على هذا التأويل على الغرض
الذي رمينا وكان سماعي ذلك من أبي الفتح رحمه الله وأبو علي حينئذ باق
لم يمت وهو قول الشاعر

لقد علم الأيقاظ أخفية الكرى تزججها من حالك واكتحالها

ومعناه لقد علم الأيقاظ عيونًا كحل العين للنوم في أنها تشتمله عليه
كالخفاء للقربة في أنه مشتمل عليها وقول الشاعر أخفية الكرى من
الاستعارات العجيبة والبدائع الغريبة وقوله تزججها من حالك
واكتحالها يعود على العيون : لأنه قال تزجج العيون واكتحالها

صفحة من المخطوط من مجازات سورة طه

القول مجاز واستعارة لان النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز ان ينتهي
عظم ذنبه الى حال الانقاض للظهر وهو صوت تتفقع العظام من
ثقل الحمل لان هذا القول لا يكون الا كناية عن الذنوب العظيمة
والافعال القبيحة وذلك غير جائز على الانبياء عليهم السلام
في قول من لا يجيز عليهم الصغاير ولا الكباير وفي قول من يجيز
عليهم الصغاير دون الكباير ولان الله سبحانه قد نزههم عن موبقات
الاثام ومستقبحات الافعال اذ كانوا امنا وحيه والسفرا بين امره
ونهيه وسفراه الى خلقه وقد استقصينا الكلام على ذلك في باب
مفرد من كتابنا الكبير فنقول ان المراد هاهنا بوضع الوزر
ليس على ما يظنه المخالفون من كونه كناية عن الذنب وانما المراد
به ما كان يعانيه النبي صلى الله عليه وسلم من الامور المستصعبة
والمواقف المخطرة في اداء الرسالة وتبليغ النذارة وما كان يلاقيه
عليه السلام من مضار قومه ويتلقاه من مرامي ايدي معشره
وكل ذلك يجرح في صدره ويثقل على ظهره فعرفه الله سبحانه انه
ازال عنه تلك المخاوف كلها وحط عن ظهره تلك الاعبا باسرها
واداله من اعدايه وفضله على اكفايه وقدم ذكره على كل ذكر
ورفع قدره على كل قدر حتى امن بعد الخيفة واطمان بعد القلقة

الصفحة الأخيرة من مخطوط « تلخيص البيان » للشريف الرضي

تلخيص البيان

في مجازات القرآن

للشريف الرضي

٣٥٩ - ٤٠٦ هـ

حققه وقدم له وصنع فهارسه

محمد عبد الغني حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

... ولكنهم لما لم يعلموا هذه الآلات فى مذاهب الاستدلال بها ، كانوا كمن فقد أعيانها ، ورمى بالآفات فيها . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[1] ﴾ لأن الطبع من الطابع ، والختْم من الخاتم ، وهما بمعنى واحد . وإنما فعل سبحانه ذلك بهم عقوبةً لهم على كفرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [٧][*] استعارة أخرى . لأنهم كانوا على الحقيقة ينظرون إلى الأشخاص ، ويقلّبون الأبصار ، إلاَّ أنهم لما لم ينتفعوا بالنظر ، ولم يعتبروا بالعبر وَصَفَ سبحانه أبصارهم بالغَشْيِ ، وأجراهم مُجْرى الخوابط الغواشى . أو يكون تعالى كنى ههنا بالأبصار عن البصائر ، إذ كانوا غير منتفعين بها ، ولا مهتدين بأدلتها . لأن الإنسان يُهْدَى ببصيرته إلى طرق نجاته ، كما يُهْدَى ببصره إلى مواقع خطواته .

وقوله تعالى . ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [١٠] والمرض فى الأجسام حقيقة وفى القلوب استعارة ، لأنه فساد فى القلوب كما أنه فساد فى الحقيقة ، وإن اختلفت جهة الفساد فى الموضعين .

وقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [١٥] وهاتان استعارتان . فالأُولى منهما إطلاق صفة الاستهزاء سبحانه ، والمراد بها أنه تعالى يُجازيهم على استهزائهم بإرصاد العقوبة لهم ، فسمى الجزاء على الاستهزاء باسمه ، إذ كان واقعا فى مقابلته ، والوصف بحقيقة الاستهزاء غير جائز عليه تعالى ،

---

(١) سورة التوبة . الآية رقم ٨٧ ، وفى سورة « المنافقون » (فطبع على قلوبهم) بالفاء لا بالواو الآية رقم ٣ .

(*) ملحوظة . يشير الرقم بين حاصرتين بعد الآية هكذا [] إلى عددها من السورة .

لأنه عكس أوصاف الحليم ، وضد طريق الحكيم . والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يَمُدُّ لهم كأنه يخليهم والامتدادَ فى عَمَهِهِم والجماحَ فى غيهم ، إيجابا للحجة ، وانتظارا للمراجعة ، تشبيها بمن أرْخى الطِّوَل للفرس أو الراحلة ، ليتنفس خناقُها ، ويتسع مجالُها .

وربما جُعِل قوله سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] على أنه مستعار فى بعض الأقوال ، وهو أن يكون المعنى أنهم يُمَنُّون أنفسهم ألاَّ يُعاقبوا ، وقد علموا أنهم مستحقون للعقاب ، فقد أقاموا أنفسهم بذلك مقام المخادعين . ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ[2] إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٩] .

وقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[١٦] وهذه استعارة . والمعنى أنهم استبدلوا الغى بالرشاد، والكفرَ بالإيمان ، فخسرتْ صَفقتُهم ، ولم تربح تجارتهم . وإنما أطلقَ سبحانه على أعمالهم اسم التجارة لما جاء فى أول الكلام بلفظ الشِّرَى تأليفا لجواهر[3] النظام ، وملاحمةً بين أعضاء الكلام .

وقوله سبحانه :﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [٢٠] . وهذه استعارة . والمراد يكاد

---

(١) كان من حق هذه الآية فى الترتيب أن تأتى قبل الآية العاشرة التى سبق الحديث عنها فى قوله تعالى : (فى قلوبهم مرض الخ) ولا أدرى أكان ذلك سهوا من المؤلف رضى الله عنه ، أم سهوا من الناسخ حيث وضعها فى غير موضعها ، وأنزلها فى غير ترتيبها .

(٢) فى الأصل « وما يخادعون » على أنها قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو ليتجانس اللفظان فى الموضعين . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم وابن عامر « يخدعون » كما أثبتناه . وكما نقرؤه فى المصحف الذى بين أيدينا .

(٣) فى الأصل « بجواهر » وهى خطأ فى النسخ .

يَذْهَبُ بأبصارهم من قوة إيماضه وشدة التماعه . والدليل على ذلك قوله تعالى فى النور[(١)] : ﴿ يكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ ﴾[٤٣] ومُحصَّل[(٢)] المعنى: تكاد أبصارهم تذهب عند رؤية البرق ، فجعل تعالى الفعل للبرق دونها لما كان السبب فى ذهابها .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً ، وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[٢٢] وهـذه استعارة . لأنه سبحانه شبَّه الأرض فى الامتهاد بالفِراش ، والسماء فى الارتفاع بالبناء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ ﴾[٢٩] أى قصد إلى خلقها كذلك . لأن الحقيقة فى اسم الاستواء الذى هو تمامٌ بعد نقصان ، واستقامةٌ بعد اعوجاج ، من صفات الأجسام ، وعلامات المُحْدَثات .

وقوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾[٤٢] وهذه استعارة . والمراد بها : ولا تَخْلطوا الحق بالباطل ، فتعمَى مسالكه ، وتُشْكِلَ معارفه . وذلك مأخوذ من الأمر الملتَبِس ، وهو المختلطُ المشتبه . ويقول القائلُ : قد ألبَسَ علىَّ هذا الأمر . إذا انغلقت أبوابه عليه ، وانسدَّتْ مطالع فهمه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾[٦١] وهـذه استعارة . والمراد بها صفة شمول الذلة لهم ، وإحاطة المسكنة بهم ، كالخِباء المضروب على أهله ، والرواقِ المرفوع لمستظله .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾[٦٦] أى للأمم التى

---

(١) أى فى سورة النور . آية رقم ٤٣ .

(٢) فى الأصل : ويحصل المعنى . وهو تحريف من الناسخ لا يستقيم به المعنى .

تشاهدها ، والأمم التى تكون بعدها . أو للقرى التى تكون أمامها ، وللقرى التى تكون خلفها . ولقول العرب : كذا بين يَدَىْ ، كذا وجهان : أحدهما أن تكون بمعنى تقدُّم الشىء للشىء . يقول القائل لغيره : أنا بين يديك . أى قريب منك . وقد مضى فلان بين يَدَيْك، أى تقدَّمَ أمامك .

وقوله تعالى فى وصف الحجارة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[٧٤] وهذه استعارة . والمراد ظهور الخضوع فيها لتدبير الله سبحانه بآثار الصنعة وأحلام الصبغة[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾[٨١] وهذه استعارة فيها كناية عجيبة عن عظم الخطيئة ، لأن الشىء لا يحيط بالشىء من جميع جهاته إلا بعد أن يكون سابغا غير قالص[(٢)] ، وزائِدا غير ناقص .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[٨٨] . وهذه استعارة على التأويلين جميعا . إما أن تكون غُلف جمع أَغْلَفَ ، مثل أحمر وحمر ، يقال سيف أغلف . أو تكون جمع غلاف ، مثل حِمَار وحُمُر ، وتخفف[(٣)] فيقال حُمْر . وكذلك يجمع غلاف ، فيقال غُلُف وغلف بالتثقيل والتخفيف . قال أبو عبيدة : كل شىء فى غلاف فهو أغْلَف ، يقال : سيف أغْلَفُ ، وقوسٌ غَلْفَاء ، ورجلٌ أغْلَفُ : إذا لم يختتن . فمن قرأ غُلف ، على جمع أغلَف ، فالمعنى أن المشركين قالوا : قلوبنا فى أغطية عما يقوله ، يريدون النبى عليه السلام . ونظير ذلك قوله سبحانه حاكيا عنهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا

---

(١) هكذا بالأصل . ولم نهتد إلى وجه الصواب فيها ، ولعلها : « وإحكام الصفة » .

(٢) قلص الثوب بعد غسله = انكمش ، فهو قالص .

(٣) فى الأصل « وتخفيف » وهو تحريف من الناسخ لا معنى له ، والصواب ما أثبتناه .

وَقْرٌ ﴾[٥] الآية(١) . ومن قرأ : قلوبُنا غلُف على جمع غلاف بالتثقيل والتخفيف ، فمعنى ذلك : قالوا قلوبنا فى أوعية فارغة لا شىء فيها . فلا تُكْثِر علينا من قولك ، فإنا لا نعى منه شيئا . فكان قولهم هذا على طريق الاستعفاء من كلامه ، والاحتجاز عن دعائه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[٩٣] وهذه استعارة . والمراد بها صفة قلوبهم بالمبالغة فى حب العجل ، فكأنها تشرَّبتْ حُبَّه فمازَجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشىء الملذوذ . وحذف حُبَّ العِجْل لدلالة الكلام عليه ، لأن القلوب لا يصح وصفها بتشرُّب العجل على الحقيقة .

وقوله سبحانه : ﴿ بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٩٣] استعارة أخرى . لأن الإيمان على الحقيقة لا يصحُّ عليه النطق ، فالأمر إنما يكون بالقول . فالمراد إذًا بذلك ـ والله أعلم ـ أن الإيمان إنما يكون دلالةً على صدِّ الكفر والضلال ، وترغيبا فى اتباع الهدى والرشاد، وأنه لا يكون ترغيبا فى سفاهة ، ولا دلالة على ضلالةٍ . فأقام تعالى ذِكْرَ الأمر ههنا مقام ذكر الترغيب والدلالة ، على طريق المجاز والاستعارة ، إذ كان المرغَّبُ فى الشىء، والمدلول عليه، قد يفعله كما يفعله المأمور به والمندوبُ إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[١٠٢] هذه استعارة . لأن بيع نفوسهم على الحقيقة لا يتأتى(٢) لهم . والمراد به ـ والله أعلم ـ أنهم لما أوْبقوا أنفسهم بتعلم السحر، واستحقوا العقاب على ما فى ذلك من عظيم الوزر، كانوا كأنهم قد رضوا بالسِّحر ثمناً لنفوسهم ، إذ عرَّضوها بعمله للهلاك ، وأوبَقوها(٣) لدايم العقاب .

---

(١) سورة فصلت . الآية رقم ٥ .

(٢) فى الأصل « لا تأتى » وهو تحريف من الناسخ .

(٣) فى الأصل : « وأرقوها » وهو تحريف لعل صوابه ما أثبتناه .

وكانت كالأعلاق الخارجة عن أبدانهم بأنقص الأثمان ، وأدْوَنِ الأعْوَاض .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [١١٢] أى أقبل على عبادة الله سبحانه ، وجَعَلَ توجُّهه إليه بجملته لا بوجهه دون غيره . والوجه ههنا استعارة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [١١٥] أى جهة التقرب إلى الله . والطريق الدالة عليه ، ونواحى مقاصده ومعتمداته الهادية إليه .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [١٣٠] والتقدير : سفِهَ نَفْسًا ، على أحد التأويلات . وهذه استعارة . لأنه تعالى علق السَّفَهَ بالنفس . وقولنا : نَفْسُ فلانٍ سفيهة : مستعارة ، وإنما السَّفَهُ صفةٌ لصاحب النفس لا للنفس .

وقوله : ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ [١٣٣] أى ظهرت له علاماته ، ووردَتْ عليه مقدماته ، فهى استعارة . لأن الموت لا يصح عليه الحضور على الحقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [١٣٨] أى دين الله ، وجعله بمنزلة الصبْغ لأن أثره ظاهر ، ووسْمَه لائح . وهذا من محض الاستعارة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [١٥٠] فهذه استعارة على قول من قال : إن الشطر ههنا البعد . أى ولِّ وجهك جهة بُعْدِه . إذ لا يصح أن تولى وجهكَ جهة بُعد المسجد على الحقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [١٦٨] أى لا تنجذبوا فى قياده ، لأن المنجذب فى قياد[1] غيره تابع لخطواته . وهذه من شرائف الاستعارة . فهى أبلغ عبارة

---

(١) فى الأصل « فى قيادة » . وقد جعلناها « قياد » بدلا من « قيادة » تمشيا مع ماجرى عليه المؤلف فى قوله : (لا تنجذبوا فى قياده) .

عن التحذير من طاعة الشيطان فيما يأمر به ، وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله . فهذه من شرائف الاستعارات .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾ [١٧٤] . وهذه استعارة . كأنهم إذا أكلوا مايُوجب العقاب بالنار كان ذلك المأكول مشبها بالأكل من النار . وقوله سبحانه : ﴿ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ : زيادة معنى ، وإن كان كل آكل إنما يأكلُ فى بطنه ، وذلك أنه أفظع سماعا ، وأشدُّ إيجاعا . وليس قول الرجل للآخر : إنك تأكل النار ، مثل قوله : إنك تُدخِل النارَ فى بطنك .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ [١٧٥] وقد مضى نظير ذلك ، وأمثاله كثيرة فى هذه السورة وغيرها .

وقوله تعالى فى ذِكْر النساء : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [١٨٧] . واللباس ههنا مستعار ، والمراد به قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض ، كما تشتمل الملابس على الأجسام (١) . وعلى هذا المعنى كَنَوْا عن المرأة بالإزار .

وقوله سبحانه : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ [١٨٧] وهذه استعارة ، لأن خيانة الإنسان نفسه لا تصح على الحقيقة ، وإنما المراد أنه سبحانه خفَّف عنهم التكليف فى ليالى الصيام ، بأن أباحهم فيها مع أكل الطعام وشرب الشراب الإفضاء إلى النساء ، ولو منعهم من ذلك لعلم أن كثيرا منهم يخلع عذار الصبر ، ويضعُفُ عن مغالبة النفس ، فيواقعُ المعصية بفعلِ ماحُظر عليه من غشيان

---

(١) استشهد ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » بقول النابغة الجعدى :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها　　　تثنت عليه فكانت لباسا

على أن اللباس معناه أن المرأة والرجل يتضامان فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس .

النساء ، فيكون قد كسب نفسه العقاب ، ونقصها الثواب . فكأنه قد خانها فى نفى المنافع عنها ، أو جرّ المضار إليها . وأصل الخيانة فى كلامهم : النقص ، فعلى هذا الوجه تحمل خيانة النفس .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[١٨٧] . وهذه استعارة عجيبة . والمراد بها على أحد التأويلات : حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل . والخيطان ههنا مجاز . وإنما شُبِّها بذلك لأن خيط الصبح يكون فى أول طلوعه مستدقا خافيا ، ويكون سواد الليل منقضيا موليًا ، فهما جميعا ضعيفان ، إلا أن هذا يزداد انتشارا ، وهذا يزداد استسرارا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [١٨٨] .

. . . .

. . . .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[٢٤٥] . وهذه استعارة . لأن الغنىّ بنفسه[1] لا يجوز عليه الاستقراض على حقيقته ، ولكن القرض فى الشاهد لما كان اسما لمن أعطى غيره مالاً على أن يُرَدَّ عليه عِوضُه ، أقام سبحانه توفيةَ[2] العوض عليه مقام رد القرض .

وقوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾[٢٥٠] فهذه استعارة . كأنهم قالوا : أمطرنا صبرا ، واسقنا صبرا . وفى قوله : أَفْرِغْ ، زيادة فائدة على قوله : أَنْزِلْ ، لأن الإفراغ يفيد سعة الشىء وكثرته وانصبابه وسعته .

(١) فى الأصل « الغنى لنفسه » وهو تحريف من الناسخ ، فالله غنى بنفسه لا غنى لنفسه .
(٢) فى الأصل « توفيه » بالهاء لا بالتاء المربوطة كما أصلحناه .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ ﴾ [٢٥٧] وهذه استعارة . والمراد بها إخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان ، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن عمياء[1] الجهل إلى بصائر العلم .

وكلُّ مافى القرآن من ذكر الإخراج من الظلمات إلى النور فالمراد به ماذكرنا . وذلك من أحسن التشبيهات . لأن الكفر كالظلمة التى يتسكع فيها الخابط ، ويضل القاصد . والإيمان كالنور الذى يؤمه الحائر ، ويهتدى به الجائر . لأن عاقبة الإيمان مضيئة بالإيمان والثواب ، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب . وفى لسانهم وصف الجهل بالعَمَى والعَمَه ، ووصف العلم بالبصر والجلية . يقال : قد غمّ عليه أمره ، وأظلم عليه رأيه . إذا كان جاهلا بما يرتئيه ويفعله . ويقال فى نقيض ذلك : هو على الواضحة من أمره ، والجلية من رأيه . إذا كان عالما بما يُورد ويُصدر ، فيما يأتى ويذر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [٢٨٣] . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ لأن الآثم والكاسب صاحب القلب ، دون القلب على ماتقدم من القول .

---

(١) جرى الناسخ على عدم إثبات همزة الممدود فكتب « عميا » بدون همزة . وقدهمزنا ماأغفله فى جميع المواطن بالكتاب ، فلا حاجة إلى التنبيه عليه .

ومن السورة التي يذكر فيها « آل عمران »

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[٧]. وهذه استعارة. والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله . فهى بمنزلة الأم ، وكأن سائر الكتاب يَتْبَعها ويتعلق بها ، كما يَتْبَع الولد آثار أمه ، ويفزعُ إليها فى مُهِمَّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ [٧] . وهذه استعارة . والمراد بها المتمكنون فى العلم ، تشبيها برسوخ الشئ الثقيل فى الأرض الخوّارة . وهو أبْلَغُ من قوله : والثابتون فى العلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَتُحْشَرُونَ[1] إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[١٢] وهذه استعارة . والمعنى : بئس ما يُمتَهد ويُفرَش . ونظيره قوله ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [٢٢] وهذه استعارة ، والمراد فسدَت أعمالهم فبطَلَتْ . وذلك مأخوذ من الحَبْط ، وهو داء تَرِمُ له أجوافُ الأبل ، فيكونُ سببَ هلا كها ، وانقطاع آكالها .

---

(١) فى الأصل « ويحشرون » بياء الغائبين لا بتاء المخاطبين كما هو الصواب فى القراءة عن ابن عباس التى رواها عكرمة وسعيد بن جبير . وفى رواية أبى صالح أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أحد نزلت الآية : (قل للذين كفروا سيغلبون ويحشرون الى جهنم وبئس المهاد) يعنى قريشا . وهى قراءة نافع .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ[١] ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ [٢٧] وهذه استعارة ، وهى عبارة عجيبة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا . والمعنى أن ما ينقصه من النهار يزيده فى الليل ، وما ينقصه من الليل يزيده فى النهار . ولفظ الإيلاج ههنا أبلغ، لأنه يفيد إدخال كلٍّ واحد منهما فى الآخر ، بلطيف الممازجة ، وشديد الملابسة .

وقوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[٣٩] وهذه استعارة . لأن المراد بهذا القول عيسى عليه السلام . والعلماء مختلفون فى هذه اللفظة ، وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتاب « حقائق التأويل » . فمن بعض ما قيل فى ذلك أن بشارة الله تعالى سبقت بالمسيح عليه السلام فى الكتب المتقدمة، والنذرات السالفة ، فأجرى تعالى اسم « الكلمة » عليه لتقدُّم البشارة به . والبشارةُ إنما تكون بالكلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ ﴾[٥٤] . وهذه استعارة . لأن حقيقة المكر لا تجوز عليه تعالى . والمراد بذلك إنزال العقوبة بهم جزاء على مكرهم . وإنما سُمِّى الجزاء على المكر مكرا للمقابلة بين الألفاظ على عادة العرب فى ذلك. قد استعارها لسانهم، واستعادها بيانهم .

وقوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ﴾[٧٢] وهذه استعارة . والمراد أول النهار . ولم يقل رأس النهار . لأن الوجه والرأس وإن اشتركا فى كونهما أول الشىء ، فإن فى الوجه زيادة فائدة ، وهى أنَّ به تصح المواجهة. ومنه تعرف حقيقة الجملة .

---

(١) فى الأصل : يولج بالياء المثناة التحتية، وهو تحريف من الناسخ للآية الكريمة . والصواب : تولج بالتاء المثناة الفوقية . أما « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » بالياء المثناة التحتية، فهى فى سورة الحج ولقمان والحديد وفاطر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٧٣] وهذه استعارة . والمراد بها إما سعة عطائه ، وعظيم إحسانه ، أو اتساعُ طرق علمه ، وانفساح أقطار سلطانه وعزه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . . الآية ﴾[٧٧] وهذه استعارة . وحقيقتها : ولا يرحمهم الله يوم القيامة . كما يقول القائل لغيره إذا استرحمه : انظر إلىَّ نظرة . لأن حقيقة النظر تقليب العين الصحيحة فى جهة المرئى التماساً لرؤيته . وهذا لا يصح إلا على الأجسام، وَمَن يُدرَك بالحواس ، ويوصَف بالحدود والأقطار . وقد تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيرا .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً ﴾[١٠٣] وهذه استعارة . ومعناها : تمسكوا بأمر الله لكم ، وعهده إليكم . والحبال : العهود ، فى كلام العرب . وإنما سميت بذلك لأن المتعلق بها ينجو مما يخافه ، كالمتشبث بالحبل إذا وقع فى غمرة ، أو ارتكس فى هوة . فالعهود يُستأمن بها من المخاوف ، والحبال يُستنقَذُ بها من المتالف . فلذلك وَقَعَ التشابه بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [١٠٣] . وهذه استعارة . لأنه تعالى شبّه المُشفِى ــ بسوء عمله ــ على دخول النار، بالمُشفى ــ لزلة قدمه ــ على الوقوع فى النار .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تَرْجِعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[١٠٩] على قراءة من قرأ بفتح التاء وكسر الجيم . وهذه استعارة . والمراد بها أن الأشياء كلها تنتهى إلى أن تزول عنها أيدى المالكين والمدبِّرين ، ويخلصُ ملكها وتدبيرها لرب العالمين .

وقوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ[١] عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ، إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾[١١٢] وقد مضى الكلام على مثل ذلك فى « البقرة » فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[١٢٧] أى ينقصَ عدداً من أعدادهم ، فيُوهن عضداً من أعضادهم . وهذا من محض الاستعارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [١٤٣] وهذه استعارة ، لأن الموتَ لا يُلْقَى[٢] ولا يُرَى . وإنما أراد سبحانه رؤية أسبابه، من صدق مصاع[٣] ، وتتابع قِراع . أو رؤية آلاته ، كالرماح المشْرَعة والسيوف المخترطة .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [١٤٤] وهذه استعارة . والمراد بها الرجوع عن دينه ، والتقاعُسُ عن اتّباع طريقه . فشبَّه سبحانه الرجوع فى الارتياب ، بالرجوع على الأعقاب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾[١٥٦] وهذه استعارة . لأن الضرب ههنا عبارة عن الإنجاد فى السير ، والإيغال فى الأرض ، تشبيهاً للخابط فى البر بالسابح فى البحر ، لأنه يضرب بأطرافه فى غمرة الماء شقًّا[٤] لها ، واستعانة على قطعها .

---

(١) فى أصل المخطوط « وضربت » بالواو . وهو تحريف فى النسخ ، وصحة الآية « ضربت ... » بغير واو .

(٢) فى الأصل « لا تلق » بالتاء وهو تحريف من الناسخ : والصواب ما أثبتناه .

(٣) المصاع : مصدر ماصع : أى قاتل وجالد .

(٤) فى الأصل « سما » بدون إعجام . والسابح فى الماء يضربه ليشق طريقه فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ . [١٦٣] وهــذه استعارة . لأن الإنسانَ غَيْرُ الدرجة . وإنما المراد بذلك : هم ذوو درجات متفاوتة عند الله ، فالمؤمن درجتُهُ مرتفعة ، والـكافرُ درجتُه متَّضعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [١٨٥] وهذه استعارة . لأن الغرور لا متاع له على الحقيقة ، وإنما المراد بذلك أن ما يستمتع به الإنسان من حطام الدنيا ظلٌّ زائل ، وخضاب ناصل .

وقوله تعالى فى صدر هذه الآية : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [١٨٥] مستعار أيضاً ، لأن حقيقة الذوق ما أُدرِك بحاسة ، وإنما حَسُنَ وصف النفس بذلك لما يُحَسُّ به من كرب الموت وعذابه ، فـكأنها تحسّه بذوقه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [١٨٦] . فهـذه استعارة . لأن الأمور لا عزم لها ، وإنما العزمُ للموطِّن نفسَهُ على فعلها ، وهو الإنسان . فالمراد : فإن ذلك من قوة الأمور . لأن العازم على فعل الأمر قوىٌّ عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [١٨٧] . وهذه استعارة . والمراد بها : أنهم غفلوا عن ذِكْره ، وتشاغلوا عن فهمه[١] ، يعنى الـكتاب المنزل عليهم ، فـكان كالشىء الملقَى خلف ظهر الإنسان ، لا يراه فيذكره ، ولا يلتفت إليه فينظره ..

وقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [١٨٨] ومنجاة من العقاب . والمفازة : الأرض البعيدة التى إذا قطعها الإنسان فاز بقطعها ، وأمن من خوفها .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ [١٩٦ ، ١٩٧] وهذه استعارة . والمراد بالتقلب ههنا كثرة الاضطراب فى البلاد ، والتقلقل فى الأسفار ، والانتقال من حال إلى حال .

---

(١) فى الأصل «فه» وهو تحريف ، فإن طريقة الناسخ فى كتابة الهاء أن لا يبين كتابتها فتبدو كأنها قنطرة .

ومن السورة التي يذكر فيها « النساء »

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [١٠] وهذه استعارة ، وقد مضى الكلام على نظيرها فى « البقرة » . والمعنى أنهم لما أكلوا المال المؤدى إلى عذاب النار ، شُبِّهوا من هذا الوجه بالآكلين من النار .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ [١٥] وهذه استعارة . لأن المتوفِّى ملك الموت . فنقل الفعل إلى الموت على طريق المجاز والاتساع . لأن حقيقة التوفى هو قبض الأرواح من الأجسام .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ (١) أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [٣٣] . وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — أن من عقدتم بينكم وبينه عقدا ، فأدُّوا إليه ما يستحقه بذلك العقد عليكم . وإنما نسب المعاقدة إلى الأيمان على عادة العرب فى ذلك . يقول القائل : أعطانى فلان صفقة يمينه على كذا . وأخذتُ يد فلان مصافحةً على كذا . وعلى هذا النحو أيضاً إضافة المِلْك إلى الأيمان فى قوله تعالى : « وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ » لأن الإنسان فى الأغلب إنما يقبض من المال المستحق بيمينه ، ويأخذ السلع المملوكة بيده .

وقوله سبحانه : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [٤٦] . وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — أنهم ينكسون الكلام عن حقائقه ، ويزيلونه عن جهة صوابه ، حَمْلاً له على أهوائهم ، وعطفا عن آرائهم .

---

(١) فى الأصل « والذين عاقدت » بفعل المفاعلة ، وهى قراءة . كما أن هناك قراءة « عقّدت » بتشديد القاف ، رواها على بن كبشة عن حمزة .

وقوله تعالى فى هـذه الآية : ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ [٤٦] استعارة أخرى . والمراد بها : يميلون بكلامهم إلى جهة الاستهزاء بالمؤمنين ، والوقيعة فى الدين .

وقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ [٤٧] . وهذه استعارة . وهى عبارة عن مسخ الوجوه . أى نزيل⁽¹⁾ تخاطيطها ومعارفها ، تشبيها بالصحيفة المطموسة ، التى عَمِيَت سطورها ، وأشكلت حروفها .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [٧٧] . وهذه استعارة . والمراد بها تخسيس قدر ما يصحب الإنسان من الدنيا ، وأن المتعة به قليلة ، والشوائب كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ [٩٠] . فهذه استعارة . والمراد بها صفة صدورهم بالضيق على القتال . وذلك مأخوذ من الحصار ، وهو تضييق المذهب ، والمنع من التصرف .

وقوله : ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ [٩٠] الآية وهـذه استعارة ، وحقيقتها ، إن طلبوا منكم المسالمة ، وسألوكم الموادعة .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ عبارة عن طلبهم السلم عن ذل واستكانة ، وخضوع وضراعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [١٢٨] وهـذه استعارة . وليس المراد أن مُحْضِراً أحضر الأنفس شحًا ، ولـكن الشح لما كان غير مفارق لها ، ولا متباعد عنها ، كان كأنه قد أحضرها ، وحُمل على ملازمتها .

ومثل هـذا قوله تعالى فى هـذه السورة : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن

---

(١) فى الأصل « نزبل » بدون نقط وهو تحريف .

شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [١٥٧] . فليس التشبيه ههنا عملا من غيرهم بهم ، وإنما شبهوا هم على أنفسهم . . . .(١) كما يقال : أين يُذهب بك ؟ والمراد أين تذهب . ونظائر ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا(٢) مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [١٤٠] . وهذه استعارة . والمراد بالخوض ههنا مناقلة الحديث ، والضربُ فى أقطاره ، والتفسُّح فى أعطانه ، استثارة لكرائمه ، وبحثا عن غوامضه . تشبيها بخائض الماء ، الذى يثير قراره ، ويسبر غماره(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [١٥٧] . وفى هذه الآية استعارتان : إحداهما قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ لأن الظن جُعل ههنا بمنزلة الداعى الذى يطاع أمره ، والقائد الذى يتبع أثره ، مبالغةً فى صفة الظن بشدة الاستيلاء عليهم وقوة الغلبة على قلوبهم . والاستعارة الأخرى أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ راجعاً إلى الظن لا إلى المسيح عليه السلام . فكأنه سبحانه قال : وما قتلوا الظن يقينا : كما يقول القائل : قتلت الخبر علما . ومن أمثالهم : (قتل أرضاً عالِمها) و (قتلت أرض أهلها) والمراد بقولهم قتلت الخبر علما : أى استقصيت معرفته ، واستخرجت دخيلته(٤) . فلم يفتنى شىء من علمه ، فكنت بذلك كأنى قاتلٌ له . أى لم أبق شيئا يُعلَمُ من كنهه ، كما لم يبق القاتل من المقتول شيئا من

---

(١) هنا خمس كلمات متقطعة غير واضحة بالأصل .

(٢) فى الأصل (فلا تقعد) بخطاب الواحد ، وهو تحريف وليس هناك فى القراءات شىء مثل هذا . ويؤيد صيغة الجمع قوله تعالى بعد هذا : (إنكم إذاً مثلهم) .

(٣) فى الأصل « عماره » بدون نقط العين المعجمة .

(٤) فى الأصل « ذخيلته » بإعجام الذال . والصواب بالدال المهملة .

نفسه . وعلى هـذا قولهم : أصاب فلانٌ شاكلة الأمر وطبّق مفْصِلَ الرأى . . . . . حقيقته ، وبلغ مص . . . . ه[١] والشاكلة : الخاصرة ههنا ، وهى من مقاتل الحيوان .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [١٧١] وقد مضى كلامنا على معنى تسمية المسيح عليه السلام بكلمة الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [١٧١] ههنا استعارة . والمراد بذلك أن الناس ينتفعون بهديه ، ويحيون من موت الضلالة برشده ، كما تحيا[٢] الأجسام بأرواحها ، وتتصرفُ بحركاتها .

(١) هنا فى موضع النقط كلمات لم تتبين بالأصل .
(٢) فى الأصل « يحيا ، ويتصرف » وهو تحريف .

ومن السورة التي يذكر فيها « المائدة »

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ [٢] . وهذه استعارة ، والمراد مستبعداتِ الله التي أشعرها للناس ، أى بينها لهم .من قولهم : أشعرت البَدَنة ، إذا جرحتها فى سنامها ليسيل دمها ، فيُعلَم أنها هَدْى لبيت الله سبحانه : وهذا الفعل علامة لها ، ودلالة عليها .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [١٦] وهذه استعارة . والسلام ههنا جمع سلامة . فالمراد أنه تعالى يدل من أطاعه على طريق نجاته ، وسبيل أَمَنَته ، لأن طاعته تعالى إمام[1] السلامة ، فمن اتبع قياده نجا ، ومن تقاعس عنه ضل وغوى .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [١٩] وهذه استعارة . والمراد على انقطاع الإرسال إلى الأمم و . . . . الزمان من . . . . .[2] الرسل . تشبيها بحال إرسال الأنبياء إلى أممهم ثم حال توفيهم بعد أداء شرائعهم بثقوب النار ثم خمودها ، واضطرامها ثم فتورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [٢١] . وهذه استعارة . ونظيرها قوله تعالى : ﴿ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ أى لا تولوا عن دينكم

---

(١) فى الأصل « إدام » ولا معنى للأدام هنا لأنه مايؤتدم به . ولعل ما استظهرناه هو الصواب ، لأن الإمام . له مكان القيادة . فكأن الطاعة تقود إلى السلامة .

(٢) موضع النقط كلمات لم تتبين بالأصل .

وتشكوا بعد يقينكم ، فتكونوا كالمقهقر[١] الراجع ، والمتقاعس الناكص .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٣٠] وهـذه استعارة . والمراد : سولت له وقربت عليه نفسه ففعل . وطوّعت فعّلت . من الطوع . أى سهلت نفسه عليه ذلك ، حتى أتاه طوعا ، وانقاد إليه سمحا .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [٣٢] وأحياها هنا استعارة . لأن إحياء[٢] النفس بعد موتها لا يفعله إلا الله تعالى . وإنما المراد : من استبقاها وقد استحقت القتل ، واستنقذها وقد أشرفت على الموت . فجعل سبحانه فاعِلَ ذلك بها كمُحْيِيها بَعْدَ موتها . إذ كان الاستنقاذُ من الموت كالإحياء بعد الموت .

وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [٤١] وهذه استعارة . لأن صفة الإيمان والكفر إنما يوصف بها الإنسان دون القلب . والمراد : أنهم آمنوا بالظواهر ، وكفروا بالبواطن .

قوله سبحانه[٣] : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [٤٨] . وهذه استعارة . وقد تقدم مثلها . . والمعنى : مصدقا بما سلف قبله من الكتاب الذى هو الإنجيل الصحيح . واستعير ذكر اليدين ههنا ، كما يقول القائل إذا سأله غيره عن راكب مرّ به : هو بين يديك . أى قد سار أمامك . ومهيمنا عليه : أى شاهدا عليه . فهذه أيضا استعارة أخرى . والمراد : أن ما فى هذا الكتاب من وضوح الدلالة يقوم مقام النطق بصحة الشهادة .

---

(١) هكذا بالأصل . « ولعلها كالمتقهقر » .

(٢) بالأصل « إحيا » بحذف همزة الممدود .

(٣) هكذا بالأصل بدون واو . والصواب « وقوله » بالواو عطفا على ما قبلها من الاستعارات .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [٤٨] . وهـذه استعارة . والمراد : ولا تطع أمرهم ، ولا تجب داعيهم ، فأقام سبحانه أهواءهم مقام الدعاة إلى الرّدى ، والهـداة إلى العمى .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ (١) [٤٨] . وهذه استعارة عجيبة : والمعنى : فبادروا فعل الخيرات إن كنتم على غير أمان من حضور الأجل ، وتضييق الأمل . وذلك شبيه لسباق الخيل ، لأن كل واحـد من فرسانها يشاحّ غيره على بلوغ الغاية المقصودة ، وينافسه فى الإسراع إلى البغية المطلوبة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [٥٤] . وهـذه استعارة . لأن الحبّ الذى هو ميل الطباع لا يجوز على القديم سبحانه . . . . . (٢)

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [٦٤] . وهـذه استعارة . ومعناها أن اليهود أخرجوا هذا القول مخرج الاستبخال لله سبحانه ، فـكذبهم تعالى بقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ وليس المراد بذكر اليدين ههنا الاثنتين اللتين هما أكثر من الواحدة ، وإنما المراد به المبالغة فى وصف النعمة . كما يقول القائل : ليس لى بهذا الأمر يدان ، وليس يريد به الجارحتين ، وإنما يريد المبالغة فى نفى القوة على ذلك الأمر . وربما قيل إن المراد بذلك نعمة الدنيا ونعمة الآخرة . والله أعلم أىّ ذلك أصوب . وقد أشبعنا الـكلام على هذا المعنى فى كتابنا الـكبير .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [٦٤] وهذه استعارة .

---

(١) فى الأصل « واستبقوا الخيرات » بالواو لا بالفاء وهو تحريف من الناسخ .

(٢) هنا سطران غير واضحين ، وثانيهما مطموس المعالم .

لأن الحرب لا نار لها على الحقيقة ، وإنما شُبهت بالنار لاحتدام قراعها ، وجِدّ مِصاعها ، وأنها تأكل أهلها ، كما تأكل النار حطبها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [٦٦] . فهذه استعارة . لأن التوراة لا يصح عليها القيام ، وإنما المراد لو أنهم اتبعوا حكمها . . . . .[١] وقوله تعالى : ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [٦٦] استعارة أخرى على أحد التأويلين ، وهو أن يكون المراد بهذا القول العبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش . كما يقول القائل : فلان مغمور فى النعيم والنعمة من قرنه إلى قدمه . والتأويل الآخر لأكلوا من فوقهم ، أى من ثمار الشجر التى تفوت بسطة اليد ، ومن تحت أرجلهم ، أى من نبات الأرض الذى يباشر موطىء القدم . وقيل المراد بذلك مايكون عن مساقط الغيث من إخصاب منابت الأرض .

فهذا كقوله تعالى ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَانَ ﴾ [٨٩] . على قراءة من قرأ عَقَدْتم ، وعقّدْتم بالتخفيف والتشديد ، دون من قرأ عاقدتم . فهذه استعارة . والمراد بها تأكيد الأيمان حتى تكون بمنزلة العقد المؤكد والحبل المحصد . أو يكون المراد أنكم عقدتموها على شىء خلافا لليمين اللغو التى ليست معقودة على شىء ، لأن الفقهاء يسمون اليمين التى على المستقبل يمينا معقودة ، فهى التى يتأتى فيها البر والحنث ، وتجب فيها الكفارة . واليمين على الماضى عندهم ضربان : لغو، وغموس . فاللغو كقول القائل :

---

(١) هنا ألفاظ مطموسة .

(٢) سورة الأعراف . الآية رقم ٩٦ .

والله مافعلتُ كذا . فى شىء يظن أنه لم يفعله ، ووالله لقد فعلت كذا . فى شىء يظن أنه قد فعله (١) .

. . . .

فهو اليمين على الماضى إذا وقعت كذبا . نحو قول القائل : والله مافعلت . وهو يعلم أنه قد فعل . ووالله لقد فعلت . وهو يعلم أنه لم يفعل . فهذه اليمين كفارتها التوبة والاستغفار لا غير .

وقوله تعالى : ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[٩٤] وهذه استعارة . لأن الفارس هو الذى ينال القنيص برمحه . ولكن الرمح لما كان مباشرا حَسُنَ لهذه الحال أن يسمى نائلا .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾[١٠٨] . وهذه استعارة . لأن الشهادة لا وجه لها . وإنما المراد أن يأتوا بالشهادة على جليتها وحقيقتها . وخبر تعالى عن ذلك بالوجه لأن به تعرف حقيقة الجملة ، ويُفهم كنه الصورة ، كما قلنا فيما تقدم . وهذه من الاستعارات البديعة .

وقوله تعالى حاكيًا عن المسيح عليه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ، وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾[١١٦] . وهذه استعارة . لأن القديم سبحانه لا نفس له . والمراد : تعلم ما عندى ولا أعلم ما عندك ، وتعلم حقيقتى ولا أعلم حقيقتك ، أو تعلم مغيبى ولا(٢) أعلم مغيبك . فكأن فحوى ذلك : تعلمُ ما أعلَمُ ، ولا أعلَمُ ما تعلَمُ . وقد استوفينا الكلام على ذلك فى (حقائق التأويل) .

---

(١) هنا سطر مطموس
(٢) فى الأصل « لا أعلم » بدون واو .

سورة الأنعـــام

قوله تعالى[1]: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [٤٥] وهذه استعارة . لأن الأصل فى هذه اللفظة : دابرة الفرس ، وجمعها دوابر ، وهى ما يلى حافره من خلفه . ودابرة الطائر : هى الشاخصة التى خلف رجله ، وتدعى الصِّيْصِيَة[2] أيضا . فالمراد بقوله سبحانه : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [٤٥] والله أعلم : أى قطعت عنهم الأمداد اللاحقة بهم من خلفهم ، والتالُون لهم فى غيهم وضلالهم . أو قطع خَلْفُهم ، من نَسْلهم ، فلم تثبت لهم ذرية ، ولم يبق لهم بقية .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ [٤٦] وهذه استعارة . والمراد بالأخذ ههنا إبطال حواسهم . و إذا بطلت فكأنها قد أُخذت منهم ، وغُيِّبت عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ ﴾ [٥٩] وهذه استعارة . والمراد : وعنده الوصلة إلى علم الغيب ، فإذا شاء فتحه لأنبيائه وملائكته[3] ، وإن شاء أغلق عنهم علمه . ومنعهم فهمه . وعبر تعالى عن ذلك بالمفاتح ، وهى أحسن عبارة ، وأوقع استعارة . لأن كل ما يتوصل به إلى فتح المبهم ، و بيان المستعجم سُمِّى بذلك . ألا ترى إلى قول الرجل لصاحبه إذا أشكل عليه أمر أو اختلّ له حفظ : افتح علىّ . أى : بيِّنْ لى وفهِّمنى ما عزب عنى .

---

(١) هنا ورقة ضائعة من الأصل من أول سورة الأنعام إلى الآية رقم ٤٥ .

(٢) الصيصية والصيصة : شوكة الحائك ، وشوكة الديك أو الطائر . والجمع صياصى .

(٣) فى الأصل « وملـٰيكته » وهى طريقة الناسخ فى الإملاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [٦٨] فهذه استعارة . والمراد بها إثارة أحاديث الآيات ليستشفُّوا بواطنها ، ويعلموا حقائقها ، كالخابط فى غمرة الماء ، لأنه يثير قعرها ، ويسبر غمرها . وقد مضى الكلام على نظير ذلك فى (النساء) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [٨٠] وهذه استعارة . لأن صفة الشىء بأنه يسع غيره . لا يطلق إلا على الأجسام التى فيها الضيق والاتساع ، والحدود والأقطار . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . فالمراد أن علمه سبحانه يحيط بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تدق عنه غامضة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِتُنْذِرَ[١] أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [٩٢] وهذه استعارة . والمراد بأم القرى مكة ، وإنما سماها سبحانه بذلك ، لأنها كالأصل للقرى ، فكل قرية فإنما هى طارئة عليها ، ومضافة إليها . وقد روى فى تقدم اختطاطها ما لا يحتمل كتابنا هذا ذكره .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ [٩٣] وهذه استعارة عجيبة . لأنه سبحانه شبه الذين يعتورهم كُرَب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه . وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان ، آخذة[٢] بكظمه ، وخاتمة[٢] على متنفسه . والأصل فى جميع ذلك غمرة الماء .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ ﴾ [٩٤] على قراءة من قرأ برفع النون من بينكم . وهذه استعارة . لأنه لافصائل[٣] هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطُّع ، وإنما المراد :

---

(١) بالأصل « لتنذر » بغير واو . والصواب ما أثبتناه من نص الآية الكريمة .

(٢) فى الأصل « آخذه » و « خاتمه » بدون نقط على التاء المربوطة ولعلها : «وجاثمة»

(٣) فى الأصل « لا فضايل » بالضاد المعجمة . وليس المقام مقام فضائل ورذائل وإنما هو مقام فصائل ووصائل .

لقد زال ما كان بينكم من شبكة المودة وعلاقة الألفة ، التى تشبَّه لاستحكامها بالحبال المحصدة ، والقرائن المؤكدة .

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ، وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [٩٥] فهذه استعارة على بعض الأقوال ، وهو أن يكون معناها أنه سبحانه يشق الحبة الميتة ، والنواة اليابسة ، فيخرج منها وَرَقًا خَضِرًا[١] ، ونباتا ناضرا ، ويخرج الحبَّ اليابس الذاوى[٢] من النبت الحى النامى . وقال بعضهم : يُخرج الإنسان الحى من النطفة وهى موات ، ويُخرج النطفة الموات من الإنسان الحى . والله أعلم بالصواب .

وقوله سبحانه : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ[٣] ٱللَّيْلِ سَكَنًا ﴾ [٩٦] وهذه استعارة . والمعنى : شاقُّ الصبح ومستخرجه من غسق الليل . وقوله سبحانه : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ أبلغ من قوله شاقّ الإصباح ، إذ كانت قوة الانفلاق أشد من قوة الانشقاق . ألا تراهم يقولون : انشقَّ الظفر ، وانفلق الحَجَر ؟ وقوله تعالى ﴿ وَجَاعِلُ ٱللَّيْلِ سَكَنًا ﴾ استعارة أخرى . ومعناها على أحد القولين أنه سبحانه جعل الليل بمنزلة الشىء المحبوب الذى تسكن إليه النفوس وتحبُّه[٤] القلوب . يقال : فلان سكنُ فلانٍ . على هذا المعنى . والتأويل الآخر يخرج الكلام عن معنى الاستعارة . وهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل الليل مظنة لانقطاع الأعمال ، والسكون بعد الحركات .

---

(١) الورق الخضر هو الأخضر . ووزنها مثل فرح .

(٢) فى الأصل الداوى بالدال المهملة . والصواب إعجامها .

(٣) هكذا بالأصل على قراءة رويس عن يعقوب . وهى قراءة أهل المدينة . أما قراءتنا نحن « وجعل الليل سكنا » فهى قراءة الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائى .

(٤) فى الأصل « وتحبقه » . والقاف زيادة من الناسخ حرف بها الكلم عن موضعه ...

وقوله سبحانه : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [١٠٠] فى قراءة من قرأ : وخرَقوا بالتخفيف ، وفى قراءة من قرأ خرَّقوا بالتثقيل . فهذه استعارة . والمراد أنهم دَعَوْا له سبحانه بنين وبناتٍ بغير علم ، وذلك مأخوذ من « الخرق » وهى الأرض الواسعة ، وجمعها خروق ، لأن الريح تتخرق فيها ، أى تتسع . والخِرْقُ من الرجال : الكثير العطاء ، فكأنه يتخرق . والخرقة : جماعة الجراد مثل الحرقة ، والخريق : الريح الشديد الهبوب . فكأن معنى قوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ ﴾ أى اتَّسَعُوا فى دعوى البنين والبنات له ، وهم كاذبون فى ذلك . ومن قرأ : وخرَّقوا[1] فإنما أراد تكثير الفعل من هذا الجنس . والاختراق ، والاختلاق ، والاختراع ، والانتسال بمعنى واحد ، وهو الادعاء للشيء على طريق الكذب والزور .

وقوله سبحانه : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [١١٢] وهذه استعارة . لأن الزخرف فى لغة العرب : الزينة . ومن ذلك قولهم : دار مزخرفة أى مزيَّنة . فكأنه تعالى قال : يزينون لهم القول ليغتروا به ، وينخدعوا بظاهره ، كما يستغرُّ بظاهر جميل ، على باطن مدخول .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [١١٠] وهذه استعارة . لأن تقليب القلوب والأبصار على الحقيقة وإزالتها عن مواضعها ، وإقلاقها عن مناصبها لا يصح والبنيةُ صحيحة والجملة حيَّة متصرفة . وإنما المراد — والله أعلم — أنا نرميها بالحيرة والمخافة ، جزاء على الكفر والضلالة . فتكون الأفئدة مسترجعة لتعاظم أسباب المخاوف ، وتكون الأبصار منزعجة لتوقع طلوع المكاره . وقد

---

(١) وقرىء : « وحرفوا » بالحاء المهملة والفاء ، أى زوروا . انظر « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » طبع دار الكتب العربية الكبرى ، جـ ٢ ص ٢٠١ .

قيل إن[١] المراد بذلك تقليبها على قراميص[٢] الجمر فى نار جهنم ، وذلك يخرج الكلام عن حيز الاستعارة إلى حيز الحقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ [١١٣] . وهذه استعارة . والمعنى : ولتميل إليه أفئدة هؤلاء المذكورين . ويقال : صغى فلان إلى فلان . أى مال إليه . وصغوه معه : أى ميله . ومنه أصغى بسمعه إلى الكلام . إذا أماله إلى جهته ، ليقرب من استماعه . وميلُ القلب إلى المعتقدات ، كميل السمع إلى المسموعات .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [١٢٧] . وهى استعارة . والمراد : لهم محل الأمنة والسلامة والمنجاة من المخافة . وتلك صفة الجنة . والسلام ههنا : جمع سلامة[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [١٣٠] وهذه استعارة . لأنهمْ لما اغتروا بالحياة الدنيا حسُن أن يقال إنها غرتهم . ولما كان فيها ما تميل إليه شهواتهم جاز أن يقال : إنها استمالت شهواتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [١٥٣] وهى استعارة . والسبل التى هى الطرق لا تتفرق بهم ، وإنما هم الذين يفارقون نهجها[٤] ، ويتبعون عوجها .

---

(١) كتب الناسخ « أن » بوضع همزة فوقها فتحة ، وعجيب أن يكون ذلك بعد مادة القول .

(٢) القراميص : جمع قرماص وهو فى الأصل الحفرة الواسعة الجوف الضيقة الرأس يستدفىء فيها الصرد ، أو هى موضع خبز الملة .

(٣) ويصح أن يكون السلام اسما من اسم الله تعالى . فتكون دار السلام دار الله . كما يقال للكعبة بيت الله .

(٤) فى الأصل « بهجتها » وهو تحريف من الناسخ . ولعل الصواب نهجها ، أو محجتها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [١٦٤] فهذه استعارة . والمعنى : ولا تحمل حاملة حمل أخرى . يريد تعالى فى يوم القيامة . أى لا يخفف أحد عن أحد ثقلا ، ولا يشاطره حملا . لأن كل إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه ، ومقروح[١] بحمله . وليس أن هناك على الحقيقة أحمالا على الظهور ، وإنما هى أثقال الآثام والذنوب .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾[٢] .

---

(١) هكذا بالأصل ، ولعلها « مفدوح » لأن الحمل الفادح هو الذى يثقل صاحبه فيعيا به فهو مفدوح . يقال : فدحه الأمر .

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٤٨ ، والآية رقم ١٢٣ وهما من المتشابه .

ومن السورة التى يذكر فيها « الأعراف »

قوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [٧]. فهذه استعارة . لأن الخسران فى التعارف إنما هو النقص فى أثمان المبيعات . وذلك يخص الأموال لا النفوس . إلا أنه سبحانه لما جاء بذكر الموازين وثقلها وخفتها جاء بذكر الخسران بعدها، ليكون الكلام متفقا ، وقصص الحال متطابقا . فكأنه سبحانه جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة ، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم ، كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم .

وذكر خسرانهم لها لأنهم عرّضوها للخسار ، وأوجبوا لها عذاب النار . فصارت فى حكم العروض المتلفات ، وتجاوزوا حد الخسران فى الأثمان ، إلى حد الخسران فى الأعيان .

وقوله سبحانه حاكيا عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [١٦] وهذه استعارة . والصراط ههنا كناية عن الدين ، جعله الله سبحانه طريقا للنجاة والمفاز(١) ، فى دارى القرار والمجاز ، وإنما قال صراطك . لما كان الدين كالطريق المؤدية إلى رضا الله سبحانه ومثوبته(٢) . الموصلة إلى نعيمه وجنته . فكان إبليس — لعنه الله — إنما يوعِد بالقعود على طريق الدين ليضل عنه كل قاصد ، ويردّ عنه كل

(١) فى الأصل « والمقار » بالراء المهملة . وهو تحريف من الناسخ .

(٢) فى الأصل « ومصوبته » ولا معنى لها هنا لأن المصوبة معناها المصيبة وضعف العقل ! وليس هذا جزاء رضا الله سبحانه وتعالى .

وارد ، بمكره وخدائعه ، وتلبيسه[١] ووساوسه . تشبيها بالقاعد على مدرجة بعض السبل ، ليخوف[٢] السالكين منها ، ويعدل بالقاصدين عنها . والمراد : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم ، فلما حذف الجارّ انتصب الصراط .

والحذف ههنا أبلغ فى الفصاحة ، وأعرقُ فى أصول العربية . ونظيره قول الشاعر[٣] :

* كما عَسَل الطريقَ الثعلبُ *

أى عَسَل فى الطريق .

وكل ما فى القرآن من ذكر سبيل الله سبحانه ، فالمراد به الطريق المفضية إلى طاعته عاجلا ، وإلى جنته آجلا .

وقوله سبحانه : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [٢٢] . وهذه استعارة . والمراد أنه أوقعهما فى أهوائه بغروره لهما . وكل واقع فى مثل ذلك فإنه نازل من علو إلى استفال ، ومن كرامة إلى إذلال . فلذلك قال تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير ، عند القول فيما اختلف العلماء فيه من ذنوب الأنبياء عليهم السلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا

---

(١) فى الأصل « وتلبيته » ولا معنى لها . والصواب ما أثبتناه ، لأن تلبيس إبليس هو ما يدلس به على الناس ليضلهم عن سبيل الله .

(٢) فى الأصل « لتخوف » وهو تحريف ، لأن القاعد هو الذى يخوف السالكين .

(٣) هو الشاعر ساعدة بن جؤية يصف رمحا . والبيت كاملا هو :

لدن بهز الكف يعسل متنه   فيه ، كما عسل الطريق الثعلب

انظر ابن هشام فى «أوضح المسالك» ج ٢ ص ١٦

وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [٢٦] وقد قرئ : ورياشا [١] . وهما جميعا استعارة ههنا [٢] . لأن المراد بهما اللباس. وسمى اللباس ريشا ورياشا تشبيها بريش الطائر الذى يستر جُملته . ومن كلام العرب : أعطيته رجلا بريشه . أى بكسوته .

وقال المفسرون : معنى لباس التقوى ما كان من الملابس يستر العورة ، لأن ستر العورة من أسباب التقوى . وقرئ : ولباسَ التَّقْوَى . نَصْباً بأنزلنا عليكم . والرفع فيه على معنى الابتداء . ويكون خيرٌ خبرا له . فيكون المعنى : ولباسُ التقوى المشار إليه خير . وهذا أسدُّ القولين فى هذا المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [٢٩] وهذه استعارة . لأن الوجه لايصح عليه القيام . والمعنى : فوجِّهوا وجوهكم عند كل مسجد . ويجوز أن يكون معنى ذلك : فتوجَّهُوا بجملتكم نحو كل مسجد . لأن وجه الشىء عبارة عن جملته .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ﴾ [٤٠] وهذه استعارة . والمراد لايَصِلون إلى الجنة ولا يتسهل لهم السبيلُ إليها ، ولا يستحقون بأعمالهم للدخول إليها . ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ [٣] أى سهّلنا خروجه من السماء إلى الأرض ، ورفعنا الحواجز بينه وبين الخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [٤١] وهذه استعارة. وقد مضى فى (آل عمران) إلا [٤] أن الزيادة ههنا قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾

---

(١) قرأ ذلك الحسن وعاصم من رواية المفضل الضبى، كما قرأه أبو عمرو من رواية الحسين بن على الجعفى

(٢) الاستعارة فى قوله تعالى « قد أنزلنا عليكم لباسا » لاتتضح إلا إذا كان اللباس هو المطر الذى به ينبت القطن والكتان . أى أنزلنا عليكم مطرا ينتج القطن والنبات الذى تتخذون منه ملابسكم — انظر القرطبى ج ٧ ص ١٨٤

(٣) سورة القمر . الآية رقم ١١

(٤) فى الأصل « لأن الزيادة » وهو تحريف من الناسخ وصوابه « إلا أن .. » كما أثبتناه .

فكأنه جعـل لهم من النار أمهدة مفترشة (١) وأغشية مشتملة ، فيكون استظلالهم بحرها ، كاستقرارهم على جمرها . نعوذ بالله من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ [٤٣] . وهذه استعارة . لأنه ليس هناك شيء يتأتى (٢) نزعه على الحقيقة . والمعنى : أزلنا ما فى صدورهم من الغل بإنسائهم إياه ، و بإحداث (٣) أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم ، وتشفع مواقعه من صدورهم . وقال بعض المفسرين : معنى ذلك : أهل الجنة لا يحسد بعضهم بعضا على علو المنزلة فيها ، والبلوغ إلى مشارف رتبها . والحسد : الغل .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٤٣] وهـذه استعارة خفية . وقد تكون استعارة خفية ، واستعارة جلية . وذلك أن حقيقة الميراث فى الشرع هو ما انتقل إلى الإنسان من مِلْك الغير بعد موته على جهة الاستحقاق . فأما صفة الله تعالى بأنه الوارث لخلقه كقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٤) وكقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٥) فهو مجاز . والمراد : أنه الباقى بعد فناء خلقه ، وتقوّض سمائه وأرضه .

وقد استعمل ذلك أيضا فى نزول قوم ديارَ قوم بعدَهم ، وأخذِ قوم أموالَ قومٍ بعد إجلائهم وحربهم (٦) . فقال سبحانه فى هذه السورة : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [١٣٧] . وقال تعالى فى

---

(١) فى الأصل « مفوتنه » وهو تحريف
(٢) فى الأصل « يثانى » وهو تحريف.
(٣) فى الأصل « وبأحداب » وهو تحريف.
(٤) سورة القصص . الآية رقم ٥٨
(٥) سورة آل عمران . الآية رقم ١٨٠ وسورة الحديد . الآية رقم ١٠
(٦) فى الأصل « وحرمهم » وهو تحريف صوابه ما أثبتناه، مما يجزم به السياق .

موضع آخر : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا ﴾ (١) وليس يصح فى إيراث الجنة مثل هذه المعانى التى ذكرناها ، لأن الجنة لا يسكنها قوم بعد قوم قد فارقوها وانتقلوا عنها . فقوله سبحانه : ﴿ أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ على الأصل الذى قدّمناه استعارة . ويكون المعنى الذى يسوغ هذه الاستعارة أن هؤلاء المؤمنين لما عملوا فى الدار الدنيا أعمالا استحقوا عليها الجزاء والثواب ، ولم يصحّ أن يوفر عليهم ذلك إلا فى الجنة ، وهى من الدار الآخرة ، فكأنهم استحقوا دخولها . فحسُن من هذا الوجه أن يوصَفوا بأنهم أُورِثوها ، وإن لم يكن سكناهم لها بعد سكنى قوم آخرين انتقلوا عنها . وسوّغ ذلك أيضاً اختلافُ حال الدارين ، وانتقالهم من الأولى إلى الآخرة . فكأنّ ماعملوه فى الدار الأولى كان سببا لما وصلوا إليه فى الدار الآخرة ، كما يُستحقُّ الميراث بالسبب .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [٤٥] وهذه استعارة ، فإن (٢) سبيل الله سبحانه : دينه . ومعنى ويبغونها عِوجا أى يبتغون عنها المتحاول ، ويطلبون منها الفُسَحَ والمخارج ، ويوهمون بالشبهات أنها معوجة غير قويمة ، ومضطربة غير مستقيمة .

وقوله تعالى : ﴿ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [٥٣] وقد مضى نظير ذلك فى أول السورة .

وقوله سبحانه : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ ﴾ [٥٤] (٣) .

---

(١) سورة الأحزاب . الآية رقم ٢٧ .
(٢) فى الأصل « بأن » وهو تحريف .
(٣) هنا قطعة ناقصة من الأصل تبلغ قدر ست ورقات من الآية رقم ٥٣ من الأعراف إلى الآية رقم ٦٤ من سورة التوبة .

سورة التوبة

. . . .(١)

على الحقيقة هى التقارب بالحدود مثل المسامتة ، وهى المماثلة فى السمت الذى هو الجهة ، وذلك من صفات الأجسام ، وذوات الحدود والأقطار . فالمراد إذن بالمحادَّة ههنا كونُ الإنسان فى غير الحد الذى فيه أولياء الله سبحانه . فكأنهم فى حد ، وأولياء الله سبحانه فى حد . وكذلك الكلام فى مشاقة الله تعالى على أحد التأويلين ، وهو أن يكون الإنسان فى شق أعداء الله وحَربه ، لا فى شق أوليائه وحِزْبه .

وحقيقة الكلام أن يكون المراد به محادَّة أولياء الله على الصفة التى ذكرناها فقال تعالى : ﴿ يُحَادِدِ ٱللَّهَ ﴾ كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٢) أى يؤذون أولياء الله ورسوله ، لأن الأذى لا يجوز على من لا تلحقه المنافع والمضار، والمساءات والمسارُّ .

وقوله سبحانه : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[٦٤] وهـذه استعارة . لأن السورة نطقها من جهة البرهان لا من جهة اللسان . فكأنه سبحانه أراد أنَّ الناس يَعلَمون بهذه السورة النازلة فى المنافقين بواطن نفوسهم ، وعقائد قلوبهم .

. . . . . .

---

(١) هنـا بداية القسم الموجود من سورة التوبة ، أما ما قبل ذلك فمفقود مع آخر قسم من سورة الأعراف.

(٢) سورة الأحزاب ، الآية رقم ٥٧ .

[وقوله سبحانه[١]] : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ [٨٧] . [الخوالف النساء[٢]] المقيمات فى دار الحى بعد رحيل الرجال . وإنما سمى النساء خوالف تشبيها لهن بالخوالف ، التى واحدتهن خالفة ، وهى الأعمدة تكون فى أواخر بيوت الحى المضروبة . فشبّهَهُنّ ـ لكثرة لزوم البيوت ـ بالخوالف التى تكون فى البيوت .

وقد قيل إن الخوالف أيضا زوايا البيوت ، واحدتها خالفة . والمعنى واحد . وقد يجوز أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ حقيقة الخوالف التى هى أعمدة البيوت . أى رضوا بأن يكونوا فى بيوتهم ، فيكونوا ـ بالملازمة لها ـ كخوالفها وأعمدتها .

وقد يجوز أيضا أن يكون الخوالف ههنا جمعَ فرقة خالفة . وهى الجماعة التى تقعد عن الغزو ، كالشيوخ ، والنساء ، وذوى العاهات ، والولدان . ومما يقوى ذلك قوله تعالى أمام هذا الكلام : ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ﴾ [٨٣] .

وكنت سمعتُ شيخنا أبا الفتح عثمان بن جنى[٣] النحوى ـ رحمه الله ـ يقول ذلك ، ويذهب إلى مثله أيضا فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾[٤] . ويقول : هى جمع فرقة كافرة . إلا أن الكلام يكون على القول الأول استعارة . ويكون على هذا القول حقيقة .

---

(١) هذه زيادة ليست بالأصل يقتضيها السياق

(٢) هذا السطر ممحو ، وقد استظهرناه من السياق الذى يفسر الخوالف بالنساء المقيمات فى دار الحى .

(٣) أبو الفتح عثمان بن جنى إمام من أئمة النحو . وقد اشتهر بشرحه لديوان المتنبى ، وبكتابه « الخصائص » فى اللغة وهو مشهور . وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى ، وقد كان ابن جنى أستاذا للشريف الرضى ، ونقل هذا عنه كثيرا فى كتابه « المجازات النبوية » . توفى سنة ٣٩٢ هـ .

(٤) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [٩٨] . وهذه استعارة . . . . (١) عليهم أيام السوء ، لأن الأيام والشهور قد تسمى دوائر ، على طريق الاستعارة . فليس لأنها ترجع بأعيانها ، وإنما تعود أشباهها وأمثالها ، فشهر كشهر ، ويوم كيوم ، وساعة كساعة ، وسنة كسنة . يقال دارت السنون ، ودارت الشهور على هذا المعنى . إلا أن هذه اللفظة ، أعنى الدائرة والدوائر ، قد اختص ذكرها بالمواضع المكروهة . فيقال : دارت عليهم الدوائر ، إذا أهلكتهم الأيام ، وأفنتهم الأعوام . ويقال : دارت لهم الدنيا . إذا وصفوا بمواتاة الإقبال ، وانتظام الأحوال . فكأنّ التمييز فى الخير أو الشر إنما يقع بقولنا : دارت لهم ، ودارت عليهم .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [١٠٩] وهذه استعارة . والمراد بها ذكر ما بناه المنافقون من مسجد الضرار (٢) ، بعد ما بنى المؤمنون من المسجد المعروف بمسجد قباء (٣) . لأن المؤمنين وضعوا هذا البناء ، وهم مؤمنون متقون ، عارفون موقنون ، فكأنهم وضعوه على قواعد من الإيمان ، وأساس من الرضوان . والمنافقون إنما وضعوا ذلك البناء كيدا للمؤمنين ، وإرصادا للمسلمين . فكأنهم وضعوه على شفا

---

(١) هنا سطران ممحوان محوا تاما .

(٢) مسجد الضرار ، هو المسجد الذى بناه المنافقون بقباء لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم ، وقد سألوا النبي عند رجوعه من تبوك أن يأتى مسجدهم هذا ليصلى فيه ، فأنزل الله فيه قوله تعالى : « الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا » . وقد أمر النبي عليه السلام بهدم هذا المسجد الظالم أهله ، فحرق وهدم واتخذ موضعه مكانا للقمامة .

(٣) مسجد قباء هو المسجد الذى أسسه النبي على التقوى من أول يوم نزل فيه قباء ، وهى بلدة على بعد ميلين من جنوب المدينة .

جُرُفٍ هارٍ متقوض ، وأساس واهٍ منتقض ، فكأنما انْهارَ بِهِمْ في نار جهنم ، أى أسقطهم ذلك الفعل فى عذاب النار ، ودائم العقاب . وهذه من أحسن الاستعارات .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [١١٠] فهذه استعارة . ومعناها أن ذكر البنيان الذى بَنَوْه لا يزال ريبة فى قلوبهم ، يخافون معها إنزال الله بهم ضروب العقاب ، أو بَسْطَ المؤمنين عليهم لما ظاهروهم من العناد والشقاق . فهم أبدا بنفوسهم مستريبون ، وعليها خائفون مشفقون . فلا يزالون على ذلك إلا أن تقطع قلوبهم حسرة ، وتزهق نفوسهم خيفة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [١١١] وهذه استعارة . وذلك أنه سبحانه لما أمرهم ببذل نفوسهم وأموالهم فى الجهاد عن دينه ، والمنافحة عن رسوله عليه السلام ، وضمِن لهم على ذلك الخلودَ فى النعيم ، والأمانَ من الجحيم ، كانت نفوسهم وأموالهم بمنزلة العُروض المبيعة ، وكانت الأعواض المضمونة عنها بمنزلة الأثمان المنقودة ، وكانت الصفقة رابحة لزيادة الأثمان على السلع ، وإضعاف الأعواض على القيم .

وجملة هذا الباب أن العبادات كلَّها كالتجارات ، فى أنها طَلَبٌ للمنافع . فالعبادات(١) طلبٌ لمنافع الآخرة ، والتجارات طلبٌ لمنافع الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [١١٧] وهذه استعارة . لأن حقيقة الزَّيْغِ الاعوجاج والميل . والمراد : من بعد ما كادت قلوبُهم تزول من عظم الخيفة ،

---

(١) فى الأصل « بالعبادات » وهو تحريف من الناسخ

وتقنط من نزُول الرحمة ، فتكون بذلك كالشيء الزائغ بعد الاستقامة ، والمستمال بعد الثبات والرصانة .

ومن الدليل على ذلك قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ [١١٨] فهذه أيضا استعارة . لأن النفس بالحقيقة لاتوصف بالضِّيق والاتساع ، وإنما المراد بذلك المرادُ بالقول الأول من أنه عبارة عن انضغاط القلوب بشدة الكرب ، وبلوغها منقطع الصبر .

وقوله : سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [١٢٠] وهذه استعارة . والمراد بها أنهم لاينبغى لهم أن يُكرموا أنفسهم عما يبذل النبى صلى الله عليه وسلم فيه نفسه ، ولا يحفظوا مُهجهم فى المواطن التى تحضر فيها مهجته ، اقتداء به ، واتباعا لأثره . وهذه لفظة يستعملها أهل اللسان كثيرا ، فيقولون : رغبتُ بنفسى عن الضيم ، وأرغب بك يافلانُ عن القتل ، أى أضنُّ بنفسى عن أن تذل ، وأنفس بمثلك عن أن يُقتل .

فالظاهر يدل على أنهم رضوا بنفوسهم عن نفس النبى صلى الله عليه وسلم . والمراد : وما كان لهم أن يرغبوا بالنفوس . عن . . . . (١) التى ينزلها نفسه ويعرض فيها مهجته .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [١٢٤] ، [١٢٥] وهذه

---

(١) بياض بالأصل . ويصح أن توضع هنا كلمة المواطن ، أو المواضع ، أو المنازل ، أو ماإليها من هذا الباب .

استعارة ظاهرة . وذلك أن السُّورة لاتزيد الأرجاس[1] رجسا ، ولا القلوب مرضا، بل هى شفاء للصدور ، وجلاء للقلوب . ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عَمًى وعَمَها وازدادت قلوبهم ارتيابا ومرضا ، حَسُنَ أن يُضاف ذلك إلى السورة ، على طريق لأهل اللسان معروفة .

وقد استقصينا الكلام على ذلك فى عدة مواضع من كتابنا الكبير . فمن أراد بلوغ أقاصى هذه الطريقة ، والضرب فى أقطارها والتفسح فى أعطانها ، فليتتبع مواضعها من ذلك الكتاب بمشيئة الله .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ ﴾ [١٢٨] وهذه استعارة. والمراد بأنفسكم ههنا ــ والله أعلم ــ أى من جنس أنفسكم وخَلْقِكم ، لتكونوا إليه أسكن ، وإلى القبول منه أقرب . ويجوز أن يكون من أنفسكم أى من قبيلكم وعشيرتكم ، كما يقول القائل : فلان من أنفس بنى فلان . أى من صميم أنسابهم ، وليس من وسائطهم وملاصقهم .

وقد يجوز أن يكون المراد برسول من أنفسكم ، أى من أشقائكم وأعزائكم ، كما يقول القائل لِذِى ودِّه والقريب من قلبه : أنت من نفسى ، وأنت من قلبى . أى أنت شقيق النفس ، وقسيم القلب .

ومما يقوِّى ذلك قولُه سبحانه : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [١٢٨] أى بحبه لكم ، وميله إليكم ، يعزُّ عليه أن تعنتوا وتعاندوا فتحرموا الثواب ، وتستحقوا[2] العقاب ، فهو حريص على إيمانكم رأفةً بكم وإشفاقا عليكم .

---

(١) فى الأصل « لاتزيد الأرجاس إلا رجسا » وإلا زائدة من الناسخ بها ينقلب المعنى إلى الضد . والصواب حذفها كما أثبتناه .

(٢) فى الأصل « ويستحقوا » بضمير الغائبين والصواب « وتستحقوا » بضمير المخاطبين كما أثبتناه

ومن السورة التي يذكر فيها

« يونس » عليه السلام

قوله سبحانه ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [٢] وهذه استعارة . لأن المراد بالقَدَم ههنا : السابقة فى الإيمان ، والتقدمُ فى الإخلاص . والعبارةُ عن ذلك بلفظ القَدَم غايةٌ فى البلاغة ، لأن بالقَدَم يكون السبق والتقدم . فسُمّيت قَدَما لذلك . وإن كان التأخر أيضا يكون بها[١] ، كما يكون التقدم بخطوها ، فإنما سميت بأشرف حالاتها وأنبه متصرفاتها . وقال بعضهم : إيمانهم فى الدنيا هو قدَمُهم فى الآخرة . لأن معنى القدم فى العربية : الشىء تقدمه أمامك ليكون عُدَّةً لك ، حتى تَقْدَم عليه .

وقال بعضهم : ذِكْر القدم ههنا على طريق التمثيل والتشبيه ، كما تقول العرب : قد وضع فلان رِجْله فى الباطل ، وتخطى[٢] إلى غير الواجب . ومعناه أنه انتقل إلى فعل ذلك ، كما ينتقل الماشى ، وإن لم يحرك قدمه ، ولم ينقل خطاه .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [٣] وهذه استعارة . لأن حقيقة الاستواء إنما يوصف بها الأجسام التى تعلو البساط وتميل وتعتدل . والمراد بالاستواء ههنا :

---

(١) فى الأصل « بهما » بضمير المثنى . وهو تحريف من الناسخ . والصواب « بها » بضمير المفردة العائد على القدم .

(٢) فى الأصل هكذا « وتخطا » بدون إعجام وبرسم الفعل بألف بدل الياء .

الاستيلاء بالقدرة والسلطان ، لا بحلول القرار والمكان . كما يقال :

استوى(١) فلانٌ الملكُ على سرير ملكه . بمعنى استولى على تدبير المُلك ، وملك مقعد الأمر والنهى . وحسُن صفته بذلك وإن لم يكن له فى الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عالٍ يشار إليه . وإنما المراد نفاذ أمره فى مملكته ، واستيلاء سلطانه على رعيته .

فإن قيل : فالله سبحانه مستولٍ على كل شىء بقهره وغلبته ، ونفاذ أمره وقدرته ، فما معنى اختصاص العرش بالذكر ههنا ؟ قيل ـ كما ثبت ـ أنه تعالى رب لكل شىء . وقد قال فى صفة نفسه ، ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢) فإن قيل : فما معنى قولنا عرش الله ، إن لم يرد بذلك كونه عليه ؟ قيل كما يقال : بيت الله وإن لم يكن فيه ، والعرش فى السماء تطوف به الملائكة تعبدا ، كما أن البيت فى الأرض تطوف به الخلائق تعبدا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ(٣) فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [١٠] وهذه استعارة على بعض الأقوال . كأنَّ المعنى أن بشراهم بالسلامة من المخاوف عند دخول الجنة تجعل مكان التحية لهم . لأن لكل داخلٍ دارا تحية يُلقى بها ، ويؤنس بسماعها . والسلام ههنا من السلامة ، لا من التسليم .

---

(١) ومنه قول الراجز :

قد استوى بشر على العراق　　　من غير سيف ودم مهراق

انظر «القرطبي» جـ ٧ ص ٢٢٠ .

(٢) سورة التوبة . الآية رقم ١٢٩ ، والنمل الآية رقم ٢٦ ، والمؤمنون . الآية ٨٦ ، ونصها هنا «قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم » .

(٣) فى الأصل « تحيتهم » بغير واو . والصواب « وتحيتهم » بالواو عطفا على ماقبلها ، وهو قوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ ، وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ﴾ [٢٤] . وهـذه استعارة حسنة ، لأن الزخرف فى كلامهم اسم للزّينة واختلاف الألوان المونقة .

وقوله سبحانه : ﴿ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾ [٢٤] . أى لبست زينتها بألوان الأزهار ، وأصابيغ[1] الرياض ، كما يقال : أخذت المرأة قناعها . إذا لبسته . وتقول لها : خذى عليك ثوبك . أى البسيه .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ ﴾[2] أى البسوا ثيابكم .

وقوله سبحانه : ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا ﴾ [٢٤] . استعارة أخرى ، لأن الحصيد من صفة النبات ، لا من صفة الأرض . والمعنى : فجعلنا نباتها كذلك . فا كتفى بذكر الأرض من ذكر النبات لأن النبات فيها ، ومَنْشَؤُهُ منها .

وقوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا ﴾ [٢٧] . على قراءة من قرأ بتحريك الطاء . وهـذه استعارة . لأن الليل على الحقيقة لا يوصف بأن له قطعا متفرقة ، وأجزاء متنصفة . وإنما المراد ــ والله أعلم ــ أن الليل لو كان مما يتبعض وينفصل لأشبه سواد وجوههم أبعاضه وقطعه . ونَصَب سبحانه (مظلما) على أنه حال من الليل . وفيه زيادة معنى . لأن الليل قد سمى ليلا وإن كان مقمرا ، فإنما قال سبحانه : مظلماً ، على أن التشبيه إنما وقع به أسودَ مايكون جلبابا ، وأَبْهَمَ أثوابا .

وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [٦٧]

---

(١) فى الأصل « وأصابيع » بالعين المهملة . ولعلها كما أثبتناه بالغين المعجمة ، جمعا لأصباغ مثل أزهار وأزاهير . فتكون جمع الجمع لصبغ .

(٢) سورة الأعراف . الآية رقم ٣١ .

وهذه استعارة عجيبة . وقد أومأنا إلى نظيرها فيما تقدم . وذلك أنه سبحانه ـ إنما سمّى النهار مبصرا ، لأن الناس يُبصرون فيه ، فكأنّ ذلك صفة الشىء بما هو سبب له ، على طريق المبالغة . كما قالوا : ليل أعمَى ، وليلةٌ عمياء . إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها .

وقوله : ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [٧١] . على قراءة من قرا : ﴿ فاجْمَعُوا ﴾ (١) . من الجَمْع ، لا على قراءة من قرأ : ﴿ فَأَجْمِعُوا ﴾ من الإجماع . وهذه استعارة . والمعنى : اشتوروا فى أمركم ، وأجمعُوا له بالكُمْ ، و بالغوا فى قَدْح الرأى بينكم ، حتى لا يكون أمركم غمةً عليكم (٢) . أى مغطى تغطية حيرة ، ومُبْهَمًا إبهام جهالة ، فيكونَ عليكم كالغمة العمياء ، والطخية الظلماء . وذلك مأخوذ من قولهم : غُمَّ الهلال . إذا تغطى ببعض الموانع التى تمنع من رؤيته . ثم افعلوا بى ما أنتم فاعلون .

وهذه حكاية لقول نوح عليه السلام لقومه . ويخرُج الكلام منه على الاستقلال لكيدهم ، وقلة الحفل باستجماعهم واحتشادهم .

وقوله سبحانه . ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [٨٨] . وهذه استعارة . لأن حقيقة الطمس مَحْو الأثر . من قوْلهم : طَمَسْتُ الكِتَابَ . إذا محوت سطوره . وطمست الريح ربع الحىّ . إذا محت رسومه . فكأنّ موسى عليه السلام إنما دعا الله سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسخ لها ، حتى لا يعرفوها ، ولا يهتدوا إليها ، وتكونَ منقلبة عن حال الانتفاع بها ، لأن الطمس تغيُّر حال الشىء إلى الدثور والدروس .

---

(١) هى قراءة عاصم الجحدرى ، بوصل الألف وفتح الميم . من جمع يجمع
(٢) ومنه قول الشاعر الجاهلى طرفة :

لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ، ولا ليلى على بسرمد

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [٨٨] استعارة أخرى . إما أن يكون المراد بها مايراد بالختم والطبع . لأن معنى الشد يرجع إلى ذلك . أو يكون المراد به تثقيل العقاب على القلوب ، بالإيلام لها ، ومضاعفة الغم والكرب عليها . و يكون ذلك على معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ »[1] أى غلِّظ عليهم عقابك ، وضاعف عليهم عذابك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٠٥] وهذه استعارة . وقد أومأنا إلى مثلها فيما تقدم . والمراد بها : استقم على دينك ، واثبت على طريقك . وخص الوجه بالذكر ، لأن به يُعرف توجه الجملة نحو الجهة المقصودة وقد يجوز أن يكون المراد بذلك — والله أعلم — أقم وجهك أى قوِّمْه نحو القبلة التى هى الكعبة . مستمرا على لزومها ، وغير منحرف عن جهتها .

(١) هذا الحديث فى مسند ابن حنبل ج ١٢ س ٢٥٠ بتحقيق المحدث الجليل الصديق الشيخ أحمد محمد شاكر . وقد ذكر الشيخ أن إسناده صحيح . وقد رواه ابن سعد فى الطبقات ، ورواه مسلم والبخارى فى صحيحيهما . ونص الحديث فى المسند : (لما رفع النبى صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الأخيرة من صلاة الصبح قال : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) .

ومن السورة التى يذكر فيها

« هود » عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [١] وهذه استعارة . لأن آيات القرآن لما ورد فى بعضها ذكر الحلال والحرام ، واستمرت على ذلك بين وعد مقدم، ووعيد مؤخر ، ونذارة مبتدأ بها ، وبشارة معقب بذكرها شبه القرآن ـ لذلك ـ بالنظائم المفصلة ، التى توافق فيها بين الأشكال تارة ، وتؤلف بين الأضداد تارة ليكون ذلك أحسن فى التنضيد ، وأبلغ فى الترصيف . وهذه من بدائع الاستعارات

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [٥] وهذه استعارة . لأن حقيقة الشىء لا تتأتى فى الصدور . والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنهم يثنون صدورهم على عداوة الله ورسوله ، صلى الله عليه وآله . وذلك كما يقول القائل : هذا الأمر فى طىّ ضميرى . أى قد اشتمل عليه قلبى . فيكون قوله تعالى : ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ بمنزلة قوله يطوون صدورهم. ولفظ يثنون أعذب استماعا وأحسنُ مجازا .

وقيل أيضا : بل معنى ذلك أن المنافقين كانوا إذا اجتمعوا تخافتوا بينهم فى الكلام ، وحنَوا ظهورهم تطامنا عند الحوار ، خوفا منَ رمْق العيون ، ومراجم الظنون ، لوقوع مايتفاوضونه فى أسماع المسلمين . فإذا انحنت ظهورهم ، انثنت صدورهم . فأعلمنا الله سبحانه أنهم وإن أغلقوا أبوابهم ، وأسدلوا ستورهم ، واستغشَوْا ثيابهم ـ بمعنى اشتملوا بها ، وبمعنى أدخلوا رءوسهم فيها على ماقاله بعضهم ـ فأنه تعالى يعلم غيب صدورهم ، ودخائل

قلوبهم، ومَرَامِز أعينهم، ومحاذف (١) ألسنتهم .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا (٢) الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [٩] وهذه استعارة لأن إذاقة الرحمة ونَزْعها ليسا بحقيقة ههنا . وإنما المراد بذلك أنا إذا رحمنا الإنسان بعد توبته من مواقعة [في] (٣) بعض الذنوب فقبلنا متابه ، وأسقطنا عقابه ، ثم وَاقعَ بعد ذلك ذنبا آخر، واستحق أن نعاقبه وأن نُزيل رحمتنا عنه، يئس من الرحمة وقنط من المغفرة . وليس الأمر كذلك ، لأنه إذا عَاوَد الإقلاع ، أَمِنَ الإيقاع .

وقد أخرج هذا الكلام مُخْرَج الذم لمن يواقع المعصية ، فيقنط من قبول التوبة . فمعنى أذقنا الإنسان منا رحمة . أى عرّفناه أنا قد رحمناه . إذ قد أَوْجَبْنا قبول التوبة إذا أخلص العبد فيها ، وأتى بها على شروطها وحدودها .

ومعنى ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أى أزلنا عنه رحمتنا لأجل اقترافه المعصية التى اقترفها فى الثانى (٤) . وقد يجوز أن يكون المراد بالرحمة ههنا ـ والله أعلم ـ النعمة والسرّاء . ويكون انتزاعها منه بمعنى إبداله بها الشدة والضرّاء ، إجرَاء له فى مضمار الابتلاء والاختبار ، أو مصلحة يكون معها أقرب إلى الإصلاح (٥) والرشاد . ومما يقوّى ذلك قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [١٠]

---

(١) هكذا بالأصل . ولعلها مرامى الألسنة بالكلام كما يحذف بالحجر أى يرمى به

(٢) فى الأصل « وإذا أذقنا » وهو تحريف من الناسخ الذى كثر تحريفه حتى فى النص القرآنى . والصواب « ولئن أذقنا » .

(٣) هذه اللفظة بالأصل : ولعلها زائدة لأن المعنى يستقيم بدونها ،ولهذا وضعناها بين حاصرتين .

(٤) هكذا بالأصل ، ولم نهتد إلى تصويب لها .

(٥) فى المتن: الإصلاح ، وقد غيرت فى الهامش إلى « الصلاح » بدلا منها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾[٢٨] الآية . وهذه استعارة . لأن الرحمة لا توصف بالعَمَى وإنما يوصَفُ الناس بالعَمَى عن تمييز مواقعها ، وإدراك مواضعها . فلما وُصِفوا بالعَمَى عنها حَسُنَ أن يوصَف بذلك فى القلب[١] . كما يقال : أدخلت الخاتم فى أصبعى ، والمِغفرَ فى رأسى . وإنما الأصبع دخلت فى الخاتم ، والرأس دَخَل فى المغفر . وقد يجوز أن يكون قوله سبحانه : ﴿ فَعُمِّيَتْ[٢] عَلَيْكُمْ ﴾ . بمعنى خَفِيَتْ عليكم ، كما يقول القائل : قد عَمِىَ علىَّ خبرهم . وعَمِىَ علىَّ أثرهم . أى خفِىَ عنى الأثر والخبر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ[٣] تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾[٣١] . وهذه استعارة . كما يقول القائل : اقتحمت فلانا[٤] عينى ، واحتقره طرفى . إذا قبح فى منظر عينه خلقةً ، وصغر دمامةً . ليس أن العين على الحقيقة يكون منها الاحتقار ، أو يجوز عليها الاستصغار .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾[٣٤] وذكر الإغواء ههنا من قبيل الاستعارة وإن لم يكن من صريحها . وكذلك لفظ المكر ، والاستهزاء ، وما يجرى هذا المجرى . لأن المراد بمعانى هذه الألفاظ غير المراد بظواهرها . فالمتعارف من الإغواء هو الدعاء إلى الغى والضلال . وذلك غير جائز على الله سبحانه ، لقبحه وورود أمره بضده . والمراد إذن بالإغواء ههنا تخييبه سبحانه

---

(١) ليس القلب هنا بمعنى الجارحة التى فى الجسم ، ولكنه القلب اللفظى والمعنوى ، كما تقول : أدخلت الخاتم فى الأصبع بدلا من أدخلت الأصبع فى الخاتم .

(٢) فعميت بالتشديد هى قراءة الأعمش وحمزة والكسائى .

(٣) فى الأصل «الذى» بصيغة المفرد ، وهو تحريف من الناسخ . والصواب «للذين» بصيغة الجمع .

(٤) فى الأصل : فلان وهو تحريف من الناسخ

لهم من رحمته ، لكفرهم وذهابهم عن أمره . ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى: [١] ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَاةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ . أى خيبة من الرحمة ، وارتكاسا فى النقمة . وقد جاء لفظ الإغواء والمراد به التخييب فى كثير من منثور كلامهم ، ومنظوم أشعارهم .

ويجوز أن يكون الإغواء ههنا بمعنى الإهلاك لهم . ويجوز أن يكون بمعنى الحكم بالغواية عليهم.

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [٣٧] . وهذه استعارة . ومعناها : واصنع الفلك بأمرنا ، ونحن نرعاك ونحفظك . ليس أنَّ هناك عينا تلحظ ، ولا لسانا يلفظ . وذلك كما يقول القائل : أنا بعين الله . أى بمكان من حفظ الله . ومن كلامهم للظَّاعن المشيَّع والحميم المودَّع : صحبتك عين الله . أى رعاية الله وحفظه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ ٱلْمَاءُ ، وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [٤٤] . الآية . وهذه استعارة . لأن الأرض والسماء لا يصح أن تؤمرا وتخاطبا . لأن الأمر والخطاب لا يكونان إلا لمن يعقل ، ولا يتوجهان إلا لمن يعى ويفهم . فالمراد إذن بذلك : الإخبار عن عظيم قدرة الله سبحانه ، وسرعة مضى أمره ، ونفاذ تدبيره . نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٢] . وهذا إخبار عن وقوع أوامره من غير معاناة ولا كلفة، ولا لغوب ولا مشقة .

---

(١) سورة مريم الآية رقم ٥٩ .

(٢) سورة النحل . آية رقم ٤٠ .

وفى هذا الكلام أيضا فائدة أخرى لطيفة . وهو أن قوله سبحانه : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ . أبلغ من قوله : يأرض اذهبى بمائك . لأن فى الابتلاع دليلا[1] على إذهاب الماء بسرعة . ألا ترى أن قولك لغيرك : ابلَعْ هذا الطعام ، أبلغُ من قولك له : كل هذا الطعام ، إذا أردت منه إيصاله إلى جوفه بسرعة ؟ وكذلك الكلام فى قوله سبحانه : ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ . لأن لفظ الإقلاع ههنا أبلغ من لفظ الانجلاء . لأن فى الإقلاع أيضا معنى الإسراع بإزالة السحاب ، كما قلنا فى الابتلاع . وذلك أدلُّ على نفاذ القدرة ، وطواعية الأمور ، من غير وقفة ولا لبثة ، هذا إلى ما فى المزاوجة بين اللفظين من البلاغة العجيبة ، والفصاحة الشريفة . إذ يقول سبحانه : يأرض ابلعى ، ويا سماء أقلعى : ومثل هذا فى القرآن أكثر من أن يشار إليه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [٥٨] . وهذه استعارة . لأن العذاب فى الحقيقة لا يوصف بالغلظ والدقة ، لأنه الألم الذى يلحق الحى فى قلبه أو جسمه . وإنما وَصَفَه تعالى بالغِلَظِ على طريقة كلام العرب ، لأنهم يصفون الأمر الهين بالضئولة والدقة ، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدة ، حَمْلا لذلك على عرفهم فى المراعاة للشىء الغليظ الكثيف ، وقلةِ الحفل بالشىء الدقيق الضئيل . ألا ترى إلى قولهم : عِرْضُ فلان دقيق ، وقدره ضئيل ؟ وإلى قولهم فى مقابلة ذلك : لقى فلان فلانا بكلام غليظ ، وقولٍ ثقيل .

وقد يجوز أيضا — والله أعلم — أن يكون المراد بعذاب غليظ ههنا الصفة لعذاب الآخرة . والعذابُ إنما يقع بالآلات المستعظمة والأعيان[2] المستفظعة ، مثل مقامع الحديد ، والحجارة

---

(١) فى الأصل « دليل » بالرفع وهو تحريف من الناسخ ، لأنه اسم أن مؤخرا فهو واجب النصب .

(٢) فى الأصل « كالأعيان » . ولا محل للتشبيه هنا بعد أن مثل بمقامع الحديد والحجارة المحماة بعد ذلك .

المحمّاة بالجحيم . فوصف سبحانه العذاب الغليظ ، لأنه واقع بالأشياء الغليظة ، والآلات الثقيلة ، فيكون ذلك مجازا من هذا الوجه .

ومما يقوّى أن المراد بقوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ عذابُ الآخرة ، قولهُ تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾(١) وهذه النجاة من عذاب الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فدلّ على أن النجاة من العذاب الأول غير النجاة من العذاب الآخر . وأن الأول عذاب الدنيا ، والثانى عذاب الآخرة ، لأن العطف بالواو يقضى بذلك ، وإلاّ كان وَجْهُ الكلام : فلما جاء أمرنا نجّينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا من عذاب غليظ ، ولم يكن لقوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ ثانيا معنى .

وقوله سبحانه حاكيا عن لوط عليه السلام : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [٨٠] وهذه استعارة والمراد بها : لو كنت آوِى إلى كثرة من قومى ، وَعَددٍ من أهلى . وجعَلهم ركنا له ، لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه ومنعته ، كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، والنضد الأمين(٢) .

وجاء جواب لو ههنا محذوفا . والمعنى ، لو أننى على هذه الصفة لحلت بينكم وبين ماهممتم به من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء . والحذف ههنا أبلغ ، لأنه يوهم المتوعَّد بعظيم الجزاء ، وبغليظ النكال ، ويصرف وهمه الى ضروب العقاب ، ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات .

---

(١) سورة هود . الآية رقم ٥٨ .

(٢) النضد من الجبل: ماتراكم منه . والجمع أنضاد .

وليس مخرج هذا الكلام من لوط عليه السلام، على ما ظنّه مَنْ لا معرفة له، وقدح فيه بأن قال : ألم يكن يأوى إلى الله سبحانه ؟ فما معنى هذا القول الذى قاله ؟ وذلك أن لوطا على ماذكرنا إنما أراد الأعوان من قومه، والأركان المستند إليهم من قبيلته، وهو يعلم أن له من معونة الله سبحانه أشد الأركان، وأعز الأعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة فى التكليف حضور الناصر، وقُرْبَ المُعاضد والمرافد .

وقوله سبحانه فى صفة الحجارة المرسلة على قوم لوط : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٣] وهذه استعارة . لأن حقيقة التسويم هى العلامات التى يعلَّم بها الفرسان والأفراس فى الحرب، للتمييز بين الشعارات، والتفريق بين الجماعات .

قال الله سبحانه : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١) وقرئ (٢) ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو . وقال الله سبحانه : ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾ (٣) والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حربا لهم وأعوانا عليهم وصفها بوصف رجال (٤) الحرب وخيولهم، فكأنها مرسلة من عند الله، أى من عند ملائكة الله الذين تولّوا الرمى بها، إرسال الخيول المسوّمة على أعدائها، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة .

وقد قال بعضهم : إن تلك الحجارة كانت على الحقيقة معلّمة بعلامات تدل على أنها أعدت للعذاب، وأفردت للعقاب . وذلك أملأُ للقلوب، وأعظم فى الصدور .

---

(١) فى الأصل « يمددكم بخمسة آلاف .. » بدون ذكر لفظة ربكم وقد أغفلها الناسخ غفر الله له جريا على عادته من الإغفال والإهمال . وهذه هى الآية رقم ١٢٥ من سورة آل عمران .

(٢) مسومين بالفتح هى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائى ونافع أما مسومين بكسر الواو فهى قراءة أبى عمرو وابن كثير وعاصم .

(٣) سورة آل عمران . الآية رقم ١٤ .

(٤) فى الأصل « الرجال الحرب » وهو تحريف من الناسخ .

وقوله سبحانه : ﴿ (١) وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾[٨٤].

وهذه استعارة من وجهين: أحدهما وَصْف اليوم بالإحاطة ، وليس بجسم فيصح وصفه بذلك . والوجه الآخر : أن لفظ محيط ههنا كان يجب أن يكون من نَعْتِ العذاب ، فيكون منصوبا . فَجَعَلَهُ — سبحانه — من نعت اليوم فجاء مجرورا ، فأما وصف اليوم بالإحاطة — وإن لم يتأتَّ فيه ذلك — فالمراد به — واللهُ أعلمُ — أنَّ العذاب لما كان يعمُّ المستحقين له فى يوم القيامة حَسُنَ وصف ذلك اليوم بأنه محيطٌ بهم أى أنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب . وأما نَقْلُ نَعْتِ العذاب إلى نَعْتِ اليوم ، فالوجهُ فيه أن العذاب لما كان واقعا فى ذلك اليوم كان ذلك اليوم كالمحيط به ، لأنه ظرف لِحُلُوله ، ووقتٌ لنزوله .

وقوله سبحانه : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٨٦] وهذه استعارة . لأن حقيقة البقية تركة (٢) شىء من شىء قد مضى ، ولا يجوز إطلاقه على الله سبحانه. فإذَنْ يجب أن يكون المراد غير هذه الحقيقة . وقد قيل فى معنى ذلك وجوه : أحدها بقية الله من نعمته خير لكم . وقد قيل : بقيةُ الله طاعةُ الله ، وذلك لأنها تُبقى رضاه وثوابه أبدًا ما بقيتْ . وقيل بقيةُ الله أى عَفْوُ الله عنكم ورحمته بكم (٣) بعد استحقاقكم العذاب ، كما يقول العرب المتحاربون بعضُهم لبعض ، إذا استحرَّ فيهم القتل ، وأعضلهم الخطب : البقية ! البقيةَ ! أى نسألكم البقية علينا والمكافأة لنا . والبقية ههنا والإبقاء بمعنى واحد .

---

(١) فى الأصل « إنى أخاف عليكم » بدون واو وهى ناقصة من الناسخ .
(٢) فى الأصل « تركه » بالهاء لا بالتاء المربوطة .
(٣) فى الأصل « ورحمته لكم » .

وقوله سبحانه : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ[1] نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [٨٧] وهذه استعارة . لأن الصلاة لا يصح منها الأمر على الحقيقة ، وإنما أطلق عليها ذلك ، لأنها بمنزلة الآمر بالخير ، والناهى عن الشر .

وقيل : المراد بذلك : أدينك يأمرك بهذا ؟ أى فى شريعتك ودينك الأمر بهذا ؟ فإذا كان ذلك فى عقد الدين حَسُنَ أن يضاف الأمر به إلى الدين :

وفى هذا الكلام أيضا مجاز آخر . وهو أنه تعالى قال : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [٨٧] وليس يصح على ظاهر الكلام أنْ يُؤمَر شعيب بأن يترك قومه شيئا هم عليه ، وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ أصلاتك تأمرك أنْ تأمرنا بترك مايعبُدُ آباؤنا ؟ فاكتفى بذكر الأمر الأول عن ذكر الأمر الثانى ، لأنه كالمعلوم من فحوى الكلام . وهذا من غوامض أسرار القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [٩٢] . فهذه استعارة . لأن الله سبحانه لا يجوز عليه أن يُجعل ظهريا على الحقيقة . فالمراد أنكم جعلتم أمْر الله سبحانه وراء ظهوركم . وهذا معروف فى لسان العرب أن يقول الرجل منهم لمن أغفلَ قضاء حاجته ، أو ثنى عطفا على عذله وعتابه : جعلتَ حاجتى وراء ظهرك ، وتركت مقالى دَبْرَ أذنك . أى لم تعن بحاجتى ، ولم تصغ إلى معاتبتى .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [٩٤] . وهذه استعارة ، لأن حقيقة الأخذ إنما يوصف بها الأجسام . والصيحة عَرَض من الأعراض ، لأنها بعض الأصوات ، إلا أنها أقوى للأسماع صكا وقرعا ،

---

(١) فى الأصل « وأن نفعل ... » وهو تحريف من الناسخ .

وأبلغُ فى القلوب وَجَلا ورَوْعا . والمراد أن هلاكهم لما كان عن الصيحة حسُنَ أن يقال: إنها أخذتهم بمعنى ذهبت بنفوسهم ، وأتت على جمعهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ، وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ لَعْنَةً ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [٩٨ ـ ٩٩] فقوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ و ﴿ وَبِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ استعارتان . لأنه تعالى جَعَلَ فرعون فى تقدمه قومه إلى النار بمنزلة القارط [١] المتقدم للوارد إلى الورد ، كما كان فى الدنيا متقدمهم إلى الضلالة ، وقائدَهم إلى الغواية ، وَجَعَلَ النار بمنزلة الماء الذى يورَدُ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ لأنه وِرْدٌ لا يُجيز [٢] ، الغصة ، ولا ينقع الغلة .

وقد اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ . وهل ذلك ذم لنار جهنم على الحقيقة أو المجاز ، فقال أبو على [٣] محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائى : ذلك على طريق المجاز ، والمعنى بِئْسَ وارد النار . وقال أبو القاسم البلخى [٤] : بل ذلك على طريق الحقيقة .

فأما قوله سبحانه : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [٩٩] فإنما قلنا إنه استعارة ، لأن حقيقة الرِّفد العطية . يقال رَفَدَه يرْفِدُه رَفْدا ورِفْدًا بفتح الراء وكسرها . ولكن اللعنة لما جُعلتْ بدلا من الرفد لهم عند انتقالهم من

(١) القارط : اسم فاعل من قرط بمعنى سبق وتقدم ، انظر القاموس المحيط .

(٢) هكذا بالأصل

(٣) أبو على محمد الجبائى كان رأسا من رءوس المعتزلة وشيخ علماء الكلام فى عصره . وتنسب إليه طائفة « الجبائية » والجبائى نسبة إلى « جى » من قرى البصرة . توفى سنة ٣٠٣ هـ . وذكر ابن حوقل فى « المسالك والممالك » أن جى مدينة ورستاق عريض مشتبك العمائر بالنخل وقصب السكر وغيرهما ، ومنها أبو على الجبائى الشيخ الجليل إمام المعتزلة ورئيس المتكلمين فى عصره .

(٤) أبو القاسم البلخى هو عبدالله بن أحمد الكعبى ، كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية . والكعبى نسبة إلى بنى كعب ، والبلخى نسبة إلى بلخ إحدى مدن خراسان . توفى سنة ٣١٧ هـ .

دار إلى دار ، على عادة المنتجع المسترفد أو الرجل المتزود ، جاز أن يسمى رِفدا ، على طريق المجاز ، كما قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) والبشارة فى الأعم الأغلب إنما تكون بالخير لا بالشر . ولكن لما جَعَل إخْبارهم باستحقاق العذاب فى موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب جاز أن يسمى فى ذلك بشارة .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[١٠٠] . وهذه استعارة . والمعنى : منها قائم البناء ، خالٍ من الأهل ، ومنها منقوض الأبنية ، ملحقٌ بالأرض ، تشبيها بالزرع المحصود . إلى هذا المعنى يومىء قوله تعالى : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(٢) . وقوله سبحانه : ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾(٣) .والعروش الأبنية . أى خالية من أهلها ، على مافيها من بواقى أبنيتها .

وقد يجوز أن يكون ذلك كنايةً عن أهل القرى ، فكأنه سبحانه شبّه الأحياء الباقين بالزرع النامى ، وشبّه الأموات الهالكين بالزرع الذاوى . وذلك أحسن تمثيل ، وأوقع تشبيه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [١١٩] . وهذه استعارة . والمراد ههنا بتمام كلمة الله سبحانه صِدْقُ وعيده الذى تقدّم الخبر به ، وتمام وقوع مُخْبَرِه مطابقا لخبَرِه

---

(١) سورة آل عمران . الآية رقم ٢١ .

(٢) سورة الحج . الآية رقم ٤٥ .

(٣) سورة البقرة . الآية رقم ٢٥٩ .

ومن السورة التي يذكر فيها

« يوسف عليه السلام »

قوله : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [٤]. وهذه استعارة ، لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل ، فكان الوجه أن يقال . ساجدة . ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل ، جاز أن توصف(١) بصفة من يعقل ، لأن السجود من فعل العقلاء . وهذا كقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ (٢) فلما كانت النمل في هذا القول مأمورة أمر مَنْ يعقل جرَى الخطابُ عليها جرْيهُ على من يَعْقل . مِثْلُ ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ (٣) لأنها لما شهدت عليهم شهادة العقلاء المخاطبين أُجْرُوا – كما في هذا الخطاب – مُجْرى العقلاء المخاطبين . ومن الشاهد على ذلك قول عبدة بن الطبيب .

إذْ أشْرَفَ الدِّيكُ يَدْعُو بَعْضَ أُسْرَته لَدَى الصَّبَاحِ وَهُمْ قومٌ مَعَازِيلُ(٤)

---

(١) في الأصل « يوصف » وهو تحريف من الناسخ .

(٢) سورة النمل الآية رقم ١٨ وتكملة الآية (لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) .

(٣) سورة فصلت · الآية رقم ٢١ .

(٤) هذا البيت من قصائد « المفضليات » للضبي . والقصيدة كلها كاملة في ديوان المفضليات بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – ص ١٣٣ – ١٤٣ جـ ١ . وترجمة عبدة بن الطبيب في اللآلى ، والأغاني ، والإصابة ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وهو صاحب البيت المشهور في الرثاء :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فلما جعله بمنزلة الداعى جعل الديكة بمنزلة القوم المدعوِّين ، وجعلهم أسرة له ، وأسرة الرجل قومُهُ ورهطه . والمعازيل الذين لاسلاح معهم . فكأنه جعله مستنصرا مَنْ لا نُصرة له ولا غَناء عنده . وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1] على أحد القولين . فكأنه سبحانه ردَّ خاضعين إلى أصحاب الأعناق لا إلى الأعناق ، لأن الخضوع منهم يكون على الحقيقة .

وقد يجوز أيضا أن يكون قوله فى ذكر الكواكب والشمس والقمر : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ إنما حَسُن على تأويل تلك الرؤيا . وتأويلُها يتناوَلُ من يَعقل مِنْ إخوة يوسف وأبويه . فجرَى الوصف على تأويل الرؤيا ، ومصيرِ العُقبَى . وهذا موضع حسن ، ولم يمض لى كمن[2] تقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [١٨] وهذه استعارة . لأن الدم لايوصَف بالكذب على الحقيقة . والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ بدم مكذوبٍ فيه ، والتقدير بدم ذى كَذِب . وإنما يوصَف الدم بالمصدر الذى هو (كَذِبٌ) على طريق المبالغة . لأن الدعوى التى[3] علقت بذلك الدم كانت غايةً فى الكذب .

وقال بعضهم : قد يجوز أيضا أن يكون « كذب » ههنا صفةً لقول محذوف يدلُّ عليه الحال . فكأنَّ التقدير : وجاءوا على قميصه بدم ، وجاءوا بقولٍ كَذِبٍ ، إذ كانت إشارتهم إلى آثار الدم فى القميص قد صحبها قول منهم يؤكد تلك الحال ، وهو قولهم : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [١٧] . والقول الأول

---

(١) سورة الشعراء . الآية رقم ٤ .
(٢) هكذا بالأصل . وصوابه كما تقدم .
(٣) فى الأصل « الذى » وهو خطأ ، فالدعوى مؤنثة لامذكرة . وهو تحريف من الناسخ .

أصوب . ومن غرائب التفسير ما رُوى عن أبى عمرو بن [١] العَلاء أنه قال : سمعت بعض الرواة يقول : بدم كدب بالإضافة من الدال [٢] . وقال : هو الجدْىُ فى كلام الكنعانيين ، وأنشد لبعضهم :

ظلَّت دماء بنى عوف كأنهم   عند الهياج رعاة بين أكْدابِ

وقيل : إنهم لطخوا قميص يوسف عليه السلام بدم ظبى ذبحوه .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [١٨] وهذه استعارة . وحقيقة التسويل تزيين الإنسان لغيره أمرا غير جميل . جعل سبحانه أنفسهم لمّا قوِى فيها الإقدام على ذلك الأمر المذموم بمنزلة الغير الذى يحسّن لهم فعل القبيح ، ويحملهم على ركوب العظيم .

وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [٣٠] وهذه استعارة . والمراد بها أن حبه تغلغل إليها ، حتى أصاب شغافها ، وهو غشاء قلبها . كما تقول : بطنْتُ الرَّجُل . إذا أصبت بطنه . ويقال : معنى شَغَفَهَا أى سَلَب شغاف قلبها ، على طريق المبالغة فى وصف حبها له ، كما تقول: سلبت الرَّجُل إذا أخذت سَلَبَهُ .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [٤٤] وهذه أبلغ استعارة وأحسن عبارة لأن أحَدَ الأضغاث : ضِغْثٌ . وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضُه إلى بعض ، كالحزمة وما يجرى مجراها ، فشبه سبحانه اختلاط الأحلام ، وما مر به الإنسان من المحبوب والمكروه ، والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخياف [٣] عدة ، وأصناف كثيرة .

(١) أبو عمرو بن العلاء . واسمه زبان بن عمار كان إماما فى اللغة والأدب وكان أعلم الناس بالأدب والقرآن والشعر وأعراب الجاهلية . توفى سنة ١٥٤ بالكوفة . وله ترجمة موجزة فى « المزهر » للسيوطى . وانظر « الأعلام » للزركلى .

(٢) وقرأ الحسن وعائشة « بدم كدب » بالوصف لا بالإضافة ، وبالدال المهملة أى بدم طرى . يقال للدم الطرى : الكدب .

(٣) الأخياف : جمع خيف وهو كل هبوط وارتقاء فى سفح الجبل ، أو ما ارتفع عن مسيل الماء .

وقوله سبحانه ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾[٤٨] . وهذه استعارة . والمراد بالسَّبع الشداد : السِّنون المجدبة . ومعنى ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ، أى ينفد فيهن ماادخرتموه لهن من السنين المخصبة .

وجرى على ذلك عادة العرب فى قولهم: أكلتْ آل فلان السَّنة. يريدون مسَّهم الضر فى عام الجدب ، وزمان الأزل[١] . حتى كأنهم ليسمون السنة المجدبة : الضَّبُع . فيقولون : أكلتهم الضَّبُع . أى نهكتهم سنة الجدب .

وقال بعضهم : إنما نسب تعالى الأكل إليهن لأن الناس يأكلون فيهن ماادخروه ، ويستنفدون ماأعدوه . كما يقال : يوم آمن . وليل خائف . أى يأمن الناس فى هـذا ، ويخافون فى هذا .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾[٢] [٥٢] . [وهذه استعارة . لأنه تعالى أقام كيد الخائنين][٣] مقام الخابط فى طريق ، ليصل إلى مضرة المكيدة وهو غافل عنه . فأعلمنا سبحانه أنه لا يهديه ، بمعنى لا يوفقه لإصابة الغرض ، ولا يسدده لبلوغ المقصد ، بل يدعه يخبط فى ضلاله ، ويتسكع فى متاهه ، لأنه كالسَّارى فى غير طاعة الله ، فلا يستحق أن يُهدى لرشد ، ولا يتسدد لقصد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [٥٣] . وهـذه استعارة . لأن النفس لا يصحُّ أن تأمر على الحقيقة .

---

(١) الأزل : الضيق والشدة والداهية .

(٢) أصل الآية كاملة : (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) .

(٣) كرر الناسخ هذه العبارة المحصورة بين حاصرتين مرة أخرى فى أثناء النسخ .

ولكن الإنسان لما كان يتبع دواعيها إلى الشهوات ، وينقاد بأزمتها إلى المقبّحات ، كانت بمنزلة الآمر المطاع ، وكان الإنسان بمنزلة السامع المطيع . وإنما قال سبحانه : ﴿ لَأَمَّارَةٌ ﴾ . ولم يقل لآمرةٌ ، مبالغة فى صفتها بكثرة الدفع فى المهاوى ، والقوْد إلى المغاوى . لأن « فعّالا »(١) من أمثلة الكثير ، كما أن « فاعلا » من أمثلة القليل .

وقوله سبحانه : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ [٧٦] . وهذه استعارة . لأنه ليس هناك على الحقيقة بناء يوطد ، ولا درجات تشيد . وإنما المراد به تعلية(٢) معالم الذكر فى الدنيا ، ورفع منازل الثواب فى الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [٨٢] . وهذه استعارة من مشاهير الاستعارات . والمراد : واسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأصحابَ العير التى أقبلنا فيها . ومما يكشف عن ذلك قوله تعالى فى السورة التى يذكر فيها الأنبياء عليهم السلام : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾(٣) . والقرية هى الأبنية المفروشة ، والخطط المسكونة لا يصح منها عمل الخبائث ، فعُلم أن المراد بذلك أهلها . ومن الشاهد على ذلك أيضا . قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٤) . وقال بعضهم : إن القرية هى الجماعة المجتمعة ، لا الأبنية المشيدة . وذلك مأخوذ من قولهم : قَرَى الماء فى الحوض . إذا جمعه . والعير : هى الإبل وفيها أصحابها . وإنما أنث سبحانه ضمير القرية

(١) فعال : أى الصيغة التى على وزن فعال . وهذه تدل على الكثرة والمبالغة فالرجل القتال هو الكثير القتل .

(٢) فى الأصل (لعليه) بدون إعجام الحروف .

(٣) سورة الأنبياء . الآية رقم ٧٤ .

(٤) سورة الأنبياء . الآية رقم ٧٧ .

بقوله : ﴿ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ على اللفظ كما يقول القائل : قامت تلك الطائفة ، وتفرقت تلك الجماعة ، على اللفظ . ويحسُن منه أن يقول عقيب هـذا الـكلام : وأكلوا ، وشربوا ، وركبوا ، وذهبوا ، حَملا على المعنى دون اللفظ . كما قال تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ ٱلْخَبَائِثَ ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ على المعنى .

وكذلك القول فى العِير ، فإنما أنّث ضميرها على اللفظ ، لأن العِير مؤنثة .

قال تعالى فى هذه السورة : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ [٩٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [٨٧] وهـذه استعارة . والمراد ولا تيئسوا من فَرَج الله . والرَّوحُ هو تنسيم الريح ، التى يلذُّ شميمها ، ويطيب نسيمها . فشبه تعالى الفرج الذى يأتى بعد الـكربة ، ويطرق بعد اللزبة[1] بنسيم الريح الذى ترتاح القلوب له ، وتثلج الصدور به . ومثلُ ذلك ماجاء فى الخبر : (الريح من نَفَس الله)[2] أى من تنفيسه عن خلقه . يريد سبحانه أن القلوب تستروح إليها ، كما يستروح المكروب إلى نفسه ، وذو الخناق إلى تنفسه .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [١٠٧] . وهـذه استعارة . والمراد بذلك المبالغة فى صفة العذاب بالعموم لهم ، والإطباق عليهم ، كالغاشية التى تشتمل على الشىء ، فتجلله من جميع جنباته ، وتستره عن العيون من كل جهاته .

---

(١) اللزبة : الشدة والقحط . يقال سنة لزبة أى شديدة .

(٢) وفى « نهاية الأرب » ج ١ ص ٩٥ روى عن رسول الله أنه قال (الريح من روح الله تعالى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب ، فلا تسبوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها) أخرجه البيهق فى سننه .

ومن السورة التي يذكر فيها

«الرعد»

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٥]. وجديدٌ ههنا استعارة. لأن أصله ههنا مأخوذ من الجدّ، وهو القطع. يقال: قد جَدّ الثوب، فهو جديد بمعنى مجدود. إذا قطع من منسجه، أو قطع لاستعمال لابسه. والمراد — والله أعلم — إنا لفي خلق جديد، أي قد فُرغ من استئنافه، وأعيد إلى موضع ثوابه وعقابه، فصار كالثوب الذي قطع[1] منسجه بعد الفراغ من عمله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ[2] بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [٦]. وهذه استعارة والمراد بها مُضِيُّ المثلات — وهي العقوبات — للأمم السالفة قبلهم، وتقدُّمُها أمامهم. وقولهم: خَلَت الدار. أي مضى سكانها عنها. وخَلَوْا هم. أي مَضَوا عن الدار وتركوها. وقولهم: القرون الخالية. أي الماضية.

والعقوباتُ على الحقيقة لم تمض[3]، وإنما مضى المعاقَبون بها. فكأنهم ذُكِّرُوا بالعقوبات الواقعة قبلهم ليعتبروا بها.

---

(١) هكذا بالأصل ولعلها: قطع من منسجه.

(٢) بالأصل: «يستعجلونك» بدون واو. وقد تركها الناسخ جريا على عادته..

(٣) في الأصل: لم يمض وهو تحريف من الناسخ. والعقوبات هي المثلات التي قال الله فيها إنها قد خلت من قبلهم.

وقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [٨] . وهذه استعارة عجيبة . لأن حقيقة الغيض إنما يوصَف بها الماء دون غيره . يقال : غاضَ الماء وغِضْتُه(١) ولكن النطفة لما كانت تسمّى ماء ، جاز أن توصف الأرحام بأنها تَغيضُها فى قرارتها ، وتشتمل على نُفاعاتها(٢) . فيكون ما غاضته(٣) من ذلك الماء سببا لزيادة ، بأن يصير مضغة ، ثم عَلَقة ثم خلقةً مصوَّرة . فذلك معنى قوله : ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ . وقيل أيضا : معنى ﴿ مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ . أى ماتنقُصُ بإسقاط العَلق ، وإخراج الخلق . ومعنى : ﴿ مَا تَزْدَادُ ﴾ أى ماتلِدُهُ لتمام ، وتؤدى خَلْقه على كمال . فيكون الغيض ههنا عبارةً عن النقصان ، والازديادُ عبارةً عن التمام .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَٱلْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [١٣] . وهذه استعارة . لأن التسبيح فى الأصل تنزيه الله سبحانه عن شبهِ المخلوقات ، وتبرئته من مدانس الأعمال ، وقبائح الأفعال . وهذا لا يتأتى من الرعد ، الذى هو اصكاك أجرام السحاب بعضها ببعض . فالمراد — والله أعلم — أن أصوات الرعود تَقْوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله سبحانه ، وبعده عن شُبَهِ الخليقة المقدَّرة ، وصفات البريّة المدبَّرة . إذ كان الرعد كما قلنا إنما تغلُظ أصواته ، وتعظم هزّاته على حسب تعاظم صفحات السحاب الممتدة ، وتراكم الغيوم المطبقة . وهى مع هذه الأحوال ، من ثقل أجرامها ، وتكاثف غمامها معلقة بمناطات الهواء الرقيق ، لولا دعائم القدرة وسماكها ، وعلائق الجبْرية ومساكها لما حمل عشر معشارها ، ولا استقل ببعض أجزائها .

---

(١) غاض الماء : نقص . وغضته أنا أى نقصته .

(٢) النفاعات : جمع نفاعة وهو الشىء الذى ينتفع به .

(٣) فى الأصل ماغضته . وهو تحريف من الناسخ .

ومن عجيب أحواله أنه أيضا مع ماذ كرنا من تثاقل أردافه ، وتعاظُل[١] التفافه ينفش[٢] انفشاش الهباء المتداعى ، والغُثَاء المتلاشى . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

ومعنى تسبيح الرعد بحمده سبحانه : دلالتهُ على أفعاله التى يستحق بها الحمد ، كما يقول القائل : هذه الدار تنطق بفناء أهلها . أى تدل على ذلك بخلاء ربوعها ، وتهدُّم عروشها .

وقد يجوز أن يكون معنى : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ أن الرعد يضطر الناسَ إلى تسبيح الله سبحانه عند سماعه ، فحسُنَ وصفُه بالتسبيح لأجل ذلك ، إذ كان هو السببَ فيه . وهذا معروف فى كلامهم .

وقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[١٥] . وهذه استعارة . لأن أصل السجود فى اللغة الخضوع والتذلل . إمّا باللسان الناطق عن الجملة أو بآثار الصنعة وعجائب الخلقة . ثم نقل فصار اسما لهذا العمل المخصوص الذى هو من أركان الصلاة ، لأنه يدل على تذلُّل الساجد لخالقه ، بتطامُن شخصه ، وانحناء ظهره . وقد ذكر فى بعض الأخبار أن جدنا جعفر[٣] بن محمد عليهما السلام سئل عن العلة فيما كلف الله سبحانه من أعمال الصلاة وسائر العبادات ، فقال : أراد الله

---

(١) التعاظل : هو تكاثر الشىء وركوب بعضه فوق بعض . ومنه المعاظلة فى الكلام أى تعقيده وموالاة بعضه فوق بعض .

(٢) انفش : أى سكن ولان بعد شدة .

(٣) جعفر بن محمد هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم . وهو سادس الأئمة الاثنى عشر . وكان واسع العلم ، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان . ولقب بالصادق لأنه لم يعهد عليه كذبة قط . توفى سنة ١٤٨ هـ بالمدينة .

سبحانه بذلك إذلال الجبارين . فإذا تمهد ماذكرنا كان فى ذكر « الظلال » فائدة حسنة ، وهو أن الظل الذى هو فى سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه، إذا ظهرت فيه أعلام الخضوع للخالق تعالى بما فيه من دلائل الحكمة وعجائب الصنعة ، كان ذلك أعجب من ظهور هذه الحال فى البنية القائمة بنفسها، والمعروفة بشخصها .

وقوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ، فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [١٧] . وهذه استعارة . والمراد بضرب الأمثال — والله أعلم — معنيان : أحدهما أن يكون تعالى أراد بضربها تسييرها[١] فى البلاد ، وإدارتها على ألسنة الناس . من قولهم : ضَرَبَ فلان فى الأرض . إذا توغل فيها وأبعد فى أقاصيها . ويقوم قوله تعالى : ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ مقام قوله ضَرَبَ بها فى البلاد .

والمعنى الآخر فى ضَرْب المثل أن يكون المراد به نَصْبَه للناس بالشهرة ، لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل على الشىء المنصوب نواظرهم . وذلك مأخوذ من قولهم : ضربت الخباء . إذا نصبته ، وأثبتُّ طُنبه[٢] ، وأقمت عَمَده . ويكون قولهُ سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ﴾ [١٧] . إلى هذا الوجه . أى ينصب منارهما ، ويوضح أعلامهما ، ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [٣٣] وهذه استعارة .

---

(١) فى الأصل : تسيرها وهو تحريف فى النسخ .

(٢) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت . والجمع أطناب .

والمراد به أنه تعالى مُحْصٍ على كل نفس ما كسبت ، ليجازيها به . وشاهد ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾(١) . أى مادمت له مطالبا ، ولأمره مراعيا ، لا تمهله للحيلة ، ولا تنظره لِلغيلة(٢) . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

وإذا لم يصح إطلاق صفة القيام على الله سبحانه حقيقة ، فإن المراد بها قيام إحصائه على كل نفس بما كسبت ، ليطالبها به ، ويجازيها عنه بحسبه . والقيام والدوام ههنا بمعنى واحد . والماء الدائم هو القائم الذى لا يجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [٤١] . وهذه استعارة . وقد اختلف الناسُ فى المراد بها ، فقال قوم : معنى ذلك نقصان أرض المشركين ، بفتحها على المسلمين . وقال آخرون : المراد بنقصانها : موتُ أهلها ، وقيل موت علمائها .

وعندى فى ذلك قول آخر ، وهو أن يكون المراد بنقص الأرض – والله أعلم – موت كرامها . وتكون الأطراف ههنا جَمْعَ طِرْفٍ . لا جمع طرَف ، والطِّرف هو الشىء الكريم . ومنه سُمِّىَ الفرَسُ طِرْفا ، إذ كان كريما . وعلى ذلك قول أبى الهندى(٣) الرياحى :

شربنا شربة من ذات عرق بأطراف الزجاج من العصير

أى بكرائم الزجاج . ولم يمض فى هذا القول لأحد .

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٧٥ .
(٢) الغيلة بكسر الغين : الخديعة والاحتيال .
(٣) فى الأصل : أبو الهند وهو تحريف من الناسخ . واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس ، وهو من بنى زيد بن رياح . وقد ترجم له ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ص ٦٦٣ من طبعة عيسى الحلبى بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، وذكر صاحب « العقد الفريد » خبرا له وطرفا من أقواله ونوادر شرابه . جزء ٦ ص ٣٤٢ .

ومن السورة التى يذكر فيها

« إبراهيم عليه السلام »

قوله سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [٥] وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ التذكير بأيام نقم الله التى أوقعها بالماضين ، كعادٍ وثمود ومَن جرى مجراهم : وهذا كقولنا : أيام العرب . وإنما تريد به الأيام التى كانت فيها الوقائع المشهورة والملاحم العظيمة . وقد يجوز أن يكون الأيام ههنا عبارة عن أيام النعم ، كما قلنا إنها عبارة عن أيام النقم . فيكون المعنى : فذكِّرهم بالأيام التى أنعمَ الله فيها عليهم وعلى الماضين من آبائهم بوقم [١] الأعداء ، وكشف اللأواء ، وإسباغ النعماء . ألا ترى أن أيام العرب التى هى عبارة عن الوقائع يكون فيها لبعضهم الظهور على بعض ، فذلك من النعم ، وعلى بعضهم السُّوء والدائرة ، وتلك من النقم ؟ فالأيام إذَنْ تذكرة لمن أراد التذكرة بالإنعام والانتقام .

وقوله سبحانه . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [٩] وهذه استعارة ، على وجه واحد من وجوه التأويلات التى حُملت عليها هذه الآية . وذلك أن يكون المعنى ماذهب إليه بعضهم من أن الأيدى ههنا عبارة عن حجج الرسل عليهم السلام ، والبينات التى جاءوا بها قومهم ، وأكَّدوا بها شرعهم . لأن بذلك يتم لهم السلطان عليهم والتدبير لهم ، وقد سَمَّوا السلطان يدا فى كثير من المواضع ، فقالوا : مالفلان على فلان يَدٌ ، أىْ سلطان . ويقولون : قد زالت يد فلان الأمير . إذا عزل عن ولايته ،

---

(١) وقم العدو : قهره وأذله ، ووقم الرجل : رده عن حاجته أقبح رد .

بمعنى زال سلطانه عن رعيته . و يقولون : أخذت هذا الأمر باليد . أى بالسلطان . فالحجج التى جاء بها الأنبياء أممهم قد تسمى أيديا على ما ذكرناه ، فلما وصف الكفار على هذا التأويل بأنهم ردُّوا أيدىَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فى أفواههم ، كان المراد بذلك ردّ حججهم من حيث جاءت ، وطريقُ مجيئها أفواههم ؛ فكأنهم ردُّوا عليهم أقوالهم ، وكذَّبوا دعواهم .

وفى هذا التأويل بُعد وتعسُّف، إلا أننا ذكرناه لحاجتنا إليه، لما ذهبنا مذهب من حمل قوله سبحانه : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ على الاستعارة لا على الحقيقة .

فإذا حملت الآية على حقيقة الأيدى التى هى الجوارح كان المراد بها مختلفا [١] فيه . فمن العلماء من قال : المراد بذلك أنهم كانوا يعضُّون أناملهم تغيظا [٢] على الرسل عليهم السلام ، كما يفعل المغيظ المحنق ، والواجم المفكر .

وقال بعضهم : المراد بذلك أن المشركين أومأوا إلى أفواه الأنبياء ، بالتسكيت لهم ، والقطع لكلامهم .

وقال بعضهم : بل المراد بذلك ضربٌ من الهزء [٣] يفعله المجّان والسفهاء ، إذا أرادوا الاستهزاء ببعض الناس ، وقصدوا الوضع منه ، والإزراء عليه . فيجعلون أصابعهم فى أفواههم ويُتبعون هذا الفعل بأصواتٍ تشبهه وتجانسه ، يُستدل بها على قصد السخف ، وتعمد الفحش . وهذا عندى بعيد من السداد ، وغيره من الأقوال أولى منه بالاعتماد .

---

(١) فى الأصل : مختلف فيه . وهو تحريف من الناسخ .
(٢) فى الأصل : تغيضا بالضاد المعجمة لا بالظاء المعجمة .
(٣) الهزء بفتح الهاء والهزء بضمها : السخرية .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدُّوا بأيديهم أسماعَهم دفعة، وأفواهَهم دفعة، إظهارا منهم لقلة الرغبة فى سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليدلُّوهم — بهذا الفعل — على أنهم لا يُصغون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أبهموا طريق السماع والجواب، وهما الآذان والأفواه. وشاهد ذلك قوله سبحانه حاكيا عن نوح عليه السلام يعنى قومه: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (١) فيكون معنى رد أيديهم فى أفواههم على القول الذى قلنا أن يمسكوا أفواههم بأكفهم، كما يفعل المظهر الامتناع من الكلام. ويكون إنما ذكر تعالى ردَّ الأيدى ههنا — وهو يفيد فعل الشىء ثانيا بعد أن فُعِل أولا — لأنهم كانوا يكثرون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام. فوُصفوا فى هذه الآية بما قد سبق لهم مثله، وأُلِف منهم فعلُه، فحسُن ذكر الأيدى بالرد على الوجه الذى أومأنا إليه. وأيضا فقد يقول القائل لغيره: اردد إليك يدك. بمعنى اقبضها وكُفها. لا يريد غير ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [١٤]. وهذه استعارة. لأن المقام لا يضاف إلاّ إلى من يجوز عليه القيام. وذلك مستحيل على الله سبحانه، فإذن المراد به يوم القيامة، لأن الناس يقومون فيه للحساب، وعَرْض الأعمال على الثواب والعقاب، فقال سبحانه فى صفة ذلك اليوم: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢).

وإنما أضاف تعالى هذا المقام إلى نفسه فى هذا الموضع، وفى قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) سورة نوح عليه السلام. الآية رقم ٧.
(٢) سورة المطففين. الآية رقم ٦.

رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [١] لأن الحكم فى ذلك اليوم له خالصا ، لايشاركه فيه حكم [حاكم] [٢] ، ولا يحادُّه أمرُ آمر . وقد يجوز أن يكون للقام ههنا معنى آخر ، وهو أن العرب تسمى المجامع التى تجتمع فيها لتدارس مفاخرها ، وتذاكر مآثرها « مقامات » و « مقاوِم » . فيجوز أن يكون المراد بالمقام ههنا الموضع الذى يقصُّ فيه سبحانه على بريّته محاسن أعمالهم، وَمقابح أفعالهم ، لاستحقاق ثوابه وعقابه ، واستيجاب رحمته وعذابه . وقد يقولون : هذا مقام فلان ومقامته، على هذا الوجه ، وإن لم يكن الإنسان المذكور فى ذلك المكان قائما ، بل كان قاعداً أو مضطجعاً . ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ [٣] أى من مجلسك. سماه مقاماً ــ مع ذِكْرِه أنَّ سليمان عليه السلام كان جالساً فيه ــ لأنه قال ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ . وإنما سماه مقاماً ، لأن القاعد إذا قام بعد قعوده ففيه يكون قيامه . وهذا من غرائب القرآن الكريم . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [١٧] فهذه استعارة . لأن المراد بذلك لو كان الموت الحقيق ولم يكن [٤] سبحانه ليقول : ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، وإنما المعنى أن غواشى الكروب ،وحوازب الأمور

---

(١) سورة الرحمن . الآية رقم ٤٦ .

(٢) لفظة « حاكم » ناقصة من الأصل . وقد وضعناها بين حاصرتين ، لأن السياق يقتضيها

(٣) سورة النمل . الآية رقم ٣٩ .

(٤) هذه العبارة غير واضحة كما هى . والمقصود أن الموت هنا مجاز لا حقيقة ، ولو كان الموت هنا حقيقة لم يكن سبحانه ليقول : (وما هو بميت) . ولعل الواو زائدة فى قوله « ولم يكن »

تطرُقه من كل مَطْرق ، وتطلعُ عليه من كل مطلع . وقد يوصف المغموم بالكرب ، والمضغوط بالخطب بأنه فى غمرات الموت ، مبالغةً فى عظيم ما يَغْشاه ، وأليم ما يلقاه .

وقوله سبحانه : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [١٨] فى هذه الآية استعارتان إحداهما (١) قوله تعالى : ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ (٢) .

. . . .

. . . .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [٣٧] . وهذه من محاسن الاستعارة . وحقيقة الهُوِيِّ النزولُ من عُلْوٍ إلى انخفاضٍ كالهبوط . والمراد به هينا المبالغة فى صفة الأفئدة بالنُّزوع إلى المقيمين بذلك المكان . ولو قال سبحانه : تحنُّ إليهم ، لم يكن فيه من الفائدة ما فى قوله سبحانه : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ لأن الحنين قد يُوصَف به مَنْ هو مقيم فى مكانه ، والهُوِيُّ يفيد انزعاج الهاوى من مستَقَرِّه .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [٤٣] وهذه استعارة . والمراد بها صفة قلوبهم بالخلوِّ من عزائم الصبر والجَلَدِ ، لعظيم الإشفاق والوجَل . ومن عادة العَرب أن يُسمُّوا الجبان يراعةً جوفاء ، أى ليس بين جوانحه قلب .

وعلى ذلك قول جرير يهجو قوماً و يَصِفُهُم بالجبن :

قل لخفيف القصبات الجوفان ... جيئوا بمثل عامر والعلهان (٣)

---

(١) فى الأصل : أحدهما . بالتذكير وهو تحريف من الناسخ .

(٢) هنا ورقة ضائعة من الأصل . من الآية ١٨ إلى الآية ٣٧ .

(٣) ورد هذا البيت فى ديوان جرير هكذا .

ويلكمو يا قصبات الجوفان ... جيئوا بمثل قعنب والعلهان

وإنما وصف الجبان بأنه لاقلب له ، لأن القلب محل الشجاعة ، وإذا نفى المحل فأولى أن ينتفى الحالُّ فيه . وهـذا على المبالغة فى صفته بالجبن . ويسمون الشىء إذا كان خالياً « هواء » ، أى ليس فيه ما يشغله إلا الهواء .

وعلى هذا قول الله سبحانه : ﴿ (١) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أى خالياً من التجلد ، وعاطلا من التصبُّر . وقيل أيضاً : إن معنى ذلك أنَّ أفئدتهم منحرفة (٢) لا تعى شيئاً ، للرعب الذى دخلها ، والهول (٣) الذى استولى عليها . فهى كالهواء الرقيق فى الانحراف ، وبطلان الضبط والامتساك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [٤٦] . وهذه استعارة على إحدى القراءتين . وهما : لِتزولَ . بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخرى . ولَتزولُ . بفتح اللام الأولى وضم الأخرى . وقرأنا بهذه القراءة للكسائى (٤) وحدَه ، وقرأنا لبقية السبعة القراءة الأولى .

فمعنى القراءة الأولى أن يكون موضع «أن» فيها موضع نعم ، لأنها قد ترد (٥) بهذا المعنى مثقلة : كقوله : (إنَّ وراكبها (٦)) .

---

(١) سورة القصص . الآية رقم ١٠ .

(٢) فى الأصل : مستحرفة .

(٣) فى الأصل : والقول الذى استولى عليها . ولا معنى للقول هنا . وإنما هو الهول المقابل للرعب .

(٤) الكسائى : هو على بن حمزة الكوفى ، أحد القراء السبعة . وإمام مدرسة فى النحو واللغة مشهورة . وكان مؤدباً للرشيد العباسى وابنه الأمين . توفى سنة ١٨٩ بمدينة الرى .

(٥) فى الأصل : قد تردد . وهو تحريف من الناسخ .

(٦) هذا هو ما ردَّ به ابن الزبير رضى الله عنه لمن قال له : لعن الله ناقة حملتنى إليك . فقال ابن الزبير : إنَّ وراكبها . أى : نعم! ولعن راكبها . وهو من شواهد كتب معانى الحروف . انظر « مغنى اللبيب » ج ١ ص ٣٦ .

ويجوز أن ترد مخففة . لأنّ «أن» على أصلها قد تأتى مخففة ومثقلة. ويكون المعنى واحداً. وكذلك « أن » المفتوحة . قال الشاعر [١] :

أكاشره وأعلمُ أنْ كلانا ... على ماساء صاحبه حريصُ

وأراد « أنّ كلانا » فخفف . فإذا تقرر ذلك صار تقدير الكلام فى الآية : ونعمْ كان مكرهم لتزولَ منه الجبال . وقد وردت هذه اللام فى موضع ليس ، لأن الخفيفة فيه تحمل [٢] .

قال الفرّاء [٣] : سمعت العرب تقول : الكراء حينئذ لرخيصٌ .ولم يقل : إن الكراء رخيص . فيكون المراد : إن الجبال تزول من مكرهم استعظاما واستفظاعا ، لو كانت مما يعقل الحال ، ويقدر على الزوال . وهذه اللام ههنا تومىء إلى معنى « تكاد » [٤] ....

. . . .

---

(١) تعبت كثيراً فى معرفة اسم هذا الشاعر وفى العثور على هذا البيت فى المراجع الكثيرة فلم أهتد بعد طول بحث .. فلعل الله يوفق من يدلنا عليه فنشكر صنيعه .

(٢) هنا الكلام ناقص ، ولعل الناسخ أراد أن يكتب « لأن الخفيفة فيه تحمل محل ما ، وتكون اللام للجحود » . وعبارة القرطبى فى هذا المقام واضحة دالة على الغرض حيث يقول فى جزء ٩ ص ٣٨٠ : (إن : بمعنى ما . أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال . لضعفه ووهنه) . ثم زاد القرطبى خمسة مواطن فى القرآن جاءت فيها « إن » بمعنى « ما » وهذا هو أحدها .

(٣) الفراء هو يحيى بن زياد أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب . وكان فوق علمه باللغة والنحو فقيها متكلما مفسرا . وقد عهد إليه الخليفة المأمون بتربية ولديه . توفى سنة ٢٠٧ . وهناك فراء آخر اسمه الحسين بن مسعود البغوى اشتهر بالفقه والحديث والتفسير وتوفى سنة ٥١٠ هـ وليس هو المقصود هنا، فقد ولد بعد وفاة الشريف الرضى بثلاثين عاما .

(٤) هنا قطعة مفقودة من الكتاب تبلغ ورقة تقريباً .

سورة الحِجْر

. . . . وقوله سبحانه: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٧٢]. وهـذه استعارة. والمراد بها صفتهم بالتردد فى غيهم، والتسكع فى ضلالهم. فشبه تعالى المتلدد[١] فى غمرات الغى، بالمتردد فى غمرات السكر.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨٨] وهـذه استعارة. والمراد بها: ألِنْ كنفك لهم، ودم على لُطفك بهم. وجَعَل سبحانه خفض الجناح ههنا فى مقابلة قول العرب إذا وصفوا الرجل بالحدة عند الغضب: قد طار طَيْره، وقد هفا حلْمهُ، وقد طاش وقارُه. فإذا قيل: قد خفض جناحه، فإنما المراد به وصف الإنسان بلين الكنف، والكظم عند الغضب. وذلك ضد وصفه بطيرة المغضب، ونزوة المتوثب.

وقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ [٩١]. وهـذه استعارة على أحـد التأويلين. وهو أن يكون المعنى أنهم جعلوا القرآن أقساما مجزأة، كالأعضاء المعضَّاة[٢]، فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقيل: جعلوه أقساما، بأن قالوا: هو سحر وكهانة، وكذب وإحالة.

وأما التأويل الآخر فى معنى (عِضِينَ) فيخرج به اللفظ عن أن يكون مستعارا[٣]، وذلك

---

(١) المتلدد فى المكان: المتلبث به. أو المتحير الملتفت يمينا وشمالا.

(٢) المعضاة: أى المجزأة المقسمة.

(٣) فى الأصل: مستعار، بالرفع وهو تحريف من الناسخ.

أن يكون معناها على ماقاله بعض المفسرين معنى الكذب . قال : وهو جمع عضة ، كما كان فى القول الأول ، إلا أن العضة ههنا معناها الكذب والزور ، وفى القول الأول معناها التجزئة والتقسيم . وقد ذكر ثقات أهل اللغة فى العِضة وجوها . فقالوا : العضة النميمة ، والعضة الكذبُ ، وجمعه عضُون . مثل عِزَةُ وعِزونَ ، والعِضَة السِّحْرُ ، والعاضهُ الساحر .

وقد يجوز أن يكون ﴿ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ جمع عِضة ، من السحر . أى جعلوه سحرا وكهانة ، كما قال سبحانه حاكيا عنهم ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1] . و﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٩٤] . وهذه استعارة . لأن الصَّدع على الحقيقة إنما يصح فى الأجسام لا فى الخطاب والكلام . والفَرْق ، والصَّدْع ، والفَصْل فى كلامهم بمعنى واحد . ومن ذلك قولهم للمصيب فى كلامه : قد طبّق المفصل . ويقولون : فلان يفصل الخطاب . أى يصيب حقائقه ، ويُوضح غوامضه . فكأن المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى : أظْهِرِ القول و بينه فى الفَرْق بين الحق والباطل . من قولهم صدَع الرداء . إذا شقه شقا بينا ظاهرا . ومن ذلك صدْع الزجاجة . إذا استطار فيها الشق ، واستبان فيها الكسر . وإنما قال سبحانه :

---

(١) سورة المدثر . الآية رقم ٢٤ .

(٢) سورة الأنعام · الآية رقم ٧ . وسورة هود . الآية رقم٧. وسورة سبأ · الآية رقم ٤٣ . وسورة الصافات . الآية رقم ١٥ .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ولم يقل : فبلغ ما تُؤمر ، لأن الصدع ههنا أعم ظهورا ، وأشد تأثيرا .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك ــ والله أعلم ــ أنْ بالِغ فى إظهار أمرك، والدعاء إلى ربك ، حتى يكون الدين فى وضوح الصبح ، لا يشكك نهجه ، ولا يظلم فجه . مأخوذا ذلك من[١] « الصَّدِيع » ، لشأنه ووضوح إعلانه .

---

(١) الصديع : الصبح . سمى بذلك لانصداعه عن ظلمات الليل .

ومن السور التى يذكر فيها « النَّحل »

قوله سبحانه : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [٢] وهذه استعارة . لأن المراد بالروح ههنا الوحى الذى يتضمن إحياء الخلق والبيان عن الحق . ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (١) ومثله قوله سبحانه فى المسيح عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (٢) فسماه تعالى روحا على هذا المعنى، لأن به حيا(٣) أمته ، و بقاء شريعته . وقد مضى معنى ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب .

فأما قوله سبحانه : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٤) فإنما أراد بذلك الروح التى خلقها ليحيى عباده بها ، وأضافها إلى نفسه كما أضاف الأرض إلى نفسه ، إذ يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (٥) .

وكان شيخنا أبو الفتح عثمان بن (٦) جنىٍّ رحمه الله يقول : معنى قولهم فى القسم : لَعَمْر الله ماقلتُ ذلك ، ولأفعلن ذلك . إنما يريدون به القسم بحياة يُحْيِي اللهُ بها ، لاحياة يَحْيَى بها ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . فكان المقسم إذا أقسم بهذه الحياة دخل مايخصه منها فى جملة قسمه ، وجرى ذلك مجرى قوله : لعمرى . فيصير مقسما بحياته التى أحياه الله بها .

---

(١) سورة الشورى الآية رقم ٥٢ .

(٢) سورة . النساء الآيه رقم ١٧١ .

(٣) هكذا بالأصل . ولعلها « حياة » أو « إحياء » .

(٤) فى الأصل : فنفخ بالفاء ،وصحة الآية: ونفخ بالواو . سورة السجدة آية رقم ٩ .

(٥) سورة النساء . الآية رقم ٩٧.

(٦) تقدمت ترجمته فى مجازات سورة التوبة .

والعَمْرُ ههنا هو العُمر . ومعناه الحياة .

وكنت أستحسن هذا القول منه جدا ، وله نظائر كنت أسمعها منه عند قراءتى عليه . وكان – عفا الله عنه – كثير الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للخفايا .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ [٧] وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون المعنى : أنكم لاتبلغون هذا البلد إلا بأنصاف أنفسكم ، من عظم المشقة ، وبُعد الشقة ، لأن الشق أحد قسمى الشيء . ومنه قولهم : شقيق النفس أى قسيمها ، فكأنه من الامتزاج بها شق منها . وعلى ذلك قول الشاعر [١] :

مِنْ بَنِي عَامِرٍ لهَا نِصْفُ قَلْبِي   قسمةً مثلما يُشَقُّ الرِّدَاء

فأما من حمل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ على أن معناه المشقة والنصب والكد والدأب، كان الكلام على قوله حقيقة ، وخرج عن حد الاستعارة . فكأنه سبحانه قال : إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بمشقة الأنفس .

وقولهسبحانه : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾[٩]وهذه استعارة . لأن الجائر هوالضال نفسه . يقال : جار عن الطريق . إذا ضل عن نهجه ، وخرج عن سمته .ولكنهم لما قالوا : طريق قاصِدٌ . أى مقصد فيه ، جاز أن يقولوا : طريق جائر أى يجار فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [٢٥] . وهذه استعارة لأن الأوزار على الحقيقة هى الأثقال، واحدها وِزر . والمراد بها ههنا : الخطايا والآثام، لأنها تجرى مجرى الأثقال التى تقطع المتون، وتنقض الظهور .

وفى معنى ذلك قولهم : فلان خفيف الظهر . إذا وصفوه بقلة العدد والعيال ، أو بقلة الذنوب والآثام .

---

(١) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر بعد طويل بحث فى المراجع والمظان وكتب الشواهد والتفسير واللغة وغيرها . والله يجزل شكر من يدلنا عليه ! .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [٢٦] وهـذه استعارة . لأن الإتيان ههنا ليس يراد به الحضور عن غيبة ، والقربُ بعد مسافة . وإنما ذلك كقول القائل : أُتيتُ من جهة فلان . أى جاءنى المكروه من قبله . وأُتى فلان من مأمنه . أى ورد عليه الخوف من طريق الأمن ، والضر من مكان النفع .

وقوله سبحانه ﴿ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ [٢٨] . وهـذه استعارة . وليس هناك شىء يلقى على الحقيقة . وإنما المراد بذلك طلب المسالمة عن ذل واستكانة ، والتماس وشفاعة . لأن من كلامهم أن يقول القائل : ألقى إلىَّ فلان بيده . أى خضع لى ، وسلَّم لأمرى . وقد يجوز أيضا أن يكون معنى فألقوا السَّلم . أى استسلموا وسلَّموا . فـكانوا كمن طرح آلة المقارعة ، ونزع شِكَّة المحاربة . وفى معنى ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (١) أى لا تستسلموا لها ، وتوقعوا نفوسكم فيها .

وقوله سبحانه (٢) : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٤٠] . وهـذه استعارة . لأنه ليس هناك شىء على الحقيقة يؤمر ولا قول يسمع . وإنما هـذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وسرعة وجود المراد ، من غير معاناة ولا مشقة ، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى . فإذا أراد أمرا كان لوقته ، من غير أن يبطىء إيجاده ، أو يتقاعس إنفاذه . وذلك بمنزلة قول أحدنا : « كُنْ » فى خفة اللفظ به ، وسرعة التعبير عنه ، من غير كلفة تلحقه ، ولا مشقة تعترضه .

وقيل إن معنى قوله سبحانه : (كُنْ) علامة للملائكة يدلهم بها عند سماعهم لها على أنه سيُحدث كذا ، ويفعل كذا ، من محكمات التقدير ، ومبرمات التدبير .

---

(١) سورة البقرة . الآية رقم ١٩٥ .

(٢) فى الأصل : « إنما أمرنا » وهو تحريف من الناسخ لكلام الله تعالى . والصحيح : إنما قولنا لشىء الخ — سورة النحل الآية رقم ٤٠ .

وقوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [٤٨] . وهـذه استعارة . لأن المراد بها رجوع الظلال من موضع إلى موضع . والظلال على الحقيقة لا تتفيأ ولا تنقل ، وإنما ترد الشمس عليها ، ثم ترجع إلى ما كانت عليه ، بعد أن تزول الشمس عنها ، والشمس هى المتنقلة عليها ، والظلال قائمة بحالها .

وقوله تعالى فى صفة النحل العسّالة : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [٦٩] . وفى هذه الآية استعارتان : إحداهما قوله تعالى : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ، على قول من جعل ذُللا حالاً للسُّبل ، لا حالاً للنحـل . والذُّلُلُ : جمع ذَلُول ، وهى الطرُق الموَطّأة للقدم ، السهلة على الحافر والمنسم ، تشبيهـا لها بالإبل الذلُل ، وهى التى قد عُوِّدت الترحل ، وألِفتِ المسير .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ والمراد بذلك العسل . والعسلُ عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار ، وأضغاث النبات . لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة ، وعلى أوصاف معلومة ، والنحل مهملة تتْبع تلك المساقط ، وتَعَهّد تلك المواقع ، فتنقل العسل بأفواهها إلى كُواراتها[1] المواضع[2] المعدّة لها . فقال سبحانه : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ والمراد من جهةِ بطونها . وجهةُ بطونها: أفواهُها . وهذا من غوامض هذا البيان ، وشرائف هذا الـكلام .

---

(١) الـكوارات بضم الـكاف وتشديد الواو جمع كوارة ، وهى بيت يتخذ للنحل من القضبان أو الطين تأوى إليه . أو هى عسلها فى الشمع .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها «والمواضع» بواو عاطفة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[٨٦] وهذه استعارة . والمراد بإلقاء القول ـ والله أعلم ـ إخراج الكلام مع ضرب من الخضوع والاستكانة والإسرار والخفية ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (١) وفى هذا الكلام مفعول محذوف . فكأنه قال تعالى : تُلْقُون إليهم الأخبار بالمودة . وهذا القول نزل فى قوم من المؤمنين كانوا يجتمعون مع قوم من المنافقين بأرحام تلفُّهم ، وخُلل (٢) تولد عنهم ، فيتسقطونهم ليعرفوا منهم أخبار النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فنُهُوا عن مناقشتهم والاجتماع معهم . فكأن المعنى : تلقون إليهم الأسرار بالمودة التى بينكم ، على سبيل الإسرار والاخفاء .

وقد قيل إن المراد : تُلقون (٣) إليهم المودة ، فقال تعالى : بالمودّة ، كما قال سبحانه : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ (٤) أى تنبت الدهن على أحد التأويلين ، ونظير التأويل الأول قوله سبحانه فى ذِكْر الشياطين : ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ (٥) أى يطلبون سماع الأخبار على وجه الاستخفاء والاستسرار . وهذا الوجه لايصح (٦) فى قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[٨٦] لأن الحال التى أخبر سبحانه بأن هذا يجرى فيها هى حال القيامة ، وتلك حال لايجوز فيها الاستسرار لقول ، ولا الكتمان لسر ، لأن السرائر مُظْهَرةٌ والضمائر مصحرة . (٧) و إنما المراد بهذا الكلام مايقوله المعبودون لمن عبدهم من الأمة ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ، قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

---

(١) سورة الممتحنة . الآية رقم ١ .
(٢) الخلل : جمع خلة وهى الصداقة والصحبة .
(٣) فى الأصل : يلقون .
(٤) سورة المؤمنون . الآية رقم ٢٠
(٥) سورة الشعراء . الآية رقم ٢٢٣
(٦) فى الأصل : من قوله تعالى . وهو تحريف من الناسخ صوابه ماأثبتناه
(٧) أصحر الأمر : أظهره وأعلنه فى غير خفاء

شُرَكَاؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴾ [٨٦] فقال المعبودون لهم فى الجواب عن ذلك : إنكم لـكاذبون ، أى فى أنَّا دعونا كم إلى العبادة ، أو فى قولـكم إننا آلهة . وقد يجوز أيضا أن يكون التكذيب من العابدين للمعبودين ، فكأنهم قالوا لهم : كذبتم فى ادعائـكم أنكم تستحقون العبادة من دون الله تعالى . فلم يَبْقَ إذن إلا الوجه الأول فى معنى إلقاء القول ، وهو أن يكون على وجه الخضوع والضراعة ، ويكون سبب هذه الاستكانة الخوف من الله سبحانه ، لاخوف بعض الشركاء من بعض . ومثل ذلك قوله سبحانه عقِب هذه الآية : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ [٨٧] أى استسلموا له عن ضرع ذلة ، وانقطاع حيلة . ومن ذلك قولهم: ألقى فلان يد العانى . أى ذَلَّ ذُلَّ الأسير، وخَضَع خضوع المقهور .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ [٩٤] وهذه استعارة . لأن المراد بالقدم ههنا الثبات فى الدين . ولما كان أصل الثبات فى الشيء والاستقرار عليه إنما يكون بالقدم، حَسُن أن يعبر عن هذا المعنى بلفظ القدَم وكأن المراد بقوله تعالى : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ أى يضعف دينكم ، ويضطرب يقينكم ، فيكون كالقدمِ الزَّالة ، والقائمة المائدة .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾[١٠٢] وهذه استعارة . لأن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والتقديس : الطهارة . وإنما سمى رُوح القدس لأن حياة الدين وطهارة المؤمنين إنما تكون بما يحمله إلى الأنبياء عليهم السلام من الأحكام والشرائع، والآداب والمصالح .

وقوله سبحانه : ﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾ [١٠٣] وهذه استعارة . لأن المراد باللسان ههنا جملةُ القرآن وطريقته ، لا العضو

المخصوص الذى يقع الكلام به . وذلك كما يقول العرب فى القصيدة : هذه لسان فلان . أى قوله . قال شاعرهم :

لسانُ السُّوء تهديها إلينـــا وَحِنْتَ وما حسبتُك أن تحينا (١)

أى مقالة السوء . ومثل ذلك قول الآخر (٢) :

ندمتُ على لسان كان منى وددت بأنه فى جوف عِكْمِ

أى على قول سبق منى ، لأن الندم إنما يكون على الفعال والكلام ، لا على الأعضاء والأعيان .

وإنما سمى القول لسانا ، لأنه إنما يكون باللسان ، ويصدر عن اللسان .

وقوله سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [١١٢] وهذه استعارة . لأن حقيقة الذوق إنما تكون فى المطاعم والمشارب ، لا فى الكُسَى والملابس . وإنما خرج هذا الكلام مخرج الخبر عن العقاب النازل بهم ، والبلاء الشامل لهم . وقد عُرف فى لسانهم أن يقولوا لمن عوقب على جريمة ، أو أُخذ بجريرة : ذُقْ غِبَّ فعلك ، واجْنِ ثمرة جهلك . وإن كانت عقوبته ليست مما يُحَسُّ بالطعم ، ويُدْرَك بالذوق . فكأنه سبحانه لما شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حَسُنَ أن

---

(١) روى هذا البيت هنا على هذه الصورة . وفى « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى جزء ١٠ ص ١٧٩ روى هكذا :

لسان الشر تهديها إلينـــا وخنت وما حسبتك أن تخونا

ولم تذكر كتب الشواهد اسم قائل هذا البيت .

(٢) هو الحطيئة الشاعر كما جاء فى « لسان العرب » مادة : لسن . إلا أنه روى فى اللسان هكذا :

ندمت على لســان فات منى فليت بأنه فى جوف عكم

والعكم بكسر العين : العدل الذى توضع فيه الأشياء (الغرارة) أو الكارة .

يقول تعالى : فأذاقهم ذلك ، أى أوجدهم مرارته كما يجد الذائق مرارة الشىء المرير ، ووخامة الطعم الكريه . وإنما قال سبحانه : ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ ولم يقل : طعم الجوع والخوف ، لأن المراد بذلك — والله أعلم — وصف تلك الحال بالشمول لهم ، والاشتمال عليهم ، كاشتمال الملابس على الجلود ، لأن مايظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف ، من سوء الأحوال ، وشحوب الألوان ، وضئولة الأجسام ، كاللباس الشامل لهم ، والظاهر عليهم . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

ومن السورة التي يذكر فيها

« بنو إسرائيل »[١]

قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [١٢] وفي هذه الآية استعارتان إحداهما : قوله سبحانه : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ . والآية العلامة . والمراد بمحوها — والله أعلم — على قول بعضهم أى جعلنا ظلمة الليل مشكلة ، لا يفهم معناها ، ولا يعلم نحواها ، لما استأثر الله تعالى بعلمه من المصلحة المستسرّة فى ذلك .

وحقيقة المحو طمْسُ أثر الشيء . من قولهم : محوتُ الكتاب . إذا طمست سطوره ، حتى يُشكِلَ على القارىء ، ويَخفى على الرائى[٢] .

وقال قوم : آية الليل القمرُ خاصّةً . ومحوُه : تصييرُ تلك الطمسة فى صفحته ، حتى نَقَص نوره عن نور الشمس ، لما يَعْلم الله سبحانه من المصلحة فى ذلك . وآية النهار الشمس . وقال آخرون : بل آيتا الليل والنهار ضوء هذا فى الجملة، وظلمة هذا فى الجملة . لأن الضوء علامة النهار ، والظلمة علامة الليل ، على ماقدمنا ذكره . والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ وفى ذلك وجهان : أحدهما أن يكون المراد أنا

---

(١) هى سورة « الإسراء » . وقد سميت من قديم سورة بنى إسرائيل . وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى . يريد من قديم كسبه . انظر القرطبى ج ١٠ ص ٢٠٣ .

(٢) فى الأصل « على الرأى » وهو تحريف من الناسخ .

جعلناها مكشوفة القناع مبينة الإبصار ، على خلاف آية الليل إذ جعلناها مشرجة[١] الغلاف ، بهيمة الأطراف .

والوجه الآخر أن يكون معنى مُبصرة أى يبصر الناس فيها ، ويهتدون بها كما تقدم قولنا فى قولهم : نهار صائمٌ ، وليل نائمٌ . أى أهل هـذا صيام ، وأهل هـذا نيام . وكما يقولون : رجل مُخْبِث . إذا كان أهله وولده خبثاء . ورجلٌ مُضْعِف . إذا كانت دوابه وظهوره ضعفاء . فعلى هذا يسمى النهار مبصرا ، إذا كان أهله بصراء . وقد مضى الكلام على مثل ذلك فيما تقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [١٣] وهذه استعارة . والمراد بالطائر ههنا — والله أعلم — مايعمله الإنسان من خير وشر ، ونفع وضُر . وذلك مأخوذ من زجْر الطير على مذاهب العرب . لأنهم يتبركون بالطائر المتعرض من ذات اليمين ، ويتشاءمون بالطائر المتعرض من ذات الشمال .

ومعنى ذلك أنه سبحانه يجعل عمل الإنسان من الخير والشر كالطوق فى عنقه بإلزامه إياه ، والحكم عليه به . وقال بعضهم : معنى ذلك أنا جعلنا لكل إنسان دليلا من نفسه على مابيّنّاه له ، وهديناه إليه . والعربُ تقيم العنق والرقبة مقام الإنسان نفسِه . فيقولون : لى فى رقبة فلان دم ، ولى فى رقبته دين . أى عنـده . وفلانٌ أعْتَق رقبةً . إذا أعتق عبدا أو أمة . ويقول الداعى فى دعائه : اللهم أعْتِق رقبتى من النار . وليس يريد العنق المخصوصة ، وإنما يريد الذات والجملة .

وجعل سبحانه الطائر مكان الدليل الذى يستدل به على استحقاق الثواب والعقاب ، على عادة العرب التى ذكرناها فى التبرك بالسانح ، والتشاؤم بالبارح .

---

(١) أشرج الشىء : ضم بعضه إلى بعض وأحكم شده .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [٢٤] . وهذه استعارة عجيبة ، وعبارة شريفة . والمراد بذلك : الإخباتُ للوالدين ، وإلانةُ القول لهما ، والرفقُ واللطفُ بهما .

وخفضُ الجناح فى كلامهم عبارة عن الخضوع والتذلل ، وهما ضد العلو والتعزز . إذ كان الطائر إنما يخفض جناحه إذا ترك الطيران ، والطيرانُ هو العلوُّ والارتفاع . وقد يستعار ذلك لفرط الغضب والاستشاطة[1] . فيقال : قد طار فلان طيرة[2] . إذا غضب واستشاط . وقد أومأنا إلى هذا المعنى فيما تقدم من هذا الكتاب .

وإنما قال سبحانه : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [٢٤] . ليبين تعالى أن سبب الذل لهما الرأفةُ والرحمةُ ، لئلا يقدر أنه الهوان والضراعة . وهذا من الأغراض الشريفة ، والأسرار اللطيفة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [٢٩] وهذه استعارة . وليس المراد بها اليد التى هى الجارحة على الحقيقة ، وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير ، والكلام الآخر كناية عن التبذير وكلاهما مذموم ، حتى يقف كل منهما عند حده ، ولا يجرى إلا إلى أمده . وقد فسّر هذا قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[3] .

---

(١) فى الأصل « الاستشاط » وهو تحريف من الناسخ . لأن الفعل استشاط ، والمصدر استشاطة . مثل استقام استقامة .

(٢) فى الأصل « طيره » بالهاء وهو تحريف . والصواب بالتاء المربوطة المنقوطة .

(٣) سورة الفرقان . الآية رقم ٦٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ . [٤٦] . وهــذه استعارة . لأنه ليس هناك على الحقيقة كنان على قلب ، ولا وَقْر فى سمع . وإنما المراد أنهم ـ لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله سبحانه نبيه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم وإفراغِه فى آذانهم ـ كالذين على قلوبهم أكنّة دُونَ علمه ، وفى آذانهم وقْرٌ دون فهمه ، وإن كانوا من قِبَلِ نفوسهم أُتُوا ، وبسوء اختيارهم أُخِـذوا .ولو لم يكن الأمر كذلك لما ذُمُّوا على اطراحه ، ولعُذِروا بالإضراب عن استماعه .

وقوله سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ [٤٧] وهــذه استعارة لأن النَّجْوَى مصدر كالتقوى . وإنما وُصِفوا بالمصدر ، لما فى هــذه الصفة من المبالغة فى ذِكْرِ ماهم عليه ، من كثرة تناجيهم ، وأسرار المكايد بينهم . والصفةُ بالمَصادر تدلُّ على قوة الشىء الموصوف بذلك . مثل قولهم : رجلٌ رِضاً ، وقومٌ عَدْلٌ . وما يجْرى هــذا المجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [٥٩] . وهذه استعارة . والمعنى : جعلنا الناقة آيةً مُبصرة . أى مُبْصِرَةً للعاشى [١] . ومذكِّرَةً للناسى ، ومظنة لاعتبار المعتبر ، وتفكر المفكر . لأن من عجائب تلك الناقة تمخض الصخرة بها من غير حمل بطن ، ولا قرع فحل . وأنها كانت تقاسم ثمودَ الورْد ، فلها يوم ولثمود يوم .

قال سبحانه : ﴿ لَهَا شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [٢] فإذا كان يومها

---

(١) العاشى : اسم فاعل من عشا عن الشىء ، أى أعرض وصدر عنه إلى غيره .

(٢) سورة الشعراء الآية رقم ١٥٥ .

شربت فيه الماء ، مثلما كانت ثمود تأخذ أشقاصها[1] وزروعها ، وأصرامها[2] وشروبها . وهذا من صوادح العبر ، وقوارع النذر .

وقال بعضهم : يجوز أن يكون معنى مبصرة ههنا أى ذات إبصار . والتأويلان يؤولان إلى معنى واحد .

وقوله سبحانه عن إبليس : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [٦٢] وهذه استعارة على بعض التأويلات فى هذه الآية . وهو أن يكون الاحتناك ههنا افتعالا من الحنك . أى لأقودنهم إلى المعاصى ، كما تقاد الدابة بحنكها ، غير ممتنعة على قائدها . وهى عبارة عن الاستيلاء عليهم ، والملكة لتصرفهم ، كما يملك الفارس تصرُّف فَرَسه ، بثَنى العنان تارة ، وبكبح اللجام مرة .

وقال يعقوب[3] فى « إصلاح المنطق » : [يقال : حَنَكَ الدابة يحنِكُها حَنْكا ، إذا شدَّ فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به . وقد احتنك الدابة[4] مثل حَنَكها] إذا فعل بها ذلك .

وقال بعضهم : لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ . أى لَأُلْقِيَنَّ فى أحناكهم حلاوة المعاصى ، حتى يستلذوها ، ويرغَبوا فيها ويطلبوها . والقولُ الأول أحَبُّ إلىَّ .

---

(١) الأشقاص : جمع شقص بكسر الشين ، وهو القطعة من الشىء أو من الأرض .

(٢) الأصرام : جمع صرم بكسر الصاد ، وهو الجماعة من الشىء أو من البيوت .

(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ، المعروف بابن السكيت ، وكان أبوه من أصحاب الكسائى المشهور فى اللغة والنحو . أما صاحبنا فقد شهد له المؤرخون بالعلم الغزير فى اللغة والشعر والثقة فى الرواية . وكتابه « إصلاح المنطق » يقول فيه المبرد : « مارأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب يعقوب بن السكيت فى المنطق » . توفى سنة ٢٤٤ . وقد طبع « إصلاح المنطق » طبعة موثقة بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبدالسلام محمد هارون .

(٤) فى « إصلاح المنطق » ص ٨٢ (وقد احتنك دابته) .

وقال بعضهم : لَأَسْتَأْصِلَنَّ ذريته بالإغواء ، وَلَأَستقصِيَنَّ إهلاكهم بالإضلال ، لأن اتباعهم غيه وطاعتهم أمره يؤولان بهم إلى موارد الهلاك ، وعواقب البوار .

وقال الشاعر :

نشكو إليكَ سَنَةً قد أَجْحَفَتْ　　　واحْتَنَكَتْ أَمْوالَنا وجلَّفَتْ [1]

أى أهلكت أموالنا .

ويقال : احتنكه إذا استأصله وأهلكه . ومن ذلك قولهم : احتنك الجراد الأرض . إذا أتى على نبتها .

وقيل أيضا : المراد بذلك لأضيِّقن عليهم مجارى الأنفاس من أحناكهم ، بإيصال الوسوسة لهم ، وتضاعُف الإغواء عليهم . ويقال : احتنك فلانٌ فلانا . إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه ، فكان كالشبا [2] فى مقلته والشجا [3] فى مَسْعله .

وقوله سبحانه ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [٧٨] وهذه استعارة . لأن الدالك : المائل فى كلامهم . فكأنه سبحانه أمر بإقامة الصلاة عند ميل الشمس . فقيل عند ميلها للزوال ، وقيل عند ميلها للغرب . والشمس على الحقيقة لاتميل عن موضعها ولا تزول عن مركزها ، وإنما تعلو أو تنخفض ، وترتفع بارتفاع الفلك وانخفاضه ، وسيره وحركاته .

وقوله سبحانه : ﴿ وقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ ، إنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقًا ﴾ [٨١]

---

(١) ورد هذا الرجز فى « مجازات القرآن » لأبى عبيدة هكذا :

نشكو إليك سنة قد أجحفت　　　جهدا إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت

انظر « مجازات القرآن » لأبى عبيدة . طبعة سامى الخانجى ص ٣٨٤ . والرجز كذلك فى « الجامع لأحكام القرآن » ج ١٠ ص ٢٨٧ . ولم ينسبه أبو عبيدة ولا القرطبى لقائله .

(٢) الشبا : جمع شباة وهى حد السيف أو قدر مايقطع به منه .

(٣) فى الأصل السجا بالسين المهملة . ولعله تحريف من الناسخ . فإن الشجا بالشين المعجمة مايعترض الحلق فيشجى به .

وهذه استعارة . لأنهم يقولون : زهقت نفس فلان إذا خرجت . ومنه قوله تعالى : ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) فالمراد ـ والله أعلم ـ وَهَلَكَ الباطل إنّ الباطل كان هلوكا . تشبيها له بمن فاضت نفسه ، وانتقضت بنيته . لأن الباطل لا مِسَاكَ لذمائه ، ولا سماك لبنائه .

وقوله سبحانه :﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾[٨٤]وهذه استعارة . لأن الأولى أن يكون المراد ههنا بالشاكلة ـ والله أعلم ـ الطريقة التى تشاكل أخلاق الإنسان ، وتوافق طبيعته . وذلك مأخوذ من الشاكلة ، وجمعها شواكل ، وهى الطرق المتّسعة (٢) عن المحجة العظمى . فكأن الدنيا ههنا مشبَّهة بالطريق الأعظم ، وعادات الناس فيها ، وطبائعهم التى جبلوا عليها مشبهة بالطرق المختلجة من ذلك الطريق ، الذى هو المعمود وإليه الرجوع .

وقال بعضهم : الشاكلة العلامة ، وأنشد :

بَدَتْ شَوَاكِلُ حُبّ كنتَ تُضمِرُهُ ... فى القلب أنْ هَتَفَتْ فى الدّارِ وَرْقاءُ(٣)

فكأنه تعالى قال : كلٌّ يعمل على الدلالة التى نصبت لاستدلاله ، والأمارة التى رُفعت لاهتدائه .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَنْ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾[١٠٠]وهذه استعارة ، والمراد بالخزائن ههنا المواضع التى جعلها الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة التوبة . الآية رقم ٥٥ .
(٢) هكذا بالأصل . ولعلها : المتشعبة .
(٣) لم أهتد إلى قائل هذا البيت.

جعاتٍ [1] لدرور الرزق ومنافع الخَلق . وإلى تلك المواضع تُرفع الأيدى عند السؤال والرغبات، واستدراك [2] الخير والبركات .

وقوله سبحانه : ﴿ وقُرْآنًا فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ [١٠٦] وهذه استعارة ، ومعنى فَرَقْنَاهُ : أى بيّنّاه للناس بنصوع مصباحه ، وشدوخ أوضاحه ، حتى صار كمَفْرق الفَرَس فى وضوح مَخَطِّه [3] أو كفرق الصبح فى بيان منبلجه .

وقال بعضهم : معنى فرقناه أى فصّلناه سورا وآيات . وذلك بمنزلة فَرْق الشعر ، وهو تمييز بعضه من بعض ، حتى يزول التباسه ، و يتخلص التفافه .

---

(١) هكذا بالأصل . ولم أوفق إلى تحقيقها ، ولما كان الناسخ ضبط آخرها بكسرتين ،فهى جمع مؤنث سالم منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة على أنها مفعول به لجعل . ولعلها « جفنات » .

(٢) هكذا بالأصل ، ولامعنى لها ولعلها « واستدرار »

(٣) المخط هو مكان الخط أو الفرق فى مفرق الحصان .

ومن السورة التي يذكر فيها «الكهف»

قوله سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ [١] وهذه استعارة . لأن حقيقة العِوَج أن يكون فيما يصح عليه أن ينصابَ أو يميل ويضطرب ويستقيم . وهذه من صفات الأجسام ، لا من صفات الكلام .

فنقول : إنما وصف القرآن ــ واللهُ أعلم ــ بأنه قيِّم لا عِوَج فيه ، ذهابا إلى نفى الاختلاف عن معانيه ، والتناقض فى أوضاعه ومبانيه . وأنه غير ناكِبٍ عن المنهاج ، ولا مستمر على الاعوجاج .

وقوله سبحانه: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [٥] ووصف الكلمة ههنا بالكبر استعارة . والمراد أن معناها فظيع ، وفحواها عظيم . وتقدير الكلام : كَبُرَتِ الكلمةُ كلمةً .

وللنصب ههنا وجهان : أحدهما أن يكون على تفسير المضمر . مثل قولهم : نِعْمَ رَجُلا زيدٌ ، وبئسَ صاحباً عَمْرو . والوجه الآخر أن يكون على التمييز فى الفعل المنقول ، نحو : ساءت مُرْتَفَقًا ، وتصبَّبَ عَرَقًا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [٨] وهذه استعارة . لأن المراد بالجُرُز ههنا الأرض التى لا نبات فيها ، وذلك مأخوذ من قولهم : ناقةٌ جَرُوزٌ . إذا كانت كثيرة الأكل ، لا يكاد أحْيَاها يسكنان من قضم الأعلاف (١) ،

(١) فى الأصل : الأحلاف . ولا معنى له ههنا . والأعلاف جمع علف ، وهو ماتعلفه الدابة .

ونشْط [١] الأعشاب . ومن ذلك قولهم : سيف جُرازٌ . إذا كان يَبرى المفاصل ، ويقُط الضرائب .

وإنما سُمّيت تلك الأرض جُرُزا إذ كانت كأنّها تأكل نَبْتَها ، فلا تدع منه نابغة ، ولا تتركُ طالعة . ونظير ذلك قولهم : أرض جدّاء : لا ماء فيها . تشبيها بالناقة التى لا لبن فيها ، وهى الجدّاء [٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [١١] . وهـذه استعارة . لأن المراد بها منع آذانهم من استماع الأصوات ، وهمس الحركات . قال بعضهم : وذلك كالضرب على الكتاب لتشكل حروفه ، فتمتنع على القارىء قراءته .

وإنما دلّ تعالى على عـدم الإحساس بالضّرب على الآذان ، دون الضرب على الأبصار ، لأن ذلك أبلغ فى الغرض المقصود ، من حيث كانت الأبصار قد يُضربُ عليها من غير عَمًى ، ولا يبطُل إدراك بقية الحواس جملة ، وذلك عند تغميض الإنسان عينه . وليس كذلك منعُ الاستماع من غير صمم ، لأنه إذا ضرب عليها من غير صَمَم بالنوم الذى هو السهو على صفة دل ذلك على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك . ولأن الأذن لما كانت طريقا إلى الأنباء ثم ضرب عليها ، لم يكن سبيل إلى الانتباه ، فبطل استماعهم . وفى هذا القول بعض التخليط .

---

(١) نشطت الدابة العشب : إذا أكلته بسرعة وخفة . وقد نشطت الدابة : أى سمنت .

(٢) الناقة الجداء : هى الصغيرة الثدى ، أو المقطوعة الأذن ، أو التى ذهب لبنها . انظر الفيروزآباذى مادة «جدد» .

والذى أذهبُ إليه فى ذلك ماذكرته فى كتابى الكبير على شرح واستقصاء ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ والله أعلم ، أى أخذنا أسماعهم . ويكون ذلك من قول القائل : قد ضَرَبَ فلانٌ على مالى . أى أخذه وحَال بينى و بينه ، فأما تشبيه ذلك بالضرب على الكتاب حتى تشكل حروفه على المتأمل ففيه بُعد وتعسُّف.

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك : وضر بناهم على آذانهم ، من الضرب الحقيق ، تشبيها بمن ضُرب على سماخه(١) ، فهو موقوذ(٢) مأموم(٣) ، ومشدوه(٤) مغمور .

وقوله سبحانه : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٤] . الآية . وهذه استعارة . لأن الربط هو الشدُّ . يقال : ربطت الأسير . إذا شددته بالحبل والقدّ(٥) . والمراد بذلك : شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأَوْكِيَة(٦) ، فتنضمُّ على مكنونها ، ويؤمنُ التبدد على مااستودع فيها . أى فَشَدْدنا على قلوبهم لئلا تنحلَّ معاقد صبرها(٧) وتهفو عزائم جَلَدِها . ومن ذلك قولُ القائل لصاحبه : رَبَطَ الله على قلبك بالصبر .

---

(١) السماخ والصماخ واحد . وهو خرق الأذن الباطن الماضى الى تجويف الرأس .

(٢) الموقوذ : المضروب ضربا شديدا حتى أشرف على الموت .

(٣) أمه : شجه، فهومأموم .

(٤) المشدوه : المشدوخ الرأس .

(٥) القد: السير من الجلد .

(٦) الأوكية : جمع وكاء ، وهو رباط القربة أو مانشد به .

(٧) فى الأصل : صمرها . وهو تحريف ، وقد أصلحناه من السياق فى لفظة الجلد المقابلة .

وقوله سبحانه : ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾[١٦] . وفى هذه الآية استعارتان : إحداهما قوله تعالى : ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ والرحمة ههنا بمعنى النعمة . ولم يكن هناك مَطْوِى فينشر ، ولا مكنون فيظهر . وإنما المراد بذلك : يسبغ الله عليكم نعمته ، على وجه الظهور والشياع ، دون الإخفاء والإسرار . فيكون ذلك كنشر الثوب المطوى وإظهار الشىء الخفى ، فى شياع الأمر ، وانتشار الذكر . والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [١٦] . وأصل المرفق ماارتفق به . وهو مأخوذ من المرفقة . وهى التى يرتفق عليها ، أى يعتمد عليها بالمرفق .

ويقال مِرْفق ، ومَرْفِق بمعنى واحد . وقد قرىء بهما جميعا بمعنى واحد . فكأنه قال : يهيىء لكم من أمركم ماتعتمدون عليه وتستندون إليه ، ويكون لظهوركم عمادا ، ولأعضادكم سنادا .

وقوله سبحانه : ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ [١٧] . وفى هذه الآية استعارتان : أولاهما قوله تعالى فى ذكر الشمس : ﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ لأن التزاور أصله الميل ، وهو مأخوذ من الزَّور ، وهو الصدر . فكأنه سبحانه قال : إن الشمس تميل عن هذا الموضع ، كما يميل المتزاور عن الشىء بصدره ووجهه . ويبين بذلك عن موضع الكهف المشار إليه من جهات المشرق والمغرب أن الشمس لا يلحقهُ ثوبها عند الشروق ، ولا ينفض عليه[1] . . . آخر الغروب .

---

(١) هنا لفظة غير واضحة بالأصل .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ . وفى ذلك قولان : أحدهما أن يكون المراد أنها تقرضهم فى ذات الشمال ، أى أنها تجُوزهم عادلةً بمطرح شعاعها عنهم . من قولهم : قرضتُ الشىء بالمقراض . إذا قطعته به . والمقراض متجاوز لأجزائه أولا حتى ينتهى إلى آخره . والقول الثانى : أن يكون المراد أنها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرها بهم ، ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم . تشبيها بقرض المال الذى يعطيه المعطى ليسترده ، ويقدمه ليرتجعه . ومعنى قرض المال أيضا مأخوذ من القطع ، لأن المقرض يعطى للمقترض شقة من ماله ، وقطعة من حاله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [٢١] . وهذه استعارة . والمراد ـ والله أعلم ـ وكذلك أطلعنا عليهم . إلا أن فى لفظ الإعثار فائدة ، وهى مصادفة الشىء عن غير طلب له ولا إحساس به ، وهو « أفعلنا » من الإعثار . وأصله أن الساعى فى طريقه إذا صدَّ قدمَه ، أو نكب أصبعه شىء ، فى الأغلب أنه يقف عليه متأملا له ، وناظرا إليه . فكأنه استفاد علم ذلك من غير أن تتقدم معرفتُه به . ومن ذلك قول القائل لغيره : لأَعثُرنَّ عليكَ بخطيئة فأعاقبك . أى لأقفن على ذلك منك .

وعلى هـذا قوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾[١] . أى اطُّلِعَ على ذلك منهما ، واستفيد العلم به من باطن أمرهما .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [٢٢] . وهـذه استعارة لأن الرجم ههنا هو القذف بالظن ، والقولُ بغير علم . ومن عادة

---

(١) سورة المائدة . الآية رقم ١٠٧ .

العرب أن تسمى القائل بالظن راجماً وقاذفا ، وتسمى السّابّ الشاتم رامياً راجماً . ويقولون : هذا الأمر غيب مرجَّم . أى يرميه الناس بظنونهم ، ويقدرونه بحسابهم .

ومرَجَّم إنما جاء لتكثير العمل ، كأنه يرمى من ههنا ، ومن ههنا . وإنما سمى الظان راجما لأنه يوجه الظن إلى غير جهة مطلوبة ، بل يظن هذا ، ويظن هذا ، كالراجم الذى لا يعلم مواقع أحجاره إذا رمى بها فى الجهات . فتارة تقع يمينا وتارة تقع شمالا .

وقوله سبحانه : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [٢٨] وهذه استعارة . على أحد التأويلات فى هذه الآية . وهو أن يكون المراد بذلك : أننا تركنا قلبه غفلا من السّمات التى تتسم بها قلوب المؤمنين ، فتدل على زكاء أعمالهم ، وصلاح أحوالهم . كقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (١) وذلك تشبيه بالبعير إذا أُغفل فترك بلا سمة يُعرف بها ، على عادة العرب فى إقامة السّمات مقام العلامات المميزة بين أموالهم فى الموارد والمراعى وتعريف الضوالّ . وفى هذه الآية أقوال أُخر ، القول الذى قدمناه أدخلها فى باب الاستعارة . منها أن يكون معنى ﴿ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ أى نسبناه إلى الغفلة . كقول القائل أكفرتُ فلانا . إذا نسبته إلى الكفر ، وأبخلتهُ إذا نسبته إلى البخل .

ومنها أن يكون المراد : سميناه غافلا بتعرضه للغفلة ، فكأن المعنى : حكمنا عليه بأنه غافل . كما يقول القائل : قد حكمتُ على فلان بأنه جاهل . أى لما ظهر الجهل منه وَجَب هذا القول فيه .

ومنها أن يكون ذلك من باب المصادفة . فيكون المعنى : صادفنا قلبه غافلا . كقول

(١) سورة المجادلة . الآية رقم ٢٢

القائل أحمدتُ فلانا . أى وجدته محمودا . وذلك يؤول إلى معنى العلم . فكأنه تعالى قال : علمناه غافلا . وعلى هذا قول عمرو بن معد يكرب [١] لبنى سليم : (لله درُّكم يابنى سليم ! والله لقد قاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ، وسألناكم فما أبخلناكم) أى لم نصادفكم على هذه الصفات ، من الجبن عند النزال ، والبخل عند السؤال ، والعىّ عند المقال [٢] .

وعلى ذلك قول نافع [٣] بن خليفة الغنوىّ .

سألنا فأحمدنا ابنَ كلِّ مُرَزَّأٍ جوادٍ وأبخلنا ابنَ كلِّ بخيلِ

أى وجدنا هذا محمودا ، ووجدنا هذا بخيلا مذموما .

وفيما علقته عن قاضى القضاة أبى الحسين عبد الجبار [٤] بن أحمد ـ أدام الله توفيقه ـ عند قراءتى عليه كتابه الموسوم « بتقريب الأصول » فى أخريات من الكلام فى

---

(١) عمرو بن معديكرب الزبيدى كان فارسا من فرسان اليمن وصاحب غارات مشهورة . وفد على النبى عليه السلام سنة ٩هـ فأسلم وقومه ، ولما توفى النبى ارتد عن الإسلام ، ثم رجع إليه فحسن إسلامه وشهد واقعة القادسية وسائر الفتوح . ومن شعره قصيدته التى يقول فيها :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ماتستطيع

وتوفى سنة ٢١هـ على مقربة من مدينة الرى .

(٢) كان مقتضى الترتيب هنا أن يقول : من الجبن عند النزال ، والعى عند المقال ، والبخل عند السؤال ، ليصح التقسيم .

(٣) نافع بن خليفة الغنوى شاعر روى القالى قطعة من شعره فى « ذيل الأمالى » ص ١١٦ ، كما ذكر الجاحظ فى « البيان والتبيين » أبياتا من شعره جـ ١ ص ١٧٦ . وقد جهدت ـ بعد جهد العلامة عبدالعزيز الميمنى ـ فى معرفة شىء عنه فلم أوفق . ويقول عنه فى « سمط اللآلى » : (ونافع لم أعرفه ، ولاذكره الآمدى) جـ ٣ من السمط ص ٥٥ .

(٤) هو أبو الحسين الشافعى المعتزلى . وكان أحد شيوخ المؤلف . قرأ عليه فى مجازات القرآن وفى المجازات النبوية . وكان شيخ الاعتزال فى عصره . ويلقب بقاضى القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره . توفى بالرى سنة ٤١٥ . انظر الأعلام للزركلى ، والغدير جـ ٤ للأمينى ص ١٦٣ . وقد كان فى الأصل « أبو الحسن » فأصلحناه عن « الأعلام »

التعديل والتجوير ، أنه لو لم يكن الأمر على ماقلناه فى إغفال القلب من أن المراد بذلك مصادفته غافلا ، وكان على ماقاله الخصوم من أنه تعالى صدف به عن أمره ، وصرفه عن ذكره لوجب أن يقول سبحانه : فاتَّبَع هَوَاه . لقول القائل : أعطيته فأخذ ، وبسطته فانبسط ، وأكرهته فأذل . أى كانت هذه الأفعال منه مسببة عن أفعالى به . لأن هذا وجه الكلام فى الأغلب الأعرف . فلما جاء بالواو صار كأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . لأنه إذا وُجد غافلا فهو الذى غفل ، والفعل حينئذ له ومنسوب إليه .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [٢٩] . وفى هذه الآية استعارتان : أولاهما قوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ والسرادق هو الفسطاط المحيط به . فوصفه[١] ـ سبحانه ـ النار بالإحاطة والاشتمال فلا ينجو منها ناج ، ولا يُطلق منها عانٍ . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [٢] . أى حبسا تحصرهم ، وطَوْلاً تقصرهم ، ومثل قوله سبحانه ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ [٣] والمؤصدة : المغلقة المطبقة . من قولهم أوصدت الباب وأصدته[٤] . إذا أغلقته وأطبقته . وقرىء : عُمُد وعَمَد .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ مِثْلُ المراد فى قوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

---

(١) هكذا بالأصل . وهو تحريف من الناسخ صوابه « فوصف » .

(٢) سورة الإسراء . الآية رقم ٨ .

(٣) سورة الهمزة الآيتان ٨ ، ٩ .

(٤) ويقال أيضا آصد الباب على وزن أفعل مثل أصد بالتضعيف .

تشبيها بتمديد الأخبية والسرادقات بالأطناب ، و إقامتها على الأعماد .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ والمرتفق : المتكأ ، وهو مايعتمد عليه بالمرفق ، ومنه المرفقة وهى المخدّة . وذلك نظير قوله سبحانه : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [١] فلما جاء سبحانه بذكر السرادق جاء بذكر المرافق ، ليتشابه الكلام .

وروى عن بعضهم أنه قال : معنى مُرْتَفَقًا . أى مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى : وساءت مرافِقهُ . والمرافقة لا تكون إلا بالاجتماع جماعة . وهذا القول يُخرج الكلامَ عن حدّ الاستعارة فيُدْخلهُ فى باب الحقيقة . والوجه الأول أقوى . و يشهد له قوله سبحانه : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ ، نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [٣١] فجاء بذكر الارتفاق لما قدّم ذكر الاتكاء . وهذا أوضح [٢] مشاهد .

وقوله سبحانه : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [٣٣] . وهذه استعارة . لأن الظلم ههنا ليس على أصله فى اللغة ، ولا على عرفه فى الشريعة . لأنه فى اللغة اسم لوضع الشيء فى غير موضعه . وفى الشريعة اسم للضرر المفعول ، لا على وجه الاستحقاق ، ولا فيه استجلاب نفع ، ولا دَفْع ضرر .

والمراد بقوله تعالى ههنا : ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى لم تَمْنع منه شيئا . و إنما حسُن أن يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمرُ تلك الجنة التى هى البستان كالمستحق لمالكها . فإذا أخذ حقه على كماله وتمامه حَسُن أن يُقال : إنها لم تظلم منه شيئا . أى لم

---

(١) سورة الرعد . الآية رقم ٢٠ وفى سورة آل عمران . آية رقم ١٩٧ قوله تعالى « ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » فالآيتان متشابهتان إلا فى « ثم » بدلا من الواو .

(٢) هكذا بالأصل . ولعلها : واضح .

تمنع منه مستحقا ، فتكون فى حكم الظالم إذ أضرت بمالكها فى نقصان زروعها ، وإخلاف ثمارها . ومما يقوّى ذلك قوله سبحانه : ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ . أى أعطت أكلها . فلما جاء بلفظ الإعطاء حسُن أن يجىء بلفظ الظلم . ومعناه ههنا المنع . فكأنه تعالى قال : أعطت ما استحق عليها ، ولم تمنع منه شيئا .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [٥٦] وهذه استعارة . وأصل الدَّحض الزَّلَق . ومكانٌ دَحِضٌ : أى مزلق . فكأنه سبحانه قال : ليزلُّوا الحق بعد ثباته ، ويزيلوه عن مستقراته . فيكون كالكسير بعد قوته ، والمائل بعد استقامته .

وقوله سبحانه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [٥٧] . وهذه استعارة . لأن المراد بذكر اليدين ههنا ما كسبه الإنسان من العمل الذى يجر العقاب ، ويوجب النكال . ومثله فى القرآن كثير . كقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١) وذلك على طريقة للعرب معروفة . وهو أن يقولوا للجانى المعاقَب : هذا ماجنَتْ يداك . وهذا ما كسبت يداك . وإن لم تكن جنايته عملا بيد ، بل كانت قولاً بفم . لأن الغالب على أفعال الفاعلين أن يفعلوها بأيديهم ، فحمل الأمرُ على الأعرف ، وخرج على الأكثر . وعلى هذا المعنى تسمى النعمة يداً ، لأن المنعم فى الأغلب يُعطى بيده ما يُنعم به ، وإن لم يقع ذلك فى كل حال ، وإنما الحكم للأظهر ، والقول على الأكثر .

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ [٧٧] وهذه استعارة . لأن الإرادة على حقيقتها لاتصح على الجماد . والمعنى : يكاد أن ينقضّ ، أى

---

(١) سورة آل عمران . الآية رقم ١٨٢ .

يقارب أن ينقضّ . على التشبيه بحال من يُريد أن يفعل فى البانى ، لأنه لما ظهرت فيه أمارات الانقضاض ، من ميل بعد انتصاب ، واضطراب بعد ثبات ، حَسُنَ أن يطلق عليه إرادة الوقوع ، على طريقة الاتساع [١] .

وترِدُ فى كلامهم كاد بمعنى أراد ، وأراد بمعنى كاد . وجاء فى القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [٢] أى أردنا ليوسف .

وقوله سبحانه . ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [٣] معناه ـ على أحد الأقوال ـ أريد أخفيها . ومما ورد فى أشعارهم شاهدا على ذلك قول عمر بن أبى ربيعة :

كادت وكدتُ ، وتلك خير إرادة ... لو عاد من لهو الصَّبابة مامضى [٤]

فقال : وتلك خير إرادة ، والإشارة إلى كادتْ ، وكدتُ .

وأوضح من هذا قول الأفوه الأودى [٥]

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ ... وَسَاكِنٌ بَلَغُوا ٱلْأَمْرَ الذى كادوا

أى الذى أرادوا .

---

(١) فى الأصل . « الأتساع » وهو تحريف من الناسخ .

(٢) سورة يوسف . الآية رقم ٧٦ .

(٣) سورة طه . الآية رقم ١٥ .

(٤) هذا البيت لم ينسب لقائله فى « شرح شواهد الكشاف » المسمى « تنزيل الآيات ، على الشواهد من الأبيات » للعلامة محب الدين أفندى ،ولم ينسبه القرطبي لأحد وإنما نقل عن الأنبارى قوله : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر ـ انظر « جامع أحكام القرآن » ج ١١ ص ١٨٤ .

(٥) هو صلاءة بن عمرو بن مالك . وهو شاعر يمانى جاهلى اشتهر بالسيادة والقيادة . وهذا البيت من قصيدة مشهورة يقول فيها :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سـادوا

وقبل بيت الشاهد هذا البيت :

والبيت لايبتنى إلا له عمد ... ولا عماد إذالم ترس أوتاد

وقد نسبه صاحب « شواهد الكشاف » للراقدة الأودى، وهو تحريف مطبعى ، لأن مثل هذا لايخفى على العلامة محب الدين .

فأما قول الشاعر [١] .

يُرِيد الرمْحُ صَدْرَ أبى براء وَيَرْغَبُ عَن دِمَاء بَنِى عقيل

فليس يصح حمله على مقاربة الفعل ، كما قلنا فى قوله سبحانه : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ ﴾ لأنه لايستقيمُ على الكلام أن يقول : يكاد الرمح صدر أبى براء . وإنما ذلك على سبيل الاستعارة ، لأن صاحب الرمح إذا أراد ذلك كان الرمح كأنه مريد له . فأما قول الراعى يصف الإبل :

فِي مَهْمَــهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتها فَلْقَ ٱلْفُؤُوس إِذَا أَرَدْنَ نصولا [٢]

فإنه بمعنى مقاربة الفعل ، لأن الفؤوس إذا فلقت فى نُصبها قاربت أن تسقط ، فجعل ذلك كالإرادة منها . والنصول ههنا مصدر نَصَلَ نُصُولاً ، مثل وقع وقوعا . وهذا البيت من أقوى الشواهد على الآية .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [٩٩] وهذه استعارة . لأن أصل المَوَجَان من صفات الماء الكثير ، وإنما عبَّر سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم ودخول بعضهم فى بعض لكثرة أضدادهم ، تشبيها بموج البحر المتلاطم ، والتفاف الدبا [٣] المتعاظل .

(١) لم ينسب هذا البيت لقائله فى « جامع أحكام القرآن » ج ١١ ص ٢٦ ، وكذلك لم ينسبه ابن مطرف الكنانى فى كتابه « القرطين » طبع الخانجى ص ٢٦٩ واكتفى بما أنشده السجستانى عن أبى عبيدة . وكذلك لم ينسبه ابن قتيبة فى « تأويل مشكل القرآن » ولا « لسان العرب » . وأبو براء هو عامر بن مالك ولقبه ملاعب الأسنة . وترى أخباره فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة صفحات ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٩٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ . وقد كان البيت فى الأصل : « تريد الريح . . . الخ » فأصلحناه عن القرطبي وابن مطرف الكنانى .

(٢) لم ينسب هذا البيت لقائله فى القرطبي ج ١١ ص ٢٦ .

(٣) الدبا : الجراد الصغير ، أو النمل . والمتعاظل : المتراكب بعضه فى بعض

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ [١٠١] وهذه استعارة . وليس المراد أن عيونهم على الحقيقة كانت فى غطاء يسترها وحجاز يحجزها . وإنما المعنى أنهم كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، أو تعرض لهم العبر فلا ينظرون . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ عَنْ ذِكْرِي ﴾ لأن الأعين لاتوصف بأنها فى غطاء عن ذِكْر الله تعالى ، لأن ذلك من صفات ذوى العيون . وإنما المراد أن أعينهم كانت تذهب صفحا عن مواقع العبر ، فلا يفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، فيذكرون الله سبحانه عند إجالة أفكارهم ، وتصريف خواطرهم . وهذا من غرائب القرآن وعجائبه ، وغوامض هذا الكلام ومناسبه .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [١٠٤] وهذه استعارة . وأصل الضلال ذهاب القاصد عن سَنَن [1] طريقه . فكأنّ سعيهم لما كان فى غير الطريق المؤدية إلى رضا الله سبحانه ، حَسُن أن يُوصَفَ بالضلال ، والعدول عن سنن الرشاد .

وقوله سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ [2] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [١٠٥] . وفى هذه الآية استعارتان إحداهما قوله سبحانه : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ وتأويل لقائه ههنا على وجهين : أحدهما أن يكون فيه مضاف محذوف . فكأنه تعالى قال : ولقاء ثوابه وعقابه . أو جنّته وناره . والوجه الآخر أن يكون معنى ذلك رجوعهم إلى دار لاأمر فيها لغير الله سبحانه . فيصيرون إليها من غير أن يكون لهم عنها محيص ، أودونها محيد . وذلك مأخوذ من مقابلتك الشىء من غير أن تصرف عنه وجهك يمينا ولا شمالا .

---

(١) فى الأصل « سر » وهو تحريف من الناسخ .
(٢) فى الأصل بدئت الآية بغير لفظة أولئك وهو تحريف من الناسخ .

يقول القائل : لقيتُ فلانا . أى قابلته بجملتى . وتقول : دارى تلقاه دارِ فلان . أى مقابلتها . فكانت كل واحدة منها كالمقبلة على الأخرى . فلما كان لأحد يوم القيامة يستطيع انصرافا عن الوجهة التى أمَر الله سبحانه بجمع الناس إليها ، وحشرهم نحوها ، سُمِّى ذلك لقاء الله سبحانه على السّعة والمجاز .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ والمراد بذلك – والله أعلم – أنا لانجد لهم أعمالا صالحة تثقل(1) بها موازينهم يوم القيامة . والميزان إذا كان ثقيلا سُمِّى مستقيما ، وقائما . وإذا كان خفيفا سُمِّى عادلا ، ومائلا .

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لااعتداد بهم ، ولا نباهة لذكرهم فى يوم القيامة . كما يقال فى التحقير للشىء : هذا لاوزن له ولا قيمة . وكما تقول : فلان عندى بالميزان الراجح ، إذاكان كريما عليك ، أو حبيبا إليك .

---

(١) فى الأصل : يثقل بالياء وهى تحريف .

ومن السورة التى يذكر فيها
« مريم عليها السلام »

قوله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [٤] وهذه من الاستعارات العجيبة . والمراد بذلك : العبارة عن تكاثر الشَّيْب فى الرأس حتى يقهر بياضه ، وينصل سواده .

وفى هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشيب وتزيُّده وتلاحُق مَدَدِهِ ، حتى يصير فى الإسراع والانتشار كاشتعال النار ، يعجز مُطفيه، ويُغلب متلافيه .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [٢٣] . وهذه استعارة . والمعنى : فجاء بها المخاض ، أو ألجأها المخاض إلى جذع النخلة ، لتجعله سنادا لها ، أو عمادا لظهرها . وهى التى لجأت إلى النخلة ، ولكنَّ ضَرْب المخاض لما كان سببا لذلك ، حَسُن أن يُنسب الفعل إليه فى إلجائها ، والمجىء بها

وقوله سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [٥٠] وهذه استعارة . والمراد بذكر اللسان ههنا ـ والله أعلم ـ الثناء الجميل[١] الباقى فى أعقابهم ، والخالف فى آبائهم[٢] . والعرب تقول : جاءنى لسان فلان . يريد مدحه أو ذمه . ولما كان مصدر المدح والذم عن اللسان عبروا عنهما باسم اللسان .

وإنما قال سبحانه : ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ . إضافةً للسان إلى أفضل حالاته ، وأشرف متصرفاته ، لأن أفضل أحوال اللسان أن يُخبر صدقا ، أو يقول حقا .

---

(١) فى الأصل : (الجل) وهو تحريف من الناسخ .
(٢) أى الباقى فى آبائهم .

ومن السورة التي يذكر فيها

موسى عليه السلام وهى « طه »

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [١٥] وهـذه استعارة على أحد التأويلين . وهو مما سمعته من شيخنا أبى الفتح النحوى[١] ، عفا الله عنه . قال : الذى عليه حُذَّاق أصحابنا: أنَّ كاد ههنا على بابها من معنى المقاربة . إلا أن قوله تعالى : أُخْفِيها يؤول إلى معنى الإظهار . لأن المراد به : أكاد أسْلُبها خفاءها . والْخفاء: الغشاء والغِطاء . مأخوذ من خَفَاء[٢] القربة ، وهو الغشاء الذى يكون عليها .

فإذا سُلبَ عن الساعة غطاؤها المانع من تجليها ظهرت للناس فرأوها . فكأنه تعالى قال: أكاد أُظهرها . قال لى : وأنشدنى أبو على[٣] منذ أيام بيتا هو من أنطق الشواهد على الغرض الذى رمينا . وكان سماعى ذلك من أبى الفتح رحمه الله ، وأبو على حينئذ باق لم يمت . وهو قول الشاعر[٤] .

لقد عَلِمَ ٱلْأَيْقَاظُ أخفية الـكرى   تَزَجُّجَهَا من حَالك واكتِحَالَهَا

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنى إمام النحو المشهور وأستاذ المؤلف ، وقد سبق تعريفنا به فى هوامش مجازات سورة التوبة .

(٢) الخفاء : الغطاء : وجمعه أخفية .

(٣) أبو على هو أبو على الفارسى ، واسمه الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ، كان إماما فى العربية . وكان يسأل فى كل بلد يحل فيه عن مسائل من اللغة والنحو والصرف فيجيب إجابات سديدة . وصنف فى أسئلة كل بلد كتابا . وقد تعاصر المؤلف وابن جنى وأبو على الفارسى . وكان المؤلف شابا ناشئا حين تقدمت السن بأبى على الفارسى الذى توفى سنة ٣٧٧ ﻫ على حين أن الشريف الرضى ولد سنة ٣٥٩ ﻫ .

(٤) هذا البيت لم يذكره قائل . وهو من أبيات الشواهد فى « لسان العرب » ولم ينسب لقائله . وأخفية النور: أكنه . وأخفية الـكرى : الأعين .

ومعناه : لقد علم الأيقاظ عيونا . فجعل العين للنوم فى أنها مشتملة عليه ، كالخفاء للقربة فى أنه مشتمل عليها .

وقول الشاعر : أخفية الكرى من الاستعارات العجيبة ، والبدائع الغريبة . وقوله : تَزجُّجَها من حالك واكتحالها . يعود على العيون . كأنه قال : تَزَجُّجَ العيون واكتحالها من سواد الليل . وهذا لا يكون إلا مع السهر وامتناع النوم ، لأن العيون حينئذ بانفتاحها تكون كالمباشرة لسواد الظلماء ، فيكون كالكُحل لها .

والتزجُّجُ : اسوداد العينين من الكحل . يقال : زجَّجت (١) المرأة عينها وحاجبها . إذا سودتهما بالإثمد .

وعلى التأويل الآخر يبعد الكلام عن طريق الاستعارة . وهو أن يكون أكاد ههنا بمعنى أريد ، كما قلنا فيما مضى (٢) . ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر :

أمنخرم شعبان لم تقض حاجة ... من الحاج كنا فى الأصم (٣) نكيدها

أى كنا نريدها فى رجب . ويكون « أخفيها » على موضوعه من غير أن يعكس عن وجهه . ويكون المعنى : إن الساعة آتية أريد أستر وقت مجيئها ، لما فى ذلك من المصلحة . لأنه إذا كان المراد بإقامتها المجازاة على الأفعال ، والمؤاخذة بالأعمال ، كانت

---

(١) ومنه قول الشاعر الراعى النميرى :

إذا ما الغانيات برزن يوما ... وزججن الحواجب والعيونا

وهذا البيت من شواهد النحو فى باب المفعول معه . انظر « أوضح المسالك ، إلى ألفية ابن مالك » الشاهد ٢٥٩ .

(٢) فى الآية رقم ٧٧ من سورة الكهف .

(٣) الأصم : شهر رجب . وسمى بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت السلاح لكونه شهرا حراما . انظر لسان العرب . وقال الخليل : إنما سمى بذلك لأنه كان لايسمع فيه صوت مستغيث ، ولا حركة قتال ، ولا قعقعة سلاح ، لأنه من الأشهر الحرم

الحكمة فى إخفاء وقتها ، ليكون الخلق فى كل حين وزمان على حذر من مجيئها ، ووَجَلٍ من بغتتها[1] ، فيستعدوا قبل حلولها ، ويمهدوا قبل نزولها .

ويقوى ذلك قوله سبحانه : ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [١٥] .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [٢١] وهذه استعارة . لأن المراد بالسيرة ههنا الطريقة والعادة . وأصل السيرة مضىُّ الإنسان فى تدبير بعض الأمور على طريقة حسنة أو قبيحة . يقال : سار فلان الأميرُ فينا سيرة جميلة . وسار بنا سِيرة قبيحة . ولكن موسى عليه السلام لما كان يصرف عصاه ـ قبل أن تنقلب[2] حية ـ فى أشياء من مصالحه ، كما حكى سبحانه عنه بقوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي[3] وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ [١٨] ثم قلبت حية ، جاز أن يقول تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ أى إلى الحال التى كنت تصرفها معها فى المصالح المذكورة ، لأن تصرفها فى تلك الوجوه كالسيرة لها ، والطريقة المعروفة منها . والمراد : سنعيدها إلى سيرتها الأولى . فانتصبت السيرة بإسقاط الجار[4] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [٢٢] وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ وأدخل يدك فى قميصك مما يلى إحدى جهتى يديك . وسميت تلك الجهتان جناحين ، لأنهما فى موضع الجناحين من الطائر . ويوضح عما ذكرنا قوله سبحانه فى مكان آخر : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾[5] والجيب فى جهة إحدى اليدين .

---

(١) فى الأصل : بغتها ، وهو تحريف من الناسخ .
(٢) فى الأصل : (تغلب) وهى تحريف .
(٣) سورة طه . الآية رقم ١٨ .
(٤) إذا نزع الخافض ، أو سقط الجار انتصب الاسم بعده بدلا من جره .
(٥) سورة النمل . الآية رقم ١٢ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [٢٧] ، [٢٨] وهذه استعارة . والمراد بها إزالة لفف[1] كان فى لسانه ، فعبر عنه بالعقدة . وعبر عن مسألة إزالته بحل العقدة ، ملاءمة بين النظام ، ومناسبةً بين الكلام .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك إزالة التقية عن لسانه وكفايته سطوة فرعون وغواته ، حتى يؤدى عن الله سبحانه آمنا ، ويقول متمكنا ، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة . وذلك كقول القائل : لسان فلان معقود : إذا كان خائفا من الكلام . ولسانُ فلان منطلق : إذا كان مقداما على المقال .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [٣٩] . وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قوله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ وليس المراد أن هناك شيئاً يُلقَى عليه فى الحقيقة ، ولكن المعنى أننى جعلتك بحيث لا يراك أحد إلا أحبك ، ومال قلبه نحوك ، حتى أحبك فرعون وامرأته ، فتبنّياك وربّياك ، واسترضعا لك، وكفلاك . وهذا كقول القائل : على وجه فلان قبول . وليس هناك على الحقيقة شىء يومأ إليه . إلا أن كل ناظر ينظر إليه يقبله ، قلبه وتسر به نفسه .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ والمراد بذلك ــ والله أعلم ــ أن تتربى بحيث أرعاك وأراك . وليس أن ههنا شيئاً يغيب عن رؤية الله سبحانه ، ولكن هذا الكلام يفيد الاختصاص بشدة الرعاية ، وفرط الحفظ والكلاءة[2] . ولما كان الحافظ للشىء فى الأغلب يديم مراعاته بعينه ، جاء تعالى باسم العين بدلا من ذِكْر الحفظ والحراسة ، على طريق المجاز والاستعارة .

---

(١) اللفف : التواء عصب فى اللسان يعطله عن الكلام .
(٢) فى الأصل «والكلاية» والصواب همزها .

ويقول العربى لغيره : أنت منى بمرأى ومسمع . يريد بذلك أنه متوفر عليه برعايته ، ومنصرف إليه بمراعاته .

وقوله سبحانه : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[٤١]وهذه استعارة . والمراد بها : واصطنعتك لتبلغ رسالتى ، وتتصرف على إرادتى ومحبتى، وقال بعضهم : معنى لنفسى ههنا : أى لمحبتى . وإنما جاز أن يوقع النفس موقع المحبة لأن المحبة أخص شىء بالنفس ، فحسن أن تسمى بالنفس . وقد[١] يجوز أن يكون ذلك على معنى قول القائل : اتخذت هذا الغلام لنفسى ، أى جعلته خاصاً لخدمتى ، لا يشاركنى فى استخدامه أحد غيرى . وسواء قال : اتخذتهُ أو اتخذته لنفسى ، فى فائدة الاختصاص ، ليس أن هناك شيئاً يتعلق بالنفس على الحقيقة .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [٥٠] وهذه استعارة على أحد التأويلين . والمراد بها ــ والله أعلم ــ أنه أكمل لكل شىء صورته ، وأتقن خلقته ، وهذا يعم كلّ مصوّر من حيوان وجماد وغير ذلك . فلا معنى لحمل مَنْ حمله على الحيوان فقط .

وعندى فى ذلك وجه آخر ، وإن كان الكلام يخرج به من باب الاستعارة . وهو أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير . فكأنه سبحانه قال : ربُّنا الذى أعطى خلقه كل شىء ، ثم هداهم إلى مطاعمهم ومشاربهم ، ومناكحهم ، ومساكنهم وغير ذلك من مصالحهم . ويكون ذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [٢] . ويكون المراد أنه سبحانه أعطى خلقه فى أول خلقهم

(١) فى الأصل « فقد » ولا معنى للعطف بالفاء هنا .

(٢) سورة إبراهيم . الآية رقم ٣٤ .

كلَّ[1] ما تزاح به عللهم ، ويتكامل معه خلقهم، من سلامة الأعضاء ، واعتدال الأجزاء، وترتيب المشاعر والحواس ، ومواقع الأسماع والأبصار ، ثم هداهم من بعد لمصالحهم ، ودلهم على منا كحهم ، وأجراهم فى مضمار التكليف إلى غاياتهم .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [2] [٥٣] وقد قُرِىء مَهْدًا . وهذه استعارة . والمراد بها تشبيه الأرض بالمهاد المفترش ، ليمكن الاستقرار عليها ، والتقلب فيها . وقد مضى نظير هذه الاستعارة فيما تقدم . ومعنى المهاد والمهد واحد . وهو مثل الفرش والفِراش . إلا أن المهد ربما استعمل فى رسم الآلة التى يُجعل فيها الصبى الصغير ليحفظه ، وهو يؤول إلى معنى الفِراش . والمَهْدُ أيضا : مصدر مَهَدَ ، يمهد ، مَهْدا . إذا مكَّن موضعا لقدمه ، ومضجعا لجنبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [١١١] وهذه استعارة . والمراد بها مايظهر فى الوجوه يوم القيامة من آثار الضرع ، وأعلام الجزع . وذلك مأخوذ من تسميتهم الأسير « العانى » . ومنه ماجاء فى بعض الكلام : النساء عَوَانٍ عند أزواجهن . أى أُسراء فى أيدى الأزواج . وعلى ذلك قولُ القائل : هذه المرأة فى حبال فلان . لأنه بما عَقَده من نكاحها كالآسر[3] لها ، والمالِكِ[4] لرقها . فكأن الوجوه خضعت من خشية الله تعالى خضوع الأسير الذليل ، فى يد الآسر العزيز .

---

(١) كتبها الناسخ « كلا » موصولة ، ولا محل للوصل هنا . فإن كل مضافة إلى ما التى بمعنى الذى.
(٢) قرأ الكوفيون هنا وفى سورة الزخرف : مهدا ، أى كالمهد . وقرأ الباقون : مهادا وهو اسم مايمهد كالفراش أو جمع مهد . انظر « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوى ج ٤ ص ٢٤ .
(٣) فى الأصل : (كالأسر) وهو تحريف من الناسخ .
(٤) فى الأصل : (والملك) وهو تحريف أيضا .

ومن السورة التى يذكر فيها

«الأنبياء عليهم السلام»

قوله سبحانه : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [١١] وحقيقة القصْم كَسْر الشىء الصلب . وجُعل ههنا مستعارا للعبارة عن إهلاك الجبارين من أهل القرى أصْلبَ ما كانوا عيدانا ، وأمنعَ أركانا .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [١٥] وفى هذه الآية استعارتان . لأنه سبحانه جعل القوم الذين أهلكهم بعذابه بمنزلة النبات المحصود ، الذى أُنيم بعد قيامه ، وأُهمد بعد اشتطاطه واهتزازه

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ خَامِدِينَ ﴾ والخمودُ من صفات النار ، كما كان الحصيد من صفات النبات . فكأنه سبحانه شبَّه همود أجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها. وقد يجوز أيضا ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد تشبيههم بالنبات الذى حُصد ثم أحرق . فيكون ذلك أبلغَ فى صفتهم بالهلاك والبوار ، وامِّحاء المعالم والآثار . لاجتماع صفتى الحصد والإحراق. وقال سبحانه : ﴿ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ . ولم يقل خامدا ، كما قال تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (١) ولم يقل خاضعة . لأنه سبحانه ردَّ معنى خاضعين علىْ أصحاب الأعناق ، لا على الأعناق . وكذلك يجوز رد معنى خامدين على القوم الذين أهلكوا ، لا على النبات الذى به شبِّهوا .

---

(١) سورة الشعراء . الآية رقم ٤ .

وقيل معنى : ﴿ حَتَّى[1] جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى سلطنا عليهم السيف يختليهم كما تُختلى الزروع بالمنجل . وقد جاء فى الكلام : جعله الله حصيد سيفك ، وأسير خوفك .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [١٨] . وهذه استعارة . لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة ، التى يُرجم بها ، كالحجارة وغيرها . فجعل ـ سبحانه ـ إيراد الحق على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل ، الذى يرضُّ ماصكَّهُ ، ويدمغ مامَسَّهُ . ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على الباطل وَفَّى الاستعارة حقها ، وأعطاها واجبها ، فقال سبحانه : ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ولم يقل فيذهبه ويبطله . لأن الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء . فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه . والدماغُ مَقْتَلٌ . ولذلك قال سبحانه من بعد : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ والزاهق : الهالك .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [٣٠] . وهذه استعارة . لأن الرَّتْق هو سد خصاصة[2] الشىء . ويقال : رَتَق فلانٌ الفتق . إذا سَدَّهُ . ومنه قيل للمرأة : رتقاء . إذا كان موضع مَرِّها من الذَّكَر ملتحما . وأصل ذلك مأخوذ من قولهم : رَتَق فَتْقَ الخباء والفسطاط وما يجرى مجراها . إذا خاطه . فكأن السموات والأرض كانتا كالشىء المَخِيطِ الملتصق بعضه ببعض ، ففتقهما سبحانه ، بأن صدع مابينهما بالهواء الرقيق ، والجو الفسيح .

---

(١) فى الأصل : (فجعلناهم) وهو تحريف من الناسخ ، لأن الآية التى يبين المؤلف المجاز فيها هى قوله تعالى : « فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

(٢) فى الأصل « حصاصه » بدون نقط .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ صلوات الله عليه وآله ـ معنى أن السموات كانت لاتمطر، والأرض لاتنبت . ففتق الله سبحانه السماء بالأمطار ، والأرضَ بالنبات(١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [٣٢] وهذه استعارة . لأن حقيقة السقف ماأظلَّ الإنسان ، من علو بيت أو خباء ، أو مايجرى مجرى ذلك . فلما كانت السماء تظل من تحتها ، وتعلو على أرضها ، حَسُنَ أن تسمّى(٢) سقفا لذلك . ومعنى محفوظا : أى تحفظ(٣) مما لايمكن أن تحفظ من مثله سائر السقوف ، من الانفراج والانهدام والتشعث والاسترمام . وقد قيل : معنى ذلك حِفظُ السماء من مَسارق السمع ، وتحصينها بمقاذف الشهب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [٣٣] . وهذه استعارة . لأن أصل السبح هو التقلب والانتشار فى الأرض . ومنه السباحة فى الماء . ولا يكون ذلك إلا من حيوان يتصرف . ولكن الله سبحانه لما جعل الليل والنهار والشمس والقمر مسخرة للتقلب فى هذا الفلَكَ الدائر والصفيح السائر ، تتعاقب فيه وتتغاير ، وتتقارب وتتباعد ، حَسُنَ أن يعبَّر عنها بما يعبر به عن الحيوان المتصرف، وزيدت على ذلك شيئا ، فعبر عنها بالعبارة عن الحيوان المميز . فقيل : يسبحون ، ولم يقل : تسبح ، لأنها فى الجرى على الترتيب المتقن والتقدير المحكم أقوى تصرفا من الحيوان غير المميز . ولأن الله سبحانه أضاف إليها الفعل على تدبير مايعقل ، فحسُن أن يعبر عنها بالعبارة

---

(١) نسب الشريف الرضى هذا الكلام للأمام على بن أبى طالب . وهذا التفسير منسوب لابن عباس رضى الله عنه ، كما ذكرنا ذلك فى مقدمة الكتاب ، وانظر « مناهل العرفان فى علوم القرآن » للزرقانى ج ١ ص ٤٨٣ . ورواية الإمام السيوطى فى « الإتقان » تؤيد قولنا ، انظر ص ١٨٧ ج ٢ من كتاب « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى .

(٢) فى الأصل : يسمى بالياء وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : (يحفظ) بالياء وهو تحريف .

عما يعقل مثل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (١) . ومثل قوله سبحانه : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ (٢) فقال : ادخلوا ولم يقل ادخُلن. لأن خطابها لما خرج على مخرج خطاب من يعقل كان الأمر لها على مثال أمر من يعقل . وقد مضى الكلام على ذلك فيما تقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [٣٧] . وهذه استعارة . والمراد أن الإنسان خلق مستعجلا بطلب (٣) مايؤثره ، واستطراف مايحذره . والله سبحانه إنما يعطيه ماطلب ، ويصرف عنه مارهب ، على حسب مايعلمه من مصالحه ، لاعلى حسب مايسنح من مآربه .

وقيل ذلك على طريق المبالغة فى وصف الإنسان بالعجلة ، كما يُقال فى الرجل الذكى : إنما هو نار تتوقد ، وللإنسان البليد : إنما هو حجر جلمد .

فأما من قال من أصحاب التفسير: إن العَجَل ههنا اسم من أسماء الطين ، وأورد عليه شاهدا من الشعر ، فلا اعتبار بقوله ، ولا التفات إلى شاهده ، فإنه شعر مولد (٤) وقول فاسد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [٤٦] . ولفظ النفحة ههنا مستعار . والمراد بها إصابة الشىء اليسير من العذاب .

---

(١) سورة يوسف . الآية رقم ٤ .
(٢) سورة النمل . الآية رقم ١٨ .
(٣) فى الأصل : (يطلب) بالياء المثناة التحتية . وهو تحريف .
(٤) أما الشعر الذى أنشدوه ليثبتوا به أن العجل هو الطين ، فهو قول الشاعر :

والنبع فى الصخرة الصماء منبته　　　والنخل ينبت بين الماء والعجل

انظر « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى ج ١١ ص ٢٨٩ .

يقال : نَفَحَ فلان فلانا بيده . ونَفَحَ الفَرَسُ فلانا بحافره. إذا أصابه إصابةً خفيفة ، ولم يبلغ فى إيلامه الغاية . فكأن النفحة ههنا قدْر يسير من العذاب ، يدل واقعه على عظيم متوقعه [1] ، [و] شاهده على فظيع غائبه .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ، لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ [٦٥] وهذه استعارة . والمراد بها وصف مالحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة ، فكأنهم شُبِّهوا بالمتردى على رأسه ، تدويخا بنصوع البيان ، وإبلاسا عند وضوح البرهان .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [٧٤] ولفظ القرية ههنا مستعار . والمراد به الجماعة التى كانت تعمل الخبائث من أهل القرية . وكشف سبحانه عن ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ وفى هذا الكلام خبر عجيب ، لأنه تعالى جعل مايلى لفظ القرية مؤنثا ، إذ كانت مؤنثة ، فقال : ﴿ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ . وجعل بقية الكلام مذكرا ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ لأن المراد به مذكر ، فصار الكلام فى الآية على قسمين : قسم عائد إلى اللفظ ، وقسم عائد على المعنى . وهذا من عجائب القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [٧٩] ويسبح ههنا استعارة . وقد مضى من الكلام فى « الرعد » على قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [2] ماهو بعينه تأويل تسبيح الجبال ههنا . وقد قيل فى ذلك وجه آخر يخرج به

---

(١) فى الأصل بدون واو . وقد أثبتناها بين حاصرتين ، لأن بها يستقيم نسق الكلام .

(٢) سورة الرعد الآية رقم ١٣ .

الكلام من حد الاستعارة . وهو أن يكون قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ههنا مأخوذا من التسبيح ، وهو الإبعاد فى السير ، والتصرف فى الأرض. لا من التسبيح . فكأنه تعالى قال : وسخّرنا مع داود الجبال يسرْن فى الأرض معه ، ويتصرفن على أمره، طاعةً له . ونظير ذلك قوله سبحانه فى « سبأ » : ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [1] أى سيرى معه . والتأويب السير .

وإنما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ عبارة عنها بتكثير الفعل من السَّبْح .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا ﴾ [2] أى تصرفا ومتسعا . ومجالا ومنفسحا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ [٩١]. وهـذه استعارة . والمراد ههنا بالروح : إجراء روح المسيح عليه السلام فى مريم عليها السلام ، كما يجرى الهواء بالنفخ . لأنه حصل معها من غير عُلُوق من ذكرٍ ، ولا انتقال من طبَق إلى طبق . وأضاف تعالى الروح إلى نفسه ، لمزية الاختصاص بالتعظيم ، والاصطفاء بالتكريم . إذ كان خلقه المسيحَ عليه السلام ، من غير توسط مناكحة ، ولا تقدم ملامسة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [٩٣] . وهذه استعارة . والمراد بها : أنهم تفرقوا فى الأهواء ، واختلفوا فى الآراء ، وتقسمتهم المذاهب ، وتشعبت بهم الولائج [3] . ومع ذلك فجميعهم راجع إلى الله سبحانه، على أحد وجهين :

---

(١) سورة سبأ . الآية رقم ١٠ .
(٢) سورة المزمل . الآية رقم ٧ .
(٣) الولائج : جمع وليجة، وهى بطانة الإنسان ومن يتخذه معتمدا عليه من غير أهله .

إمّا أن يكون ذلك رجوعا فى الدنيا . فيكون المعنى : أنهم وإن اختلفوا فى الاعتقادات صائرون إلى الإقرار بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم ، ومصرفهم ومدبرهم . أو يكون ذلك رجوعا فى الآخرة ، فيكون المعنى أنهم راجعون إلى الدار التى جعلها الله تعالى مكان الجزاء على الأعمال ، وموقِفَ الثواب والعقاب ؛ و إلى حيث لا يحكم فيهم ، ولا يملك أمرهم إلا الله سبحانه .

وشبَّه تخالُفهم فى المذاهب ، وتفرقهم فى الطرائق ، مع أن أصلهم واحد ، وخالقهم واحد ، بقوم كانت بينهم وسائل متناسجة ، وعلائق متشابكة ، ثم تباعدوا تباعدا قطع تلك العلائق ، وشذب تلك الوصائل ، فصاروا أخيافا[١] مختلفين ، وأوزاعا[٢] مفترقين .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [٩٨] هذه استعارة . لأن الحصب هو مايرمى به من الحصْباء ، وهى الحصا الصغار . يقال : حَصَبَ فلانٌ فلانا . إذا قذفه بالحصا . ويقولون : حَصَّبْنَا ٱلْجِمَارَ . أى قذفنا فيها بالحصَبَات[٣] . فشبَّه سبحانه قذفهم فى نار جهنم بالحصباء التى يُرْمَى بها . من ذُلِّ مَقاذفهم ، وهَوَانِ مَطَارحهم .

وفى ذلك أيضا معنىً لطيف ، وهو أنه سبحانه لما قال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ والمراد ههنا — والله أعلم — بما تعبُدُون : الأصنام ، والأغلب

---

(١) الأخياف : المختلفون . يقال : هم إخوة أخياف ، أى أمهم واحدة والآباء شتى .

(٢) الأوزاع : الجماعات . ولا واحد لها .

(٣) فى الأصل « بالحصيات » بالياء المثناة التحتية . وهو تحريف ، والصواب بالحصبات . بالباء الموحدة التحتية .

عليها أن تكون[1] من الحجارة ، حَسُنَ أن يسمَّى الرمى بها فى نار جهنم حَصَبًا ، وتسميتها حَصَبا إذ كانت حجارة ومن جنس الحصباء ، وجاز أن يُسَمَّى قذف العابدين لها فى النار أيضا بذلك ، حملا على حكمها ، وإدخالا فى جملتها.

والفائدة فى قذف الأصنام مع عابديها فى نار جهنم أن يكون من زيادات عقابهم ، ورجحانات عذابهم ، لأنهم إذا كثرت مشاهدتهم لها فى أحوال العذاب كان ذلك أعظم لحسرتهم على عبادتها ، وندمهم على الدعاء إليها .

وقد قيل أيضا إنهـا إذا حميت بوقود النار ـ نعوذ بالله منها ـ لصقت بأجسامهم ، فكانت من أقوى أسباب الإيلام لهم . وعلى هذا التأويل حَمَل جماعة من المفسرين قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[2]

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾[3] . وهذه استعارة والمراد بها على أحد القولين : إبطال السماء ونقض بِنْيَتِهَا ، وإعدام جملتها . من قولهم : طَوَى الدَّهر آل فلان . إذا أهلكهم[4] ، وعفَّى آثارهم . وعلى القول الآخر يكون الطَّىُّ ههنا على حقيقته فيكون المعنى : إن عَرْض السموات يُطوى[5] حتى يجتمع بعد انتشاره ، ويتقارب بعد تباعد أقطاره . فيصير كالسجل المطوى ، وهو ما يُكتب فيه من جلد ، أو قرطاس ، أو ثوب ، أو ما يجرى مجرى ذلك . والكتابُ ههنا مصدرٌ ، كقولهم :

(١) فى الأصل : (أن يكون) وهو تحريف من الناسخ .

(٢) سورة البقرة . الآية رقم ٢٤ .

(٣) « للكتاب » بالإفراد ، هى قراءة نافع أما قراءة الجمع « للكتب » فهى قراءة حفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف

(٤) فى : الأصل (أهلكم) وهو تحريف من الناسخ .

(٥) فى الأصل : (تطوى) وهو تحريف .

كتبتُ ، كتابةً ، وكتاباً ، وكَتْبًا . فيكون المعنى : يوم نطوى السماء كطى السجل ليكتب فيه ، فكأنه قال تعالى : كطى السجل للكتابة ، لأن الأغلب فى هذه الأشياء التى أومأنا إليها أن تطوى قبل أن تقع الكتابة فيها ، لأن ذلك الطى أبلغ فى التمكن منها .

ومن السورة التى يذكر فيها « الحج »

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [١] . وهذه استعارة . لأن حقيقة الزلزلة هى حركة الأرض على الحال المفزعة . ومثل ذلك قولهم : زَلْزَلَ الله قدمه . وكان الأصل : أزلّ الله قدمه . بمعنى أزالها عن ثباتها واستقامتها، وأسرع تعثرها وتهافتها . ثم ضوعف[١] ذلك ، فقيل : زَلْزَلَ الله قدمه . كما قيل : دَكَّهُ الله ، وَدَكْدَكَهُ . فالمراد بزلزلة الساعة ـ والله أعلم ـ رُجفان القلوب من خوف . . .[٢] وزلات الأقدام من روعة موقعها . ويشهد بذلك قوله سبحانه : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾[٣] [٢] يريد تعالى من شدة الخوف والوجل ، والذهول والوهل .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [٥] وهذه استعارة . لأن المراد ههنا باهتزاز الأرض ـ والله أعلم ـ تشبيهها بالحيوان الذى همد بعد حراكه ، وخشع بعد تطالّه وإشرافه ، لعلّة[٤] طرأت عليه ، فأصارته إلى ذلك ، ثم أفاق من تلك الغَمرة ، وصحا من تلك السَّكرة ، فتحرك بعد همودِه ، واستهب[٥] بعد ركوده . وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب ، وأهمدها المَحْلُ ؛ ثم حالُها إذا نضحها الغيث بسجاله ، وبَلّها القَطْر بيلاله ،

---

(١) التضعيف فى تصريف الأفعال معروف مثل : زلزل فى زل ، وصلصل فى صل .

(٢) هنا بياض بالأصل .

(٣) سورة الحج . الآية رقم ٢ .

(٤) فى الأصل : (لعله) وهو تحريف .

(٥) كذا بالأصل .

واهتزت بالنبات ناضرةً ، ورطبت بعد الجفوف متزيلة[1] ذلك تقدير العزيز العليم .

وقوله سبحانه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [٩] وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — الصفةُ بالإعراض عن سماع الرشد ، ولَيِّ العنق عن اتباع الحق . لأن المستقبل لسماع الشيء الذي لا يلائمه في الأكثر يصرف دونه بصره ، ويَثْني عنه عنقه . والعطف : جانب القميص ، وبه سمى شق الإنسان عطفا ، لأن منه يكون ابتداء انعطافه ، وأول انحرافه . ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ [١١] وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — صفة الإنسان المضطرب الدين ، الضعيف اليقين ، الذي لم تثبت[3] في الحق قدمه ، ولا استمرت عليه مريرته ، فأوهَى شبهةٍ تعرض له ينقادُ معها ، ويفارق دينه لها ، تشبيهاً بالقائم على حرف مهواة . فأدنَى عارض يزلقه ، وأضعف دافع يطرحه .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [١٨] الآية . وهذه استعارة .

والمراد — والله أعلم — بسجود الشمس والقمر والنجوم والشجر وما ليس بحيوان مميز ما يظهر فيه من آثار الخضوع لله سبحانه ، وعلامات التـدبير ، ودلائل التصريف

---

(١) هكذا بالأصل . ولم أدر وجه الصواب فيه .

(٢) سورة الإسراء . الآية رقم ٨٣ ؛ وسورة فصلت . الآية رقم ٥١ .

(٣) في الأصل : (لم يثبت) وهو تحريف من الناسخ . فالقدم مؤنثة .

والتسخير ، فيحسُن لذلك أنْ يسمّى ساجدا على أصل السجود فى اللغة ، لأنه الخضوع والاستكانة . أو يكون ذلك على معنى آخر ، وهو أن الذى يظهر فى الأشياء التى عدَّدها ، من دلائل الصنعة ، وأعلام القدرة ، يدعو العارفين الموقنين إلى السجود ، ويبعثهم على الخضوع ، اعترافا له سبحانه بالاقتدار ، وإخباتاً له بالإقرار . وذلك كما تقدَّم من قولنا فى تسبيح الطير والجبال .

وقوله سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ (١) كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ [١٩] وهذه استعارة . والمراد بها أن النار ـ نعوذ بالله منها ـ تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان ، حتى لا يَسْلم منها عضو من أعضائهم ، ولا يغيب عنها شىء من أجسادهم .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك ـ والله أعلم ـ أن سرابيل القَطِرانِ التى ذكرها سبحانه ، فقال ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ (٢) إذا لبسوها واشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب من نار ، لإحاطتها بهم واشتمالها عليهم .

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٤٦] وهذه استعارة . لأن المراد بها ذهول القلب عن التفكر فى الأدلة التى تؤدى إلى العلم . وذلك فى مقابلة قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (٣) فإذا وُصف القلب عند تبيين الأشياء بالرؤية (٤) والإبصار ، جاز أن يوصف عند الغفلة والذهول

---

(١) فى الأصل : « والذين » بالواو، وهو تحريف من الناسخ .
(٢) سورة إبراهيم . الآية رقم ٥٠ .
(٣) سورة النجم الآية رقم ١١ .
(٤) فى الأصل : « بالروية بدون همز الواو . وهو تحريف يضيع المعنى .

بالعمى والضلال . وإنما جعلت القلوب ههنا بمنزلة العيون ، لأن بالقلوب يُوصَل إلى المعلومات ، كما أن بالعيون يوصل إلى المرئيات . ولأن الرؤية[1] ترد فى كلامهم بمعنى العلم . ألا تراهم يقولون : هذا الشىء منى بمرأى ومَسْمَع . أى بحيث أعرفه وأعلمه ، ولا يريدون بذلك نظر العين ، ولا سمع الأذن .

وفى قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ ﴾ معنى عجيب ، وسر لطيف . وذلك أن سبحانه لم يُرِد نفى العمى عن الأبصار جملة . وكيف يكون ذلك وَمَا يعرِض من عَمًى كثيرٍ منها أشهر من أن نومىء[2] إليه ، وندل[3] عليه ؟ وإنما المراد — والله أعلم — أن الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق ، واتصال الشعاعات لم يَجُز أن لا تَرَى ما لا مانع لها من رؤيته . والقلوب بخلاف هذه الصفة بها ، قد يكون فيها آلة التفكر والنظر من سلامة البنية ، وصحة الروية وزوال الموانع العارضة ، ثم هى مع ذلك لاهية عن النظر ، ومتشاغلة عن التفكر . فلذلك أفردها الله سبحانه بصفة العمى عن الأبصار على الوجه الذى بيّنّاهُ مع الفائدة .

فأما الفائدة فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [٤٦] والقلب لا يكون إلا فى الصدر ، فإن هذا الاسم الذى هو القلب لمـا كان فيه اشتراك بين مسمّيات كقلب الإنسان ، وقلب النخلة ، والقلب الذى هو الصميم والصريح . من قولهم هو عربىّ[4] قَلْبًا ، والقلب الذى هو مصدر قلبت الشىء أقلبه قلبا ، حَسُنَ أن يُزال اللَّبْس بقوله تعالى : ﴿ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ احترازا من تجويز الاشتراك .

---

(١) فى الأصل : « الروية » وهو تحريف سبق فى رقم ٣ .
(٢) فى الأصل « يومى » بدون نقط .
(٣) فى الأصل : « وبدل » بدون نقط .
(٤) فى الأصل « عرى » وهو تحريف من الناسخ . وفى « الأساس » للزمخشرى : هو أعرابى قلب . أى محض واسط فى قومه .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [٥٥] . وهذا من أحسن الاستعارات . لأن العقيم المرأة التى لاتلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لاليل بعده ولا نهار ، لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى . فجُعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالى ، وجُعل ذلك اليوم من بينها عقيما ، لأنه لاينتج ليلا بعده ، ولا يستخلف بدلا له . وقد يجوز أيضا أن يكون المراد ـ والله أعلم ـ أن ذلك اليوم لا خير بعده لمستحق العقاب الذين قال الله سبحانه فى ذكرهم : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ الآية ، فوصفه بالعقم لأنه لاينتج لهم خيرا ، ولا ينتج لهم فرحا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ [٧٢] . وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ أن الكفار عند مرور الآيات بأسماعهم يظهر فى وجوههم من النكرة لسماعها والإعراض عن تأملها ، مالا يخفى على المخالط لهم ، والناظر إليهم . وذلك كقول القائل : عرفت فى وجه فلانٍ الشرَّ . أى استدللت منه على اعتقاد المكروه ، وإرادة فعل القبيح .

ويحتمل قوله تعالى: «المنكرَ» ههنا وجهين : أحدهما أن يكون المنكر ماينكره الغير من أمرهم . والآخر أن يكون ماينكرونهم هم من الهجوم عليهم ، بتلاوة القرآن . وصوادع البيان

ومن السورة التي يذكر فيها

« قد أفلح المؤمنون »

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [١٢] وهذه استعارة . لأن حقيقة السلالة هي أن تسلَّ الشيء من الشيء . فكأن آدم عليه السلام لما خُلق من أديم الأرض كان كأنه انسلَّ منها ، واستُخرج من سرها . وقد صار ذلك عبارة عن محض الشيء ومُصاصه[١] ، وصفوته ولبابه . ليس أن هناك شيئا استل من شيء على الحقيقة . وقد تسمَّى النطفة سلالة على هذا المعنى . ويسمى وَلد الرَّجل سلالةً أيضا على مثل ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾[١٧] . وهذه استعارة . لأن المراد بالطرائق ههنا السموات السبع،مشبَّهةً بطرائق النّعل ، وواحدتها : طريقَةٌ . وقد يجمع أيضا على طريق . فهي قطع الجلود يُجعل بعضها فوق بعض وينتظم بالخرز . ويقال : طارقت النعل . من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ اصْنَعِ[٢] الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [٢٧] وهذه استعارة . والقولُ فيها كالقول في : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[٣] . على حدٍّ سواء . فكأنه سبحانه قال : واصنع الفُلك بحيث نرعاك ونحفظك ، ونمنع منك من يريدك .

---

(١) المصاص من الشيء : خالصه . يقال : فلان مصاص قومه . إذا كان أخلصهم نسبا . ومثله المصة . انظر القاموس المحيط واللسان .

(٢) في الأصل : «واصنع» بالواو . وهو تحريف من الناسخ .

(٣) سورة طه . الآية رقم ٣٩ . وقد تقدم الكلام عن هذه الآية في سورة طه .

أو يكون المعنى : واصنع الفلك بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين . فإنا نمنعك بهم ، ونشدك بمعاضدتهم ، فلا يصلُ إليك مَن أرادك ، ولا تبلُغك مرامى من كادك .

وقوله سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤١] وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ أنه عاجلهم بالاستئصال والهلاك ، فطاحوا كما يطيح الغُثاء إذا سال به السيل . والغُثاء : ماحَملت السيولُ فى ممرها من أضغاث النبات ، وهشيم الأوراق وما يجرى مجرى ذلك . فكأن أولئك القوم هلكوا ، ولم يُحسّ لهم أثر ، كما لا يُحسُّ أثر ماطاح به السيل من هذه الأشياء المذكورة .

والعرب يعبرون عن هلاك القوم بقولهم : قد سال بهم السيل . فيجوز أن يكون قوله سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ . كنايةً عن الهلاك ، كما كنوا بقولهم : سال بهم السيل عن الهلاك . والمعنى : فجعلناهم كالغُثاء الطافح فى سرعة انجفاله[١] ، وهوان فقدانه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ[٢] لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٦٢] . وهذه استعارة . والنطقُ لا يُوصف به إلا من يتكلم بآلة .

وسمعت قاضى القضاة[٣] أبا الحسن يجيب بذلك من يسأله : هل يجوز أن يوصف القديم تعالى بأنه ناطق ، كما يوصف بأنه يتكلم ؟ فمنع من ذلك ، وقال : ماقدمت ذكره . فوصف سبحانه القرآن بالنطق مبالغةً فى وصفه بإظهار البيان ، وإعلان البرهان ، وتشبيها باللسان الناطق ، فى الإبانة عن ضميره ، والكشف عن مستوره .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ [٦٣] وهذه استعارة . والمراد

---

(١) الانجفال : الهرب فى إسراع .

(٢) فى الأصل : « فهم » بالفاء . وهو تحريف من الناسخ .

(٣) تقدمت ترجمتنا له عند الكلام فى مجازات سورة الكهف .

بها أن القوم الذين قال سبحانه فيهم أمام هذه الآية هم الموصوفون بقوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أى فى حيرة تغمرها ، وغمة تسترها . والغَمْرُ جمع غَمرة . وهو ماوقع الإنسان فيه من أمرٍ مذهل ، وخطْب مدلّه ، مشبه بغمرات الماء التى تغمر الواقع فيها ، وتأخذ بكَظَم[1] المغمور بها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾[٧١] . وهذه استعارة . والمراد بها : ولو كان الحق موافقا لأهوائهم لعاد كلٌّ إلى ضلاله ،وأوقع كل فى بطله ، لأن الحق يدعو إلى المصالح والمحاسن . والأهواء تدعو إلى المفاسد والمقابح ، فلو اتبع الحقُّ قائد الهوى لشمل الفساد ، وعمّ الاختلاط ، وخفضت أعلام الهداية ، ورفع[2] منار الغواية .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[١٠٣] وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون معنى الموازين ههنا المعادلة بين الأعمال بالحق[3] ...

. . . .

(١) الكظم بفتح الكاف والظاء : مخرج النفس . جمعه أكظام وكظام .

(٢) فى الأصل « ورفعت » وهو تحريف من الناسخ . لأن المنار مذكر .

(٣) هنا قطعة ناقصة من الأصل تبلغ ورقة تقريبا من الآية رقم ١٠٣ من سورة المؤمنون ، إلى الآية ٢٤ من سورة النور .

سورة « النور »

. . . [وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ][1] عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢٤] . وهذه استعارة على أحد التأويلات الثلاثة ، وهو أنه سبحانه يجعل فى الأيدى التى بُسِطت إلى المحظورات ، والأرجل التى سعت إلى المحرمات ، علامةً تقوم مقام النطق المصرِّح ، واللسانِ المفصِح ، فى الشهادة على أصحابها ، والاعتراف بذنوبها .

فأما شهادة الألسنة فقد قيل إن المراد بها إقرارُهم على نفوسهم بما واقَعُوه من المعاصى ، إذ علموا أن الـكَذِب لا ينفعُهم ، والجحودَ لا يُغنى عنهم .

وليس ذلك بمناقض لقوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] لأنه قد قيل فى ذلك إنه جائز أنْ تخرج ألسنتُهُمْ من أفواههم فتنطق بمجرَّدها ، من غير اتصال بجوزاتها ولهواتها . فيكون ذلك أعجبَ لها ، وأبلغَ فى معنى شهادتها . ويختم فى تلك الحال على أفواههم .

وقيل يجوز أن يكون الختم على الأفواه إنما هو فى حال شهادة الأيدى والأرجُل، بعد ما تقدم من شهادة الألسن .

وأما التأويلان الآخران فى معنى شهادة الأيدى والأرجل ، فالـكلام يخرج بهما عن حد الاستعارة إلى الحقيقة . وذلك أنهم قالوا: إن الله سبحانه يَبْنى الأيدى والأرجُلَ بنيةً تـكون هى الناطقة بما تشهد به عليهم ، من غير أن يكون النطق منسوباً إليهم .

---

(١) ما بين حاصرتين ، هو من القطعة الناقصة من الأصل وقد أكملناه .

(٢) سورة يس . الآية رقم ٦٥ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [٣١] وهذه استعارة . والمراد بها : إسبال الخُمُرِ التى هى المقانع على فُرجاتِ الجيوب ، لأنها خصاصات[1] إلى الترائب والصدور ، والثُدِىِّ والشعور . وأصل الضرب من قولهم : ضَرَبْتُ الفسطاط . إذا أقمته بإقامة أعماده ، وضرْب أوتاده . فاستُعير ههنا كناية عن التناهى فى إسبال الخُمُر ، وإضفاء الأُزُر .

وقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [٣٥] وهذه استعارة . والمراد بذلك عند بعض العلماء أنه هادى أهلِ السموات والأرض بصوادع برهانه ، ونواصع بيانه ، كما يُهتدَى بالأنوار الثاقبة ، والشُّهبِ اللامعة .

وقال بعضهم : المراد بذلك ـ والله أعلم ـ الله مُنوِّر السموات والأرض بمطالع نجومها ، ومشارق أقمارِها وشموسها .

وقوله سبحانه : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [٣٥] وهذه مبالغة فى وصف الزيت بالصفاء والخلاصةِ ، على طريق المجاز والاستعارة ، حتى يقارب أن يُضىء من غير أن يتصل بنار ويناط بذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [٣٧] وهذه استعارة . والمراد بتقلب القلوب ههنا : تغيُّرُ الأحوال عليها ، من الخوف والرجاء ، والسرور والغم ، إشفاقاً من العقاب ، ورجاء للثواب . والأولى صفة أعداء الله ، والأخرى صفةُ أولياء الله .

وأما تقلُّب الأبصار فالمراد به تكرير لحظ المؤمنين إلى مَطالع الثواب ، وتكرير لحظ الكافرين إلى مطالع العقاب .

---

(١) الخصاصات : جمع خصاصة بفتح الخاء ، وهو الخرق فى الباب أو البرقع وغيرهما . والجمع خصاص وخصاصات .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٣٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ ﴾ استعارة ومجاز . والمعنى : فوجد وعيد الله سبحانه عند انتهائه إلى منقطع عمله السيِّء ، فكاله بصُواعِه ، وجازاه بجزائه . وذلك يكون يوم المعاد ، وعند انقطاع تكليف العباد .

وقد قيل أيضا : إن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ عِنْدَهُ ﴾ يعود إلى الكافر لا إلى عمله ، فكأنه تعالى قال : فوجدَ الله قريباً منه ، أى وَجدَ عقابه مُرصداً له ، فأخذَه من كَثَبٍ ، وجازاه بما اكتسب . وذلك كقول القائل : الله عند لسان كل قائل . أى يجازيه على قول الحق بالثواب ، وعلى قول الباطل بالعقاب . والقولان جميعاً يؤُولان إلى معنى واحد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾[٤٣] . وهذه استعارة على بعض التأويلات . لأن الجبال ههنا يُراد بها السحاب الثِّقال ، تشبيها لها بكثائف أطوادِها ، ومشارف هضابها . ويكون الضمير فى قوله سبحانه : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا ﴾ عائدا على السماء لا على الجبال . فكأنَّ التقدير : وينزل من جبال من السماء من بَرَدٍ ، يريد من السحاب المشبهة بالجبال . وتكون الفائدة فى قوله من جبال فى السماء تخصيصَ تلك الجبال من جبال الأرض . لأنا لو جعلنا الضمير الذى فيها عائدا على الجبال أوْهم أنها جبال تنزل إلى الأرض من السماء . فإذا جعلنا الضمير عائدا إلى السماء أُمِنَ الالتباس ، وكان فى ذلك أيضا تعجُّبٌ لنا

من وصف جبال فى السماء على طريق التشبيه ، لأن الجبال على الحقيقة لاتكون إلا فى قرارات الأرض ، وصفحات التُّرْب .

وقوله سبحانه : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٤٤] وهذه استعارة . والمراد بها طَرْد النهار بالليل ، وطَرْد الليل بالنهار . فَكَنَى عَنْ ذلك سبحانه باسم التقليب . وليس المراد تقليب (١) الأعيان ، بل تغاير الأزمان .

(١) أى ليس المراد التقليب المادى للأشياء العينية الذاتية .

ومن السورة التي يذكر فيها « الفرقان »

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [١٢] وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قوله سبحانه : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ وهو فى صفة نار جهنمَ ، نعوذ بالله منها ، ولا تصحُّ صفةُ الرُّؤْية عليها . وإنما المراد ـ واللهُ أعلم ـ إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها مَنْ يوصف بالرؤية لرآهم . وهذا من لطائف التأويل ، وغرائب التفسير .

وقد يجوز أيضا أن يكون معنى ذلك : إذا قَرُبَتْ منهم ، وظهرت لهم . من قولهم : دُورُ بَنى فلان تتراءى . أى تتقارب . وفى الحديث : ﴿ لا تَتَرَاءى نَارا هُما ﴾ (١) أى لا تتدانى .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ وهاتان الصفتان من صفات الحيوان ، ويختص التغيظ بالإنسان ، لأن الغيظ من أعلى منازل الغضب ، والغضبُ

---

(١) الحديث بأكمله فى « صحيح أبى داود » الجزء الأول . باب على مايقاتل المشركون ، كتاب الجهاد . ص ٢٦١ ونصه : (حدثنا هناد بن السرى ثنا أبو معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبدالله . قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود ، فأسرع فيهم القتل قال : فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا يارسول الله لم ؟ قال : لاتراءى ناراهما)

وفى سنن النسائى ج ٢ ص ٢٤٥ جاء هذا الحديث فى باب القود بغير حديدة . كتاب القسامة . وقد أورد المؤلف هذا الحديث فى كتابه « المجازات النبوية » وتحدث عما فيه من مجاز حديثا رائعا . صفحة ٢٠٠ من المجازات النبوية . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ سنة ١٩٣٧ ، وجاء هذا الحديث فى « لسان العرب » وفسره صاحب اللسان ثم قال : وقال أبو عبيد : معنى الحديث أن المسلم لايحل له أن يسكن بلاد المشركين ، فيكون معهم بقدر مايرى كل واحد منهم نار صاحبه .

لايوصف بحقيقته إلا الناس . والزفير قد يشترك فى الصفة به الإنسان وغير الإنسان . و إنما المراد بهاتين الصفتين المبالغة فى وصف النار بالاهتياج والاضطرام ، على عادة المغيظ والغضبان .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [٢٣] وهذه استعارة . لأن صفة القُدُوم لاتصح إلا على من تجوز عليه الغَيْبة ، فتجوز منه الأَوْبة . والله سبحانه شاهد غير غائب ، وقائمٌ غير زائل . فالمعنى : وقصدنا إلى ماعملوا ، أو عمدنا إلى ماعملوا . وذلك كقول القائل : قامَ فلان بفلان فى الناس . إذا أظهر ذمه وعيبه ، وليس يريد أنه نهض عن قعود ، وتحفّزَ بعد استقرار وسكون ، وإنما يريد أنه قصد إلى سَبِّه ، وتظاهر بثَلْبه . وقال الشاعر : [١]

فإنَّ أباكُمْ تارِكٌ ماسألتمو فمهما أتيتم فاقْدُمُوه على علم

يقال : قَدِمْتُ هذا الأمر . وأنا أقدمه . إذا أتيته وقصدته . وقد ذكر بعض العلماء فى ذلك وجهاً آخر . قال : إنما قال سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ لأنه عاملهم معاملة القادم من غيبة . أوكان ـ بطول إمهاله لهم ـ كالغائب عنهم ثم قَدِمَ ، فرآهم على خلاف ماأمرهم به ، واستعملهم فيه ، فأحبطَ أعمالهم الفاسدة ، وعاقبهم عقاب العاند عن الطاعة ، المرتكس فى الضَّلالة . والمعتمدُ على القول الأول .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [٢٣] مجاز آخر . وذلك أنه لم يجعل عملهم على الحقيقة هباءً منثورا ، وهو الغبار الدقيق ههنا . ومنه الهابى . وإنما أراد سبحانه أنه أبطل ذلك العمل فعفا رسْمُهُ ، وسقط حكمه ، وبَطَلَ بُطلان الغبار المحَق ، والغثاء المتفرق .

---

(١) لم أعثر على اسم صاحب هذا البيت فى كثير من المراجع .

وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [٢٤] وهذه استعارة . لأن المَقِيل من صفات المواضع التى يُنام فيها، ولا نوم فى الجنة . وتقدير الكلام : وأحسنُ موضع قائلة . فكأن ذلك المكان من وثارة مهاده ، وبَرْد أفيائه ، يصلُح أن يُنامَ فيه لو كان ذلك جائزا . وهذا كقوله سبحانه فى ذكر أصحاب الجنة : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(١) أى مثل أوقات البُكْرة والعَشىّ المعهودين فى حال الدنيا . لأن الجنة لا يوصف زمانها بالأيام والليالى ، لأن ذلك من صفات الزمان الذى تتعاقب عليه الشمس طالعة وغاربة ، فيسمَّى نهارا بطلوعها ، ويسمَّى ليلا بقبوعها(٢)

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [٢٥] . وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ على أحد القولين صفةُ السماء فى ذلك اليوم بتعاظم الغمام فيها ، وانتشاره فى نواحيها . كما يقول القائل : قد تشققت الغمائم بالبرق ، وتشققت السحاب بالرعد . إذا كثر ذلك فيها . ليس أن هناك تشققا على الحقيقة ، فى قول أهل الشرع . وقيل أيضا : إن المراد بذلك انتقاض بنية السماء وتغيرها إلى غير ماهى عليه الآن ، كما تظهر فى البناء آثار التداعى ، وأعلام التهافت ، مِنْ تَثَلُّم أطراف ، وتفطُّر أقطار ، فيكون ذلك مؤذنا بانقضاضه ، ومنذرا بانتقاضه .

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَاتُ ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَاءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾(٤) . ويكون انتقاضُ

---

(١) سورة مريم . الآية رقم ٦٢ .
(٢) القبوع : الاختفاء ومنه : قبع النجم أى ظهر ثم خفى .
(٣) سورة إبراهيم . الآية رقم ٤٨ .
(٤) سورة الأنبياء . الآية رقم ١٠٤ وقد سبق الحديث عن قراءة «للكتاب» و «للكتب» بالمفرد والجمع، فى سورة الأنبياء .

بِنْية السماء عن ظهور الغمام الذى آذننا سبحانه بمجيئه يوم القيامة ، إذ يقول عزّ مِن قائل : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (١) .

ومعنى تشقّق السماء بالغمام . أى عن الغمام . كما يقول القائل : رَمَيْتُ بالقوس ، وعن القوس . بمعنى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[٤٣] . وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير . فكأنه تعالى قال : أرأيت من اتخذ هواه إلاهَهُ . معنى ذلك أنه جعل هواه آمرا يطيعه ، وقائدا يَتْبَعُهُ ، فكأنه قد عبده لفَرط تعظيمه له .

ومن أمثالهم : الهوى إلهٌ معبود . على المعنى الذى ذكرنا . وذَكَرَ أحمد بن يحيى البلاذرى (٢) فى كتاب (الأشراف) أن هذه الآية نزلت فى الحارث بن قيس بن عَدِىّ السَّهْمى ، وهو من عبدة الأوثان ، لأنه كان كلما رأى حَجَراً أحسنَ من الذى اقتناه لعبادته أخذه واطَّرحَ ماعَبَدهُ .

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[٤٥] وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قوله تعالى (٣) [: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[٤٥] أى] ألم تر إلى فعل

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم ٢١٠ .

(٢) هو المؤرخ الجغرافى النسابة : جالس الخليفة المتوكل العباسى ، ومدح المأمون ، ومات فى أيام المعتمد . سنة ٢٧٩ هـ . ومن كتبه « فتوح البلدان » وهو مصدر وثيق للفتوحات الإسلامية : وقد طبع بأوربا والقاهرة . وكتاب « الأشراف » .

(٣) مابين حاصرتين ليس فى الأصل ، وقد وضعناه ، لأن السياق يقتضيه .

ربك أو إلى حكمة ربك فى مد الظل ، فحذف هذه اللفظة لدلالة الكلام عليها، إذ كان الله سبحانه لا يدرَك بالمشاعر ، ولا يُرَى بالنواظر . وقد يجوز أن يكون معنى الرؤية ههنا معنى العِلْم . فكأنه سبحانه قال : ألم تعلم حكمة ربك فى مدّ الظل ؟ وإنما أقام سبحانه الرؤية ههنا مقام العلم لتحقُّق المخاطَب الذى هو النبى صلى الله عليه وسلم وِجْهَةَ الله تعالى فى ذلك الفعل ، فقامت معرفة قلبه مقام رؤية عينه ، قطعا باليقين ، وبُعدا عن الظنون .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ وهذه استعارة على القلب . لأن الظل فى الشاهد يدل على الشمس ، وذلك أن الظل لا يكون إلا وهناك شمس طالعة ، فيوصف مالم تطلع عليه لحاجز يحجز ، أو مانع يمنع بأنه ظل . وقد قيل : إن الظل ما كان بالغداة ، والفىْء ما كان بالعشىّ . وقيل: إن الظل مانسخته الشمس ، والفىء مانسخ الشمس ، فعلى هـذا القول يجوز أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائما لا تردُ الشمس عليه فتزيله وتذهب به ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . أى دللناها عليه ، فهى تتحيَّف من أقطاره ، وتنتقص من أطرافه ، حتى تستوفىَ أجْمَعَهُ ، وتكونَ بدلا منه . فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [٤٦] .

ويجوز أن يكون معنى دلالة الشمس على الظل أنه لولا الشمس لم يُعرف الظل . ويجوز أن يقول : لولا الظل لم تعرف الشمس .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [٤٧] . وفى هذه الآية استعارتان . فإحداهما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ . والمراد باللباس ههنا ـ والله أعلم ـ تغطية ظلام الليل النُّشوزَ والقيعا[ن[1] ، و] أشخاصَ الحيوان كما تغطِّى الملابس الضَّافية ، وتسترُ الجُنَنُ الواقية . وهذه العبارة من أفصح العبارات عن هذا المعنى .

---

(١) مابين حاصرتين ليس بالأصل المخطوط .

ومعنى السُّبَاتِ : قَطْعُ الأعمال ، والرَّاحةُ من الأشغال . والسَّبْت فى كلامهم : القَطع .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً ﴾ والنشورُ فى الحقيقة : الحياة بعد الموت . وهو ههنا مستعار الاسم لتصرُّف الحىّ وانبساطه ، تشبيها للنوم بالممات ، واليقظة بالحياة . وذلك من أوقع التشبيه ، وأحْسن التمثيل .

وقوله سبحانه : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ [٤٩] وهذه استعارة . وقد مضت الإشارة إلى نظيرها فى (الأعراف)[١] .

ووصف البلدة بالموت ههنا محمول على أحد وجهين : إما أن تكون إنما شُبِّهتْ بالميت من فرْط يُبسها ، لتسلُّط المَحْل عليها ، وتأخر الغيث عنها . أو يكون فيها من النبات والشجر لما مات لانقطاع الماء عنه حَسُنَ أن توصف هى بالموت لموت بنيها ، لأنها كالأم التى تكفله ، والظِّئْرِ التى ترضِعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [٥٣] وهـذه استعارة . والمراد بذلك ــ والله أعلم ــ أنه خلَّاهما من مذاهبهما ، وأرسلهما فى مجاريهما ، كما تُمْرَجُ الخيل أى[٢] تُخَلَّى فى المروج مع مراعيها .

فكان وجه الأعجوبة من ذلك أنه سبحانه مع التخلية بينهما فى تقاطعهما ، والتقائهما فى مناقعهما ، لا يختلط الملح بالعذب ، ولا يلتبس العذب بالملح .

---

(١) وهى فى الأوراق المفقودة من الكتاب .
(٢) فى الأصل « أن » وهو تحريف من الناسخ .

ولغة أهل تهامة « مرجة » ولغة أهل نجد « أمْرِجة » وقال أبو عبيدة[١] : إذا تركت الشيء وخليته فقد مرجته . ومنه قولهم : مرج الأمير الناس . إذا خلاهم بعضهم على بعض . والأمر المريج : المختلط الملتبس .

وقوله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا ، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾[٦١] وقد قرِىء : سُرُجاً ، على الجمع . وهى قراءة حمزة والكسائى من السبعة . والباقون يقرءون : سراجا على التوحيد .

فمن قرأ « سُرُجاً » أراد النجوم ، ومن قرأ « سراجاً » أراد الشمس ، ويقوى ذلك قوله سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[٢] . ويقوى قراءة من قرأ « سُرُجاً » أن النجوم من شعائر الليل ، والسُّرُج بأحوال الليل أشبه منها بأحوال النهار .

وإنما شبهت النجوم بالسُّرج لاهتداء الناس بها فى الظلماء ، كما تهتدى بالمصابيح الموضوعة ، والنيران المرفوعة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [٦٢] . وهذه استعارة ، ومعنى خِلْفة ـ فى بعض الأقوال ـ أى جعل الليل والنهار يتخالفان ، ، فإذا أتى هذا ذهب هذا ، وإذا أدبر هذا أقبل هذا .

وقيل : خلفة أى يخلف أحدهما الآخر ، فيكون ذلك من الخلافة لا من المخالفة .

---

(١) هو معمر بن المثنى النحوى البصرى ، كان إماما فى اللغة والأدب . وقال فيه الجاحظ : لم يكن فى الأرض أعلم بجميع العلوم منه . واشتهر بحفظ حديث رسول الله . وقد استقدمه الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه . وتوفى سنة ٢٠٩ هـ .

(٢) سورة نوح . الآية رقم ١٦ .

وقيل : خلفة . أى أحدهما[٢] أسود ، والآخر أبيض . وهو أيضا راجع إلى معنى المخالفة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[٧٣] وهـذه استعارة . والمراد ـ والله أعلم ـ لا يصمُّون عن قوارع النُّذُرُ ، ولا يَعْشَوْن عن مواقع العِبَر .

(١) فى الأصل : «إحداهما» وهو تحريف من الناسخ .

ومن السورة التي يذكر

فيها « الشعراء »

قوله سبحانه (١) : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ ، قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [٦١] وهذه استعارة . والمراد بها : العبارة عن التقارب والتدانى . وإنما قلنا إن اللفظ مستعار ، لأنه قد يحسُنُ أن يوصف به الجمعان ، وإن لم يرَ بعضُهم بعضا بالموانع ، من مُثار العَجَاج ، ورَهج الطِّراد . لأن المراد به تقارُبُ الأشخاص ، لاتلاحُظُ الأحداق ، وذلك كقولهم فى الحَيَّيْن المتقاربين : تتراءى ناراهما . أى تتقابل وتتقارب . لكون النارَين بحيث لوكان بدَلا منهما إنسانان لرأى كل واحد منهما صاحبه . وقد أو مأنا إلى ذلك فيما مضى (٢) .

ويقال أيضا : قوم رِئَاء ، على وزن فِعَال أى يقابل بعضهم بعضا . وكذلك بيوتهم رئاء إذا كانت متقابلة . ذكر ذلك أحمد بن يحيى ثعلب (٣) .

ومن هذا الباب الحديثُ المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : (أنا

---

(١) فى الأصل : « ولما » بالواو وهو تحريف من الناسخ . والصواب فلما . بالفاء .

(٢) فى الكلام فى مجازات سورة الفرقان . الآية رقم ١٢ .

(٣) لم نجد لذلك ذكرا فى « مجالس ثعلب » التى نشرتها « دار المعارف » بتحقيق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون . ووجدنا ذلك فى « الأساس » للزمخشرى . وثعلب هو إمام الكوفيين فى النحو واللغة . اشتهر بالرواية والحفظ والصدق وكان ثقة . ومات بصدمة فرس سقط بسببها فى هوة فتوفى على الأثر سنة ٢٩١ هـ .

برىء من كل مسلم مع مُشرك . قيل : ولمَ يارسولَ الله ؟ . . . . [1] لاتراءى ناراهما . وقد استقصينا الكلام على معنى هذا الخبر فى كتاب « مجازات الآثار النبوية »

وقوله سبحانه ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِى [2] وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ، وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١١٨] وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — فاحكم بيننا و بينهم حكما [3] قاطعا ، وأمرا فاصلا : بفتح الباب المبهم بعد مااستصعب رتاجُه ، وأعضل علاجه .

و يقال للحاكم : الفتّاح ، لأنه يفتح وجهَ الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [4] وقال بعض بنى ذهل بن زيد بن نَهْد [5] :

وعمّى الّذى كانتْ فُتاحةُ [6] قومهِ إلى بيته حتّى يجهّز غاديا

أى كان الحُكْم بين قومه فيه وفى أهل بيته إلى حين وفاته . وقال فتاحة قومه بكسر الفاء ، لأنها فى معنى الولاية والزعامة وما يجرى مجراهما .

وقوله سبحانه : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [١٤٨] وهذه استعارة . والمراد بالهضيم ههنا على بعض الأقوال — والله أعلم — الذى قد ضمن [7] بدخول بعضه فى بعض ، فكأنّ بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه ، وشدة تشابكه .

---

(١) هنا نقص . وقد ذكرنا نص الحديث كاملا فى أول سورة الفرقان .
(٢) فى الأصل « بيننا » وهو تحريف من الناسخ .
(٣) مطموسة بالأصل . والسياق يدل عليها .
(٤) سورة سبأ . الآية رقم ٢٦ .
(٥) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر .
(٦) وفى « اللسان » الفتاحة بالضم : الحكم ، والفتاحة والفتاحة أن تحكم بين خصمين . والفتاحة : الحكومة . قال الأشعر الجعفى :

ألا من مبلغ عمرا رسولا فإنى عن فتاحتكم غنى

والفتاح : الحاكم . وأهل اليمن يقولون للقاضى : الفتاح .
(٧) هكذا بالأصل . ولعلها . ضم .

وقيل : الهضيم اللطيف . وذلك أبلغ فى صفة الطَّلع الذى يراد للأكل . وذلك مأخوذ من قولهم : فلان هَضِيمُ الحَشَا . أى لطيف البطن . وأصله النقصان من الشىء . كأنه نقص من انتفاخ بطنه ، فلطفت معاقدُ خصره . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[١] أى نقصا وثلما .

وقيل الهضيم الذى قد أينع وبلغ . وقيل أيضا هو الذى إذا مُسَّ تهافَت من كثرة مائه ، ورطوبة[٢] أجزائه .

والقولان الأخيران يخرجان الكلام عن حد الاستعارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [٢١٩] وهذه استعارة . وليس هناك تقلّب منه على الحقيقة . وإنما المراد به تقلُّب أحواله بين المصلّين وتصرُّفه فيهم بالركوع والسجود ، والقيام والقعود . وذهب بعض علماء الشيعة فى تأويل هذه الآية مذهبا آخر ، فقال : المراد بذلك تَقَلُّبُ الرسول صلى الله عليه وسلم فى أصْلاب الآباء المؤمنين . واستدل بذلك على أن آباءه[٣] إلى آدم عليه السلام مسلمون ، لم تختلجهم خوالج الشرك ، ولم تضرب فيهم أعراق الكفر ، تكريما له عليه السلام عن أن يجرى إلا فى منزهات الأصلاب ، ومطهَّرات الأرحام . وهذا الوجه يَخرجُ به الكلام عن أن يكون مستعارا .

وقوله سبحانه : ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [٢٢٣] وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون المراد بها أنهم يَشْغلون أسماعهم ، ويديمون إصغاءهم ليسمعوا من أخبار السماء مايموّهون به على الضُّلّال من أهل الأرض ، وهم عن السمع

---

(١) سورة طه . الآية رقم ١١٢

(٢) فى الأصل : « ولطوته » وهو تحريف والرطوبة مناسبة هنا لكثرة الماء .

(٣) فى الأصل : « أباه » بالمفرد وهو تحريف بدليل قوله بعد ذلك : مسلمون .

بمعزل ، وعن العلم بمزجر . وذلك كقول القائل لغيره : قد ألقيتُ إليك سمعى . أى صرَفته إلى حديثك ، ولم أشغَلْه بشىء غير سماع كلامك .

والتأويل الآخر أن يكون السَّمع ههنا بمعنى المسموع ، كما يكون العِلْم بمعنى المعلوم (١) فيكون التأويل أن الشياطين يُلقون مايدَّعون أنهم يستمعونه إلى كل أفاك أثيم ، من أعداء النبى صلَّى الله عليه وعلى آله . على طريق الوسوسة واعتماد القَدْح فى الشريعة . وهذا الوجه يخرج الـكلام عن حد الاستعارة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [٢٢٤، ٢٢٥] . وهذه استعارة . والمراد بها — والله أعلم — أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهبَ المختلفة ، ويَسْلـكون الطرق المتشعبة . وذلك كما يقول الرَّجل لصاحبه إذا كان مخالفاً له فى رأى ، أو مُباعداً له فى كلام : أنا فى وادٍ ، وأنت فى وادٍ . أى أنت ذاهب فى طريق وأنا ذاهب فى طريق. ومثلُ ذلك قولهم : فلانٌ يهبُّ مع كل ريح ، ويطير بكل جناح . إذا كان تابعاً لـكل قائد ، ومُجيباً لـكل ناعق .

وقيل إن معنى ذلك تصرُّف الشاعر فى وجوه الـكلام من مدحٍ وذَم ، واستزادة ، وعتب ، وغزل ، ونسيب ، ورثاء ، وتشبيب . فشُبِّهت هذه الأقسام من الـكلام بالأودية المتشعبة ، والسبُل المختلفة .

ووصف الشعراء بالهيَمان فيه (٢) فَرْط مبالغة فى صفتهم بالذهاب فى أقطارها ، والإبعادِ فى غاياتها . لأن قوله سبحانه : ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ أبلغُ فى هذا المعنى من قوله : يسْعَوْن ، ويَسيرون . ومع ذلك فالهيَمان صفةٌ من صفاتِ مَنْ لا مُسْكةَ له ولا رجاحةَ معه ، فهى مخالفة لصفات ذى الحِلْم الرزين ، والعقل الرصين .

---

(١) فى الأصل . « الملوم » وهوظاهر التحريف .
(٢) فى الأصل « فيها » وهو تحريف .

ومن السورة التي يذكر فيها

« النمل »

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [٧] وهذه استعارة على القلب . والمراد بها – والله أعلم – إني رأيتُ نارا فآنستني فنقل فِعل الإيناس إلى نفسه على معنى: إني وَجَدْتُ النار مُؤْنِسَةً لي ، كما سبق من قولنا في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾[1] أي وجدناه غافلا ، على بعض الأقوال .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾[2] ولم تغرّهم هي ، وإنما اغتروا بها هم ، فلما كانت سبباً للغرور حَسُن أن يُنسَب إليها ويُناطَ بها .

وحقيقة الإيناس هي الإحساس بالشيء من جهة يؤنَسُ بها ، وما أنستَ به فقد أحسستَ به مع سكون نفسك إليه .

وقوله سبحانه حاكياً عن ملكة سبا : ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾[٣٢] وهذه استعارة . والمراد بقطع الأمر – والله أعلم – الرجوع بعد إجالة الآراء ، ومَخضِ الأقوال إلى رأي واحد يصحّ العزم على فعله ، والعملُ عليه دون غيره ، تشبيهاً بالإسداء والإلحام في الثوب النسيج ، ثم القطعِ له بعد الفراغ منه . فكأنها أجالت الرأي عند ورودِ ما ورَد عليها من دعاء سليمانَ عليه السلامُ لها إلى الإيمان به ، والاتباع له ، فميلت[3] بين الامتناع

---

(١) سورة الكهف . الآية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف . الآية رقم ٥١ .

(٣) ميلت : أي شكت انظر القاموس المحيط .

والإجابة ، والمخاشنة والملاينة . فلما قوِىَ فى نفسها أمرُ الملاطفة عَزَمتْ على فعله ، فحسُن أن يُعبَّر عن ذلك بقطع الأمر ، لما أشرنا إليه .

وعلى هذا قولُ الرجل لصاحبه : لا أقطعُ أمْراً دُونَكَ . أى لا أقرر العزم على شىء حتى أفاوضك فيه وأوافقك عليه . وقد يجوز أن يكون ذلك كنايةً عن الاستعجال بفعل الأمر تشبيهاً بسرعة قطْعِ الشىء المستدقّ كالحبل وغيره . ومنه قولهم : صَرَمَ الأمر . أى فَرَغ مِنْ فِعْله بسرعة . والصَّريمة من ذلك . وفَصْلُ الأمرِ أيضاً قريب منه .

وقوله سبحانه : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [٤٠] وهذه استعارة . لأن المراد بارتداد الطَّرف ههنا الْتقاء الجَفْنَيْنِ بعد افتراقهما . وذلك أَبْلغُ ما يُوصَفُ به فى السرعة . وليس هناك على الحقيقة شىء ذَهَبَ عنه ثم رجع إليه . ولكن جَفْن العين لَمّا كان ينفتح وينطبق، أقامَ الانفتاح مُقامَ الخروج ، والانطباقَ مُقامَ الرجوع .

وقيل فى ذلك وجْهٌ آخرُ . وهو أن فى مَجْرى عادة الناس أن يقول القائل لغيره إذا كان على انتظار أمر يَرِدُ عليه من جهته : أنا ممدود الطرف إليك ، وشاخِصُ البَصَرِ نحوكَ . فإذا كان امتداد الطرف بمعنى الانتظار مستعملا ، جاز أن يجعل ارتداده عبارة عن زوال الانتظار . فكأنه قال : أنا آتيك به قبل أن تتكلف أمر انتظار ، وتَعُدَّ الأوقات .

والقول الأول أولى بالاعتماد ، وأخلَقُ بالصواب(١) .

وقوله تعالى : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [٦٦] وهذه استعارة . لأن العَمَى هنا ليس يُراد به فقد الجارحة المخصوصة ، وإنما

---

(١) فى الأصل : « بالصوب » وهو تحريف .

يُراد به التعامى عن الحق ، والذهاب صَفْحا عن النظر والفكر ، إمّا قَصْداً وتعمداً ، أو جَهْلا وَعَمىً .

وإنما أُجرى الجهلُ مُجْرى العَمَى فى هذا المعنى ، لأن كل واحد منهما يَمنع بوجوده من إدراك الشىء على ماهو به . إذ الجهلُ مضادٌّ للعلم والمعرفة ، والعَمَى مُنافٍ للنظر والرؤية . وإنما قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ ولم يقل : عَنْها ، لأن المراد أنهم يشكُّون فيها ، و يَمْتَرون فى صحّتها ، فهم فى عَمىً منها ؛ ولا يصلحُ أن يكون فى هذا الموضع : عنها . لأنه ليس المراد ذِكْرَ عَماهم عن النظر إليها ، وإنما القَصْدُ ذِكْرُ عماهم بالشك فيها . وهذا من لطائف المعانى[١] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[٧٢] وهذه استعارة . لأن حقيقة الرِّدْف هى حَمْلُ الإنسان غيرَه مما يلى ظَهْرَه على مركوب[٢] . . . .

. . . .

فالمراد بقوله سبحانه : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ههنا ــ واللهُ أعلم ــ أى عسى أن يكون العذاب الذى تتوقعونه قد قَرُبَ منكم . وهو فى آثاركم ، ولا حقٌ بكم .

وقد قيل أيضا إن المراد بردِفَ لكم . أى رَدِفَكُمْ . فصار العذاب فى الالتصاق بكم كالمرادف لكم . والمعنى واحد .

---

(١) فى الأصل : « المغالى » وهو تحريف بين .
(٢) هنا سطر غير واضح الكلام ولا ملتئم السياق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [٧٦] وهذه استعارة . لأن القصَصَ كلام مخصوص ، ولا يوصف به إلا الحيُّ الناطقُ المميزُ . ولكن القرآن لما تضمنَ نبأ الأولين ، ومَصادِرَ أمور الآخرين ، كان كأنّه يقصّ على من آمن به عند تلاوته له قصص من تقدمه[١] . .

. . . .

(١) هنا ضاع من الأصل أربع ورقات تقريبا . من الآية ٧٦ من سورة النمل الى الآية ٢٦ من سورة الأحزاب .

« سورة الأحزاب »

. . . .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾[٢٦] وهـذه استعارة . والمراد بها : أنه تعالى ألقى الرعبَ فى قلوبهم من أثقل جهاته ، وعَلَى أقطع بَغتاته . تشبيها بقذفة الحجَر إذا صكّت الإنسانَ على غفلة منه . فإن ذلك يكون أملأ لقلبه، وأشدّ لروْعِهِ .

وقوله سبحانه : ﴿ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [٣٠] وهـذه استعارة على قراءة من قرأ : ﴿ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الياء ، فكأنه تعالى جَعَل الفاحشة تُبيِّن حال صاحبها ، وتشير إلى مايستحقه من العقاب عليها . وهـذا من أحسن الأغراض، وأنفس جواهر الكلام[١] . . .

. . . .

. . . .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [٤٦] وهـذه استعارة . والمراد بالسراج المنير ههنا : أنّه عليه السلام يهتدى به فى ضلال الكفر ، وظلام الغيّ ، كما يُستصبح بالشهاب فى الظلماء ، وتستوضح الغرة فى الدهماء .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [٧٢] . وهـذه استعارة . وللعلماء فى ذلك أقوال نحن نستقصى ذكرها عند البلوغ إليها من الكتاب الكبير

---

(١) هنا عشرة أسطر محيت أنصافها بحال لا يستقيم معها تبين النص .

بتوفيق الله ومشيئته ، إلا أننا نشير إلى بعض ذلك ههنا إشارةً تليق بغرض هـذا الكتاب فى طريقة الاختصار ، وخوف الإكثار (١) . . . . .

. . . .

وقال بعضهم : المراد بذلك تفخيم شأن الأمانة وأن منزلتها منزلة مالو عُرِضَ على هـذه الأشياء المذكورة مع عظمها ، وكانت تعلم مافيها ، لأبت [أن(٢)] تحملها وأشفقت كل الإشفاق منها . إلا أن هـذا الكلام خرج مخرج الواقع لأنه أبلغ من المقدر . وقال بعضهم : عرْضُ الشىء على الشىء ومعارضته سواء . والمعارضة ، والمقابلة ، والمقايسة ، والموازنة بمعنى واحـد . فأخبر الله سبحانه عن عظم أمر الأمانة وثقلها ، وأنها إذا قيست بالسموات والأرض والجبال (٣) ووزنت بها رجحت عليها . ولم تطق حملها ، ضَعفا عنها . وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ومن كلامهم : فلان يأبى الضيم . إذا كان لا يحتمله . فالإباء ههنا هو ألّا يقام بحمل الشىء . والإشفاق فى هذا الموضع هو الضعف عن الشىء ، ولذلك كنى به عن الخوف الذى هو ضعف القلب . فقالوا : فلان مُشْفِق من كذا . أى خائف منه ،

يقول سبحانه : فالسموات والأرض والجبال لم تحمل الأمانة ضعفا عنها ، وحَمَلها الإنسان ،أى تقلَّدها وقارف (٤) المآثم فيها ، للمعروف من كثرة جهله ، وظلمه لنفسه .

---

(١) وهنا بضعة أسطر ممحوة الأنصاف .
(٢) ليست بالأصل . وقد زدناها لأن السياق يتطلبها .
(٣) فى الأصل « وزنت » بواو واحدة . وهو تحريف ، لأنها معطوفة على الفعل قيست .
(٤) فى الأصل « وتعارق » وهو تحريف . ولعل الصواب ما استظهرناه . فإن مقارفة الآثام هى ركوبها واقترافها .

ومن السورة التى تذكر فيها

« سبـــــأ »

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا ، قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ [٢٣] الآية[1] وهذه استعارة ، على قراءة من قرأ : فزِّع بالزاى والعين ، وفرِّع بالراء والعين .

فالمراد بقراءة من قرأ : فزع بالعين غير معجمة ، أى أزيل الفزَع عن قلوبهم . كما تقول : قَذَّيْتُ عينه . إذا أزلت القذَى عنها . وهو كقولهم : رغَّبَ عنه . إذا رفعت الرغبة عنه . خلافا لقولهم : رغب فيه ، إذا صرفت الرغبة إليه . فالرغبة فى أحد الأمرين منقطعة ، وفى الآخر منصرفة . والمراد بقراءة من قرأ : فرِّغ بالغين معجمة ، قريب من المراد بالقراءة الأولى . كأنه سبحانه قال : حتى إذا أُخرج ما كان فى قلوبهم من الخوف والوجل ففرغت منها .

وإنما قال : عن قلوبهم . لأنه سبحانه أقام ذلك مُقام التفريج عن قلوبهم . فكما حسُن أن يُقال : فُرِّج عن قلبه ، فكذلك حَسُن أن يقال : فرِّغ عن قلبه .

وهذا موضع سرّ لطيف ، ومعنى عجيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [٣١] وهذه استعارة . والمراد بها ماتقدم القرآنَ من الكتب ، فكأنها كانت مشيرة إليه ، ومصرفة بين يديه . وقد مضى الكلام على نظائر ذلك فيما تقدم .

---

(١) تكملة الآية : « قالوا الحق . وهو العلى الكبير » .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱللَّيلِ وَٱلنهارِ ، إذْ تَأْمُرُونَنَا أنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [٣٣] . وهذه استعارة . والمراد بمكر الليل والنهار : ما يتوقع من مكرهم فى الليل والنهار ، فأضاف تعالى المكر إليهما لوقوعه فيهما . وفيه أيضا زيادة فائدة ، وهى دلالة الكلام على أن مكرهم كان متصلا غير منقطع فى الليل والنهار ، كما يقول القائل : ما زال بنا سيرُ الليل والنهار حتى وردنا أرضَ بنى فلان . وهذا دليل على اتصال سيرهم فى الليل والنهار ، من غير إغباب ، ولا إراحة ركاب .

[و][1] قوله سبحانه : ﴿ إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[٤٦] وهذه استعارة . والمراد أنه عليه السلام بُعث ليقدِّم الإنذار أمام وقوع العقاب ، إزاحةً للعلة ، وقطعاً للمعذرة . وقد تقدمت إشارتنا إلى نظائر هذه الاستعارة فى عدة مواضع من هذا الكتاب .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[٤٩] وهذه استعارة . لأن الإبداء والإعادة يكونان فى القول ، ويكونان فى الفعل . فأما كونهما فى الفعل فبقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[2] وأما كونهما فى القول فإن القائل يقول : سَكَتَ فلانٌ فلم يُعِدْ ولم يُبْدِئْ . أى لم يتكلم ابتداء ، ولا أحار جوابا . وهاتان الصفتان يستحيل أن يُوصَفَ بهما الباطل ـ الذى هو عَرَض من الأعراض ـ إلا على طريق الاتساع والمجاز .

وإنما المراد أن الحق قَوِىَ وَظَهَرَ ، والباطل ضَعُفَ واستتر ، ولم يبق له بقية يَقْوَى بها

---

(١) ليست هذه الواو بالأصل . وقد نسيها الناسخ .

(٢) سورة الروم . الآية رقم ٢٧ .

بعد ضعفه ، ويجبر بعد وَهْنه . أى ما تقوم[1] له قائمة فى بدء ولا عَوْد . والبدْء : الحال الأولى . والعود : الحال الأخرى . وكذلك الإبداء والإعادة .

ويجوز أن يكون لذلك وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى أن الباطل كان عند غَلَبة الحق وظهوره بمنزلة الواجم الساكت ، والحائر الذاهل ، الذى لا قدرة له على الحِجَاجِ ، ولا قوة له على الانتصار . كقولهم : سَكَتَ فما أعاد ولا أبْدأ . عند وصف الإنسان بالحيرة، أو غلبة الفكرة .

وقد قيل أيضا فى ذلك وجه آخر يخرج به الكلام عن حيز الاستعارة . وهو أن يكون المراد أن صاحب الباطل لا يُبْدِئ ولا يُعيد عند حضور صاحب الحق ، ضَعفاً عن حِجَاجه ، وضلالاً عن منهاجه . فجَعَل المضاف ههنا فى موضع المضافِ إليه . وذلك كثير فى كلامهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [٥٣] وهذه استعارة . والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنهم يقولون ما لا يعلمون ، ويظنون ولا يتحققون . فهم بمنزلة الرامى غرضاً بينه وبينه مسافة متباعدة ، فلا يكون سهمه أبدا إلا قاصراً عن الغرض ، وعادلا عن السَّدَد .

---

(١) فى الأصل : « يقوم » .

ومن السورة التي يذكر فيها

الملائكة (١) عليهم السلام

قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [١٠] وهذه استعارة . وليس المراد أن هناك على الحقيقة شيئا يوصف بالصعود ، ويرتقى من سفال إلى علو . وإنما المراد أن القول الطيب والعمل الصالح متقبلان عند الله تعالى ، واصلان إليه سبحانه . بمعنى أنهما يبلغان رضاه ، وينالان زلفاه . وأنه تعالى لا يُضيعهما ولا يهمل الجزاء عليهما . وهذا كقول القائل لغيره : قد ترقَّى الأمر إلى الأمير . أى بلغه ذلك على وجهه ، وعَرَفَه على حقيقته . وليس يريد به الارتقاء الذى هو الارتفاع ، وضده الانخفاض .

ووجه آخر : قيل إن معنى ذلك صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لايملك الحكمَ فيه إلا الله سبحانه . كما يقال : ارتفع أمرُ القوم إلى القاضى . إذا انتهوا إلى أن يحكم بينهم ، ويفصل خصامهم . ووجه آخر : قيل إن الله سبحانه لما كان موصوفا بالعلو على طريق الجلال والعظمة ، لاعلى طريق المدَى والمسافة ، فكل مايتقرب به إليه من قول زكى ، وعمل مرضى فالإخبار (٢) عنه يقع بلفظ الصعود والارتفاع ، على طريق المجاز والاتساع .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا

---

(١) هى سورة فاطر . وهى السورة الخامسة والثلاثون من القرآن . وقد ذكرت الملائكة فيها فى قوله تعالى فى أولها : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير » .

(٢) فى الأصل « والأخبار » بالواو . والفاء هنا هى الصحيح .

لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [١٨] وقد مضى نظير هذا الكلام فى الأنعام، وفى بنى إسرائيل، وتركنا الإشارة إليه هناك لما جاءت فى هذا الموضع زيادةٌ حققت الكلام بالاستعارة، فاحتجنا إلى العبارة عنها أسوة بنظائرها [١] . فنقول : إن قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمل حاملة حمل غيرها يوم القيامة . يقال : وَزَر ، يَزِرُ وِزراً . إذا حَمَل . والاسم الوِزْرُ . ومن ذلك أُخذ اسم الوزير ، لأنه حامل الثقل عن الأمير . والمعنى : ولا يحملُ مُذنبٌ ذَنْبَ غيره ، ولا يؤخذ بجرمه وجنايته .

والزيادة فى هذا الموضع قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فشبَّه تعالى استغاثة المثقَل من الآثام باستغاثته من الإعياء . لأنَّ من عادة من تلك حاله أنْ يَطلُبَ مَن يشاطره الحمل ، ويخفف عنه الثِّقل . فأما فى ذلك اليوم فلا يهم كلَّ امرئٍ إلا نفسُه ، ولا يَعْنِيهِ [٢] إلا أمْرُه ، ولا يُعين أحدٌ أحدا ، ولا يخفف مَدْعوٌّ مِن داعٍ ثِقلا ، ولو كان أوْلى الناس بأمره ، وأقربهم التياطا به ، وانتياطا [٣] بنسبه .

وإنما قال سبحانه : مُثقلة . ولم يقل : مُثقَلٌ . لأنه رَدَّ ذلك إلى النفس ، ولم يَرْدُدْهُ إلى الشخص .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [٤٣] وهذه استعارة .

---

(١) فى الأصل « نظائرها » بدون باء . وهو تحريف من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « ولا يعينه » من الإعانة . وهو تحريف .

(٣) انتاط به : أى تعلق به . ولاحظ هنا الجناس الناقص بين التياط وانتياط . وذلك من براعات الشريف الرضى .

والمراد أن الله سبحانه يعاقب المشركين على مكرهم بالمؤمنين ، فكأنما مكروا بأنفسهم ، ووجّهوا الضرر إليهم ، لا إلى غيرهم ، إذ كان المكر عائدا بالوبال عليهم . ومعنى لا يحيق أى لا يحلّ[١] ، ولا ينزل ، ولا يحيط إلا بهم .

وهذه الألفاظ كلها بمعنى واحد .

(٢) فى الأصل : « لا يجعل » وهو تحريف من الناسخ .

ومن السورة التي يذكر فيها « يس »

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [٧ ، ٨] .

وهاتان استعارتان . ومن أوضح الأدلة على ذلك أنّ الكلام كلّه فى أوصاف القوم المذمومين . وهم فى أحوال الدنيا دون أحوال الآخرة

ألا ترى قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٠] . وإذا كان الكلام محمولا على أحوال الدنيا دون أحوال الآخرة ، وقد علمنا أن هؤلاء القوم الذين ذهب الكلام إليهم كان الناس يشاهدونهم غير مقمحين بالأغلال ولا مضروب عليهم بالأسداد ، علمنا أن الكلام خرج مخرج قوله سبحانه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (١) وكأنّ ذلك وصف لما كان عليه الكفار عند سماع القرآن من تنكيس الأذقان ، وَلَيِّ الأعناق ، ذهابا عن الرشد ، واستكبارا عن الانقياد للحق ، وضيقَ صدورٍ بما يَرِدُ عليهم من مواقع البيان ، وقوارع القرآن . وقد اختلِفَ فى معنى الإقماح . فقال قوم : هو غض الأبصار ، واستشهدوا بقول بشر بن أبى (٢) خازم فى ذكر السفينة .

(١) سورة البقرة . الآية رقم ٧ .

(٢) البيت فى « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى ج ١٥ ص ٨ منسوبا إلى بشر فقط من غير ذكر لأبيه. وفى كتاب « القرطين » لابن مطرف ج ٢ ص ٨٧ لم ينسب لقائله . ولكن مصحح الكتاب نبه فى الهامش إلى بشر بن أبى حازم بالحاء المهملة كما جاء مثل ذلك فى كتاب « الحماسة » لابن الشجرى طبع حيدر أباد ص ٥ ، ٣٠٤ أماق صفحة ١٠٣ ، ٢٦٩ فجاء بغير ذلك . والصواب بالخاء المعجمة والزاى . وله ترجمة فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ص ٢٢٧ ، والخزانة ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٤ ، ومختارات ابن الشجرى ج ٢ ص ١٩ — ٣٣ والمفضليات بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون.

ونحنُ على جَوَانِبِها قُعُــودٌ نَغُضُّ الطَّرفَ كالإبل القِمَاحِ

وقال قوم : المقْمَحُ : الرافع رأسه متعمدا . فكأنَّ هؤلاء المذمومين شبِّهوا على المبالغة فى وصف تكارُهِهِم للإيمان ، وتضايُق صدورهم لسماع القرآن ، بقوم عوقبوا لجذبت أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم مضمومةً إليها أيمانُهُم ، ثم رفعت رءوسهم ، ليكون ذلك أشدَّ لإيلامهم ، وأبلغَ فى عذابهم .

وقيل : إن المقمح الغاضُّ بصره بعد رفع رأسه ، فكأنه جامعٌ بين الصفتين جميعا .

وقيل إن قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ يعنى به أيمانَهم المجموعة بالأغلال إلى أعناقهم ، فاكتفى بذكر الأعناق من الأيْمان لأن الأغلال تجمع بين الأيمان والأعناق . وكذلك معنى السَّدِّ المجعول بين أيديهم ومن خلفهم ، إنما هو تشبيه بمن قَصُر خطوُه وأُخِذت عليه طرقه . ولما كان مايصيبهم من هذه المشاق المذكورة والأحوال المذمومة إنما هو عقِيب تلاوة القرآنِ عليهم ، ونفثِ قوارعه فى أسْماعِهِمْ ، حَسُنَ أن يُضيف سبحانَهُ ذلك إلى نفسه ، فيقول : إنا جعلناهم على تلك الصفات .

وقد قرىء سَدًّا بالفتح ، وسُدا بالضم . وقيل إن السَّد بالفتح مايصنعه الناس ، والسُّدُّ بالضم مايصنعه الله تعالى .

وقال بعضهم : المراد بذكر السد ههنا : الإخبار عن خذلان الله سبحانه إياهم ، وتركه نصرَهم ومعونتهم ، كما تقول العرب فى صفة الضال المتحير : فلانٌ لا ينفذ فى طريق يسلكه ، ولا يعلم أمامه أم وراءه خير له . وعلى ذلك قول الشاعر :[1]

(١) لم أهتد إلى اسم الشاعر بعد طويل بحث ورجوع إلى كتب الشواهد والدواوين . والشكر أجزل الشكر لمن يهدينا إليه .

فأصبح لا يَدْرِى وإن كانَ حازِماً   أقدّامُه خيرٌ له أمْ وَرَاوُه

وأما قوله سبحانه : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فهو أيضا فى معنى الخَتْم والطَّبع ، وواقعٌ على الوجه الذى يقعان عليه . وقد تقدم إيماؤنا إليه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ [٣٧] . وهذه استعارة . والمراد نُخرجُ منه النهارَ ، ونستقصى تخليص أجزائه ، حتى لا يبقى من ضوء النهار شىء مع ظلمة الليل ، فإذا الناس قد دخلوا فى الظلام . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ كما يقال : أفْجَروا . إذا دخلوا فى الفجر ، وأنجدوا . وأتْهَمُوا . إذا دخلوا نَجْدا وتهامة .

والسَّلخ : إخراج الشىء مما لابسه والتحم به . فكل واحد من الليل والنهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها ، والجلود بحيوانها . ففى تخليص أحدهما من الآخر – حتى لا يبقى معه منه ظرف ، ولا عليه منه أثر – آية باهرة ، ودلالة قاهرة (١) . فسبحان الله رب العالمين

وقوله سبحانه فى ذكر البعث : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [٥٢] وهذه استعارة . لأن المَرْقَدَ هىهنا عبارة عن الممات ، فشبّهوا حال موتهم بحال نَوْمهم ، لأنها أشبه الأشياء بها . وكذلك قوة شَبه حالِ الاستيقاظ بحال الإحياء والإنشار . وعلى ذلك قوله عليه السلام : (إنَّكُمْ تموتونَ كما تنامُونَ ، وتُبْعَثُونَ كما تستيقظونَ) (٢) . وقال بعضهم : الاستعارة هىهنا أبلغ من الحقيقة . لأن

---

(١) هكذا بالأصل . ولا معنى للدلالة القاهرة . ولعلها ظاهرة .

(٢) هذا الحديث من خطبة له عليه السلام ، وهى أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه إلى الإسلام . وهى فى كتاب « جمهرة خطب العرب » جـ ١ ص ٥١ . وقد نقلها عن « السيرة الحلبية » جـ ١ ص ٢٧٢ ، وعن « الكامل » لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٧ .

النوم أكثر من الموت ، والاستيقاظ أكثر من الإحياء بعد الموت . لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة مرات ، وليس كذلك حال الموت والحياة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾[٦٦] . وهذه استعارة . والمراد بالطمس هنا : إذهاب نور الأبصار حتى يبطل إدراكها ، تشبيها بطمس حروف الكتاب ، حتى تشكل قراءتها .

وفيه أيضا زيادة معنى ، لأنه يدلُّ عَلَى مَحْوِ آثارِ عيونهم ، مع إذهاب أبصارها ، وكسف أنوارها . وقيل معنى الطَّمس إلحامُ الشقوق التى بين الأجفان حتى تكون مبهمة ، لا شقَّ فيها ، ولا شَفر لها . يقولون : أعمى مطموس وطميس، إذا كان كذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ [٦٨] وقرىء : ننكسه بالتشديد . وهذه استعارة . والمراد ـ والله أعلم ـ أنَّا نُعيد الشيخَ الكبير إلى حال الطفل الصغير فى الضَّعف بعد القوَّة ، والتثاقل بَعْدَ النهضة ، والإخْلاق [١] بَعْدَ الجدَّة . تشبيها بمن انتكس على رأسه ، فصار أعلاه سُفلا ، وأسفلُه عُلْوًا .

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٧٠] وهذه استعارة . والمراد بالحى هنا : الغافل الذى يستيقظ إذا أُوقِظَ ، ويتَّعظ إذا وعِظ . فسمَّى سبحانه المؤمن [٢] الذى ينتفع بالإنذار حيا لنجاته ، وَسَمَّى الكافر الذى لا يُصغى إلى الزواجر ميتا لهُلْكه .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[٧١] وهذه استعارة . والمراد بذكر الأيدى هنا قسمان من أقسام اليد فى اللغة

---

(١) الإخلاق : كون الشىء خلقا باليا بعد جدته .

(٢) فى الأصل : « للون » وهو تحريف من الناسخ . والتصويب مما يقتضيه السياق والمقابلة بين المؤمن والكافر ، والحى والميت .

العربية . إما أن تكون بمعنى القوة ، وبمعنى تحقيق الإضافة . فكأنه سبحانه قال : أَوَ لم يَرَوا أنا خلقنا لهم أنعاما اخترعناها بقوة تقديرنا ، ومُتْقَنِ تدبيرنا .

أو يكون المعنى أنَّ هذه الأنعام مما تولّينا خَلْقَهُ من غير أنْ يشاركنا فيه أحد من المخلوقين . لأن المخلوقين قد يعملون سفائن البحر ، ولا يعملون سفائن البرّ ، التى هى الأنعام المذللةُ ظهورُها ، والمحلَّلَةُ لحومُها . فهذا وجه فائدة الإضافة فى قوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ . والله أعلم .

ومن السورة التي يذكر فيها «الصافات»

قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[٤٨،٤٩] وهـذه استعارة . والمراد بالقاصرات الطَّرْف ههنا : اللواتى جعلْنَ نظرهن مقصورا على أزواجهنَّ . أى حَبَسْنَ النظر عليهم ، فلا يتعدينهم إلى غيرهم . وجيء بذكْر الطَّرف على طريق المجـاز . وإلا فحقيقة المعنى أنهن حَبَسْنَ الأنفُسَ على الأزواج عِفَّةً ودِينا ، وخلقا وصونا .

وإنما وقعت الـكناية عن هـذا المعنى بقصْر الطَّرف ، لأنَّ طماحَ الأعين فى الأكثر يكون سببا لتتبُّعِ النفوس وتطرُّب القلوب ، وعلى هذا قول الشاعر :

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا   لقلبك يوما أتعبَتْك المَنَاظِرُ (١)

والطرف ههنا واحد فى تأويل الجميع : ونظيره قوله سبحانه : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ (٢) . أى على أسماعهم ، أو مواضع استماعهم .

---

(١) البيت هو أحد بيتين أنشدتهما امرأة أمام أبي الغصن الأعرابى ، وكان قد خرج حاجا ، فمر بقباء ، وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل .. والقصة كاملة فى الجزء الرابع من «عيون الأخبار» لابن قتيبة . ص ٢٢ . وفى «شرح شواهد الـكشاف» للعلامة محب الدين ص ١٣٤ أنه من أبيات «الحماسة» . وفى «شرح الحماسة» للمرزوقى ج ٣ ص ١٢٣٨ لم يذكر اسم قائله . وإنما اكتفى بقوله : وقال آخر . ولم يتعرض العلامة المرزوقى لتحقيق اسم هذا الشاعر أو الشاعرة ، وإنما اكتفى بشرح البيتين شرحا أدبيا . وهما :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا   لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

(٢) سورة البقرة . الآية رقم ٧ .

ومن السورة التى يذكر فيها «ص»

قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ [١٢] وهذه استعارة على بعض الأقوال ، وهو أن يكون معنى ذى الأوتاد يعنى ذو المُلْك الثابت ، والأمر الواطد ، والأسباب التى بها يثبت السلطان ، كما يثبتُ الخباء بأوتاده ، ويقوم على عماده .

وقد يجوز أيضا أن يكون معنى ذى الأوتاد ، أى ذو الأبنية المشيَّدة، والقواعد الممهدة ، التى تشبَّه بالجبال فى ارتفاع الرءوس ورسوخ الأصول . لأن الجبال تسمى أوتاد الأرض . قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [١٥] . وقُرِىء : منْ فُوَاق[٢] بالضم . وقد قيل إنهما لغتان ، وذلك قول الكسائى . وقال أبو عبيدة : مَنَ فتح أراد مالها من راحة ، وَمَنْ ضمَّ أراد مالها فى إهلا كهم من مهلة بمقدار فُواق الناقة ، وهى الوقفة التى بين الحلبتين . والموضع الذى يحقق الكلام بالاستعارة على قراءة من قرأ من فواق بالفتح ، أن يكون سبحانه وَصَفَ تلك الصيحة بأنها لا إفاقة من سكرتها ، ولا استراحة من كربتها ، كما يفيق المريض من علته ، والسكران من نشوته . والمراد أنه لا راحة للقوم منها . فجعل سبحانه الراحة لها على طريق المجاز والاتساع . ومثله كثير فى الكلام .

---

(١) فى سورة «عم» قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا » الآية ٧.

(٢) الضم هوقراءة حمزةوالكسائى . وبقية القراءقرءوها بفتح الفاء . وقال الجوهرى : الفواق بالفتح والفواق بالضم مابين الحلبتين من الوقت. وفى الحديث الشريف : (العيادة قدر فواق الناقة) انظر « الجامع لأحكام القرآن» جـ ١٥ ص ١٢٦ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [٢٣]. وهذا الكلام داخل فى حيِّز الاستعارة . لأن النعاج ههنا كناية عن النساء . وقد جاءت فى أشعارهم الكناية عن المرأة بالشاة ، وعلى ذلك قول الأعشى .

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها (١)

أى : عن امرأته . وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حلَّت له حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ (٢)

وربما سمَّوا الظَّبية نعجة ، والظَّبية شبيهة بالمرأة ، فتكون اللفظة مستعارة على هذا التركيب

وإنما شُبِّهت النساء بالنعاج لأن النعاج يُرتبطن للاحتلاب والاستنتاج ، والنساء يُصْطَفَيْنَ للاستمتاع والاستيلاد .

وقوله تعالى فى ذِكْرِ الخَيل حاكِيا عن سليمان عليه السلام لما عُرِضَتْ عليه ، فكاد أن يفوتَه للشُّغل بها وَقْتُ صَلاةٍ كان يُصَلِّيها ، فَضَرَبَ رُءوسَها وَعَرَاقِيبها بالسيف ، على ما وردت به الأخبار : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [٣٣] وهذه استعارة . لأن المسح ههنا – فى أكثر أقوال أهلِ التأويل –

---

(١) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معد يكرب . ومطلعها :

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبى عليك ، فما تقول بدالها

وتبلغ أبياتها ٥٤ بيتا ، كما فى ديوانه الكبير الذى نشرته مكتبة الآداب بتحقيق الدكتور م . محمد حسين – ص ٢٧ . والعرب تكنى بالشاة عن المرأة والزوجة . والأعشى من شعراء العصر الجاهلى الذين اشتهروا بشعر الخمر ووصف مجالسها وآلاتها مما كان له أثر فى الشعراء بعده كالأخطل وأبى نواس .

(٢) قال ابن مطرف الكنانى فى شرح هذا البيت : (يعرض بجارية يقول : أى صيد أنت لمن حل له أن يصيدك ، فأما أنا فإن حرمة الجوار قد حرمتك على) ، وتجد شرحه فى « شرح القصائد العشر » للإمام التبريزى ص ٢٠٠ . وقال بعض النحاة : إن « ما » زائدة والأصل ياشاة قنص .

كنايةٌ عَنِ الضَّرْب بالسيف . وامتسَحَ رأسَه : إذا فَعَل به ذلك . وهـذه الباء ههنا للإلصاق . فكأنه تعالى قال : وَأَلْصَقَ السيف بسوقها وأعناقها . كما يقول القائل : مسحْتُ يَدى بالمنديل . أى ألصقتُها به . وعلى ذلك قول الشاعر [١] :

نَمَشُّ [٢] بِأعْرَافِ الجِيادِ أَكُفَّنَا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عن شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

أى نلصق أيدينا بأعرافها ، كما نلصقها بالمناديل التى تمسح بها الأيدى . وقد صرَّح بذلكَ الشاعرُ الآخر [٣] فقال :

* أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ *

والشاهد الأعظم على ذلك ماورد فى التنزيل من قوله سبحانه : ﴿ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [٤] على قراءة من قرأ : ﴿وَأَرْجُلِكُمْ ﴾ جرًّا . أى ألصقوا المَسْحَ بهذه المواضع . وهذه الآية يَسْتَدِل بها أهلُ العراق على أنَّ استيعاب الرأس بالمسح ليس بواجب ، خلافا لقول مالِك . وقال لى الشيخ أبو بكر محمد

(١) هو امرؤ القيس بن حجر الكندى ، أمير شعراء الجاهلية .

(٢) فى الأصل « نمس » بالسين المهملة وهو تحريف من الناسخ ، كما أنه ترك كلمة مضهب بدون نقط على الضاد المعجمة . والبيت من بائية امرئ القيس التى يقول فى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

انظر « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى . ص ٢٣ .

(٣) هو عبدة بن الطبيب الشاعر الجاهلى . والبيت كاملا هو :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

ويقول ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » إنه أخذه من قول امرئ القيس :

نمش بأعراف الجيـاد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

(٤) سورة المائدة . الآية رقم ٦ .

ابن موسى [1] الخوارزمى ـ أدام الله توفيقه ـ عند بلوغى عليه فى القراءة من مختصر أبى جعفر الطحاوى [2] إلى هذه المسألة : سألت أبا على الفارسى النحوى [3] وأبا الحسن على ابن عيسى الرمانى [4] : هل يقتضى ظاهرُ الآية إلصاق الفعل بجميع المحل أو بالبعض ؟ فقالا جميعا : إذا ألصق الفعل ببعض المحل تناوله الاسم . قال : وهذا يدل على الاقتصار على مسح بعض الرأس كما يقوله أصحابنا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [٤٥] وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ أولى القُوَى فى العبادة ، والبصائر فى الطاعة .

ولا يجوز أن يكون المراد بالأبصار ههنا الجوارح والحواس ، لأن سائر الناس يشاركون الأنبياء عليهم السلام فى خَلْق ذلك لهم . ولا يحسُنُ مَدْحُ الإنسان بأن له يَدًا وقَدَمًا وعَيْنًا وفَمًا . وإنما يحسُنَ أنْ يُمْدَحَ بأن له نفْسا شريفة ، وهمة منيفة ، وأفعالاً جميلة ، وخلالاً محمودة .

وقيل أيضا معنى أُولى الأيدى : أى أُولى النِّعَم فى الدين ، لأن ورود اليد بمعنى النعمة

---

(١) كدت أيأس من الحصول على ترجمة له إلى أن وجدته « فى تاريخ بغداد » ج ٣ ص ٢٤٧ . قالوا : ماشاهد الناس مثله فى حسن الفتوى والإصابة فيها وحسن التدريس ، وقد دعى إلى ولاية الحكم مرارا فامتنع منه . توفى سنة ٤٠٣ هـ أى قبل وفاة الشريف الرضى بثلاث سنوات .

(٢) هو الإمام أبو جعفر الطحاوى المصرى ، برع فى الفقه والحديث ، وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر ، وتفقه فى مذهب الإمام أبى حنيفة حتى صار إماما . توفى سنة ٣٢١ هـ

(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسى كان إماما فى النحو والعربية . وتقدمت ترجمته فى الهامش عند الكلام على سورة طه .

(٤) هو مفسر ونحوى كبير ، ولد ببغداد وتوفى بها سنة ٣٨٤ هـ وله كتب « التفسير » و « شرح أصول ابن السراج » و « شرح سيبويه » و « معانى الحروف » وترجمته فى « بغية الوعاة » و « ابن خلكان » و « الأعلام » للزركلى .

مشهور في كلامهم ، فإنهم أسْدَوْا إلى الناس أيديا بدعايتهم إلى الإيمان ، وافتلاتهم من حبائل الضَّلال .

وأما قوله سبحانه وتعالى في هـذه السورة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [٧٥] فقد مضى من الكلام على قوله تعالى في يس : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (١) ماهو بعينه الكلام على هـذا الموضع ، فلا فائدة في إعادته . وجُملته أن المراد بقوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ مزيةُ الاختصاص بخَلْق آدم عليه السلام من غير معونة مُعين ، ولا مظاهَرَة ظهير .

---

(١) سورة يس ، الآية رقم ٧١ .

ومن السورة التي يذكر فيها « الزُّمَرُ »

قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ، وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [٥] وهذه استعارة . والمعنى : يُعلى هذا على هذا . وذلك مأخوذ من قولهم : كار العِمامَة على رأسه يكورها . إذا أدارها عليه . وقد قالوا : طَعَنه فكوَّرَه . أي صَرَعه . ومنه قول أبي كبير الهذلي[1] :

متكورين على المعارى بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ كتعطاطِ المَزادِ الْأَنْجَلِ

ومنه الحديث المأثور : (نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ)[2] أى من الإدبار بعد الإقبال . وقيل من القلة بعد الكثرة . لأنهم يسمُّون القطيع الكثير من البقر وغيرها كوراً . ومنه قول أبي ذؤيب[3] فى صفة الثور :

---

(١) أبو كبير الهذلى هو عامر بن الحليس . وهو شاعر جاهلى . وله ترجمة فى « الشعر والشعراء » و « الإصابة » و « الخزانة » و « اللآلى » . وزعموا أنه تزوج أم الشاعر « تأبط شرا » وكان هذا غلاما صغيرا فلما رآه يكثر الدخول على أمه تنكر له .. والقصة كاملة فى كتاب « ديوان الهذليين » ج ٢ ص ٨٨ ومتكورين أى بعضهم على بعض ، والمعارى : السوءات . والتعطاط من العط ، وهو الشق ، والأنجل : الواسع .

(٢) فى « أساس البلاغة » : « وأعوذ بالله من الحور بعد الكور » . والباطل فى حور — بالضم — وهما النقصان ، كالهون والهون . والحديث كاملا فى « المجازات النبوية » طبع القاهرة ، صفحة ١١٣ ، ونصه : (اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر . وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور . وسوء المنظر فى الأهل والمال) .

(٣) هو أبو ذؤيب الهذلى خويلد بن خالد ، جاهلى إسلامى ، وكان راوية للشاعر الهذلى ساعدة بن جؤية . وقالوا : إنه خرج مع عبد الله بن الزبير فى مغزى نحو المغرب فمات . وهو صاحب العينية المشهورة التى يرثى بها سبعة من أبنائه ماتوا فى يوم واحد ، ومطلعها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وشعره فى « ديوان الهذليين » طبع دار الكتب المصرية .

وَلَا شبوبٌ من الثيرانِ أَفْرَدَهُ عنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ ٱلإِغْرَاء وَالطَّرَدِ

أى عن سربه الكثير .

فيجوز أن يكون معنى ﴿ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ ﴾ على قول من يقول : طعنه فكوّره ، يريد : فصَرَعَهُ . أى يلقى الليل على النهار ، ويُلقى النهار على الليل .

ويكون المعنى على قول من يذهب إلى أن الكوْر اسم للكثرة ، أى يُكثر أجزاء الليل على أجزاء النهار ، حتى يَخْفَى ضوء النهار وتغلب ظلمة الليل . ويكوّرُ النهار على الليل . أى يُكثر أجزاء النهار ، حتى تظهر وتنتشر وتتلاشى فيها أجزاء الليل وتضمحل .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [٤٢] وفى هذا الكلام استعارة خفية . وذلك أنّ قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أى يقبضها ﴿ وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ منسوقٌ تعبير . فظاهر الخطاب يقتضى أنه سبحانه يَتَوَفَّى الأنفس التى لم تمت فى منامها أيضا . ونحن نجد أمارة بقاء نفْس النائم فى جسده بأشياء كثيرة . منها ظهور التنفس والحركة وحذف لسانه بالكلمة بعد الكلمة ، وغير ذلك مما يجرى مجراه . فيكون معنى توفّى النفس النائمة ههنا اقتطاعها عن الأفعال التمييزية ، والحركات الإرادية ، كالعُزوم[1] والقُصُود وترتيب القيام والقعود، إلى غير ذلك مما فى معناه .

وقال بعضهم : الفرق بين قبض النوم وقبض الموت أن قبض النوم يضاد اليقظة

---

(١) جمع عزم وهو مايعزم الإنسان عليه من قصد ونية .

وقبضَ الموت [يضاد الحياة] (١) . وقبضُ النوم تكون الروح معه فى البدن ، وقبضُ الموت تخرج الروح معه من البدن .

وقوله سبحانه : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ ﴾ [٥٦] وهذه استعارة . وقد اختلف فى المراد بالجنب ههنا . فقال قوم : معناه فى ذات الله .

وقال قوم : معناه فى طاعة الله ، وفى أمر الله . لأنه ذَكَر الجنب على مَجرى العادة فى قولهم : هذا الأمر مُعَال فى جَنب ذلك الأمر أى فى جهته . لأنه إذا عبَّر عنه بهذه العبارة دل (٢) على اختصاصه به من وجه قريب من معنى صفته .

وقال بعضهم : معنى فى جنْب الله . أى فى سبيل الله ، أو فى الجانب الأقرب إلى مرضاته ، بالأوْصل إلى طاعاته .

ولما كان الأمر كلُّه يتشعب إلى طريقين : إحداهما هدًى ورشاد ، والأخرى غيٌّ وضلال ، وكلٌّ واحد منهما مجانب لصاحبه ، أو هو فى جانب ، والآخر فى جانب ، وكان الْجَنْبُ والجانِبُ بمعنى واحد ، حسنت العبارة ههنا عن سبيل الله بجنب الله ، على النحو الذى ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٦٣] وهذه استعارة . والمقاليد : المفاتيح . قال أبو عُبيدة : واحدها مقليد ، وواحد الأقاليد إقليد . وهما بمعنى واحد . وقال غيره : واحدها قلد على غير قياس .

---

(١) ماين حاصرتين ليس فى الأصل ، وقدزدناها ، لأن الكلام يستقيم بها . ولعل الناسخ نسيها وهو يكتب فأسقطهامن مكانها

(٢) فى الأصل : (ودل) بالواو ولا معنى لها .

وقال أبو عمرو بن العلاء[١] : وجْهُهُ فى العربية أن يكون الواحد على لفظ مِقْلَدٍ، ثم تجمع مَقَالِد . فمن شاء أن يُشبع كسرة اللام قال مقاليد . كما قالوا : درهم ودراهيم.

قال : وسمعتُ أبا المنذر يقول : واحد المفاتيح مِفْتَاحٌ . وواحد المفاتح مِفْتَحٌ . والمعنيان جميعا واحد .

والمراد بمقاليد السموات والأرض ههنا ـ والله أعلم ـ أى مفاتيح خيراتهما ، ومعادن بركاتهما، من إدرار الأمطار ، وإيراق الأشجار ، وسائر وجوه المنافع ، وعوائد المصالح .

وقد وصف سبحانه السماء فى عدة مواضع بأنّ لها خزائنَ وأبواباً ، فحَسُن على مقتضى الكلام أن توصف بأن لها مقاليد وأغلاقا .

قال سبحانه : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[٣] وقال عزّ مِنْ قائل : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٤] .

وقالوا : خزائن السموات الأمطار ، وخزائن الأرض النبات . وقد يجوز أن يكون معنى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى طاعة السموات والأرض ومَنْ فيهن . كما يقال : ألقى فلان إلى فلان مقاليده . أى أطاعه ، وفوّض إليه أمره .

وعلى ذلك قول الأعشى[٥] :

---

(١) هو زبان بن عمار التميمى البصرى . كان إماما فى اللغة والأدب والشعر ورواية الأخبار . وقد تلقى أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية . توفى بالكوفة سنة ١٥٤ هـ

(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٩

(٣) سورة القمر : الآية رقم ١١ .

(٤) سورة المنافقون . الآية رقم ٧ .

(٥) سبقت ترجمته فى الحديث عن مجازات سورة ص . والبيت من قصيدة للأعشى يمدح بها « هوذة ابن على الحنفى » ويذم « الحارث بن وعلة بن مجالد الرقاشى » . ومطلعها :

أجدك ودعت الصبا والولائدا   وأصبحت بعد الجور فيهن قاصدا

فَتًى لو يُنادِى ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِناعَها ... أو القَمَرَ ٱلسّارِى لَأَلْقَى ٱلْمَقالِدَا

أى لسلم العلوّ إليه ، واعترف له به .

وقال بعض العلماء : ليس قول الشاعر ههنا : ينادى الشمس ، من النداء الذى هو رفع الصوت ، وإنما هو من المجالسة . تقول : ناديت فلانا . إذا جالسته فى النادى . فكأنه قال : لو يجالس الشمس لألقت قناعها شغفا به ، وتبرجاله . وهذا من غريب القول .

وقوله سبحانه : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [٦٧] وهاتان استعارتان . ومعنى قبضته ههنا أى مِلْكٌ له وخالص ، قد ارتفعت عنه أيدى المالكين من بريته ، والمتصرفين فيمن خليقته . وقد ورث تعالى عبادَه ما كان ملكهم فى دار الدنيا من ذلك ، فلم يَبْقَ مِلْكٌ إلا انتقل ، ولا مالك إلا بَطل .

وقيل أيضا : معنى ذلك أن الأرض فى مقدوره ، كالذى يقبض عليه القابض ، فتستولى عليه كفه، ويحوزه ملكه ، ولا يشاركه فيه غيره .

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أى مجموعات فى ملكه ، ومضمومات بقدرته . واليمين ههنا بمعنى المِلك . يقول القائل : هذا مِلْكُ يمينى . وليس يريد اليمين التى هى الجارحة . وقد يعبرون عن القوة أيضا باليمين . فيجوز على هذا التأويل أن يكون معنى قوله سبحانه : ﴿مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أى يجمع أقطارها ويطوى انتشارها بقوته ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَاءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ (١)﴾ . وقيل فى اليمين ههنا وجه آخر . وهو أن تكون بمعنى القَسَم . لأنه سبحانه لما قال فى «الأنبياء» : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَاءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا

---

(١) للكتاب ، أو للكتب ، على قراءتى الإفراد والجمع ، كما سبق القول فى سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ كان التزامه تعالى فِعْلَ ما أوجبه على نفسه بهذا الوعد كأنه قَسَمٌ أقْسَمَ به ليفعلنَّ ذلك . فأخبر سبحانه فى هذا الموضع من السورة الأخرى أن السموات مَطْويات بيمينه ، أى بذلك الوعد الذى ألزمه نفسه سبحانه . وجرى مَجرى القَسَم الذى لابد أن يقع الوفاء به ، والخروج منه .

والاعتمادُ على القولين المتقدمين أَوْلَى .

ومن حم

وهى السورة التى يذكر فيها « المؤمن »

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [٧] وهذه استعارة . لأن حقيقة السعة إنما توصف بها الأوعية والظروف التى هى أجسام ، ولها أقدار ومساحات ، والله سبحانه يتعالى عن ذلك .

والمراد ـ والله أعلم ـ أنّ رحمتك وعلمك وَسِعَا كُلَّ شىء ، فنقل الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم : طِبْتُ بهذا الأمر نفساً . وضِقتُ به ذَرْعًا . أى طابت نفسى ، وضاق ذَرْعى . وجُعل العلم موضع المعلوم ، كما جاء قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (١) أى بشىء من معلومه .

وقوله سبحانه : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [١٥] . وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قولهُ تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ﴾ والمعنى : أن منازل العز ، ومراتب الفضل التى يخصُّ بها عبادَه الصالحين ، وأولياءه المخلصين رفيعة الأقدار ، مشرفة المنار .

فالدرجات المذكورة هى التى يرفع عباده إليها ، لا التى يرتفع هو بها . تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرا .

---

(١) سورة البقرة . الآية رقم ٢٥٥ .

والاستعارة [(١) الأخرى] قوله سبحانه : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ والرُّوح ههنا كناية عن الوحى كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (٢) وإنما سمّى روحا لأن الناس يَحْيَوْنَ به من موت الضلالة ، وينشرون من مدافن الغفلة . وذلك أحسنُ تشبيه ، وأوضح تمثيل .

وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [١٩] وهذه استعارة . والمراد بخائنة الأعين – واللهُ أعلمُ – الرَّيْب فى كسر الجفون ، ومرامز العيون .

وسمّى سبحانه ذلك خيانة ، لأنه أمارة للريبة ، ومجانب للعفة .

وقد يجوز أن تكون خائنة الأعين ههنا صفةً لبعض الأعين بالمبالغة فى الخيانة ، على المعنى الذى أشرنا إليه . كما يقال : علّامة ، ونسّابة .

وأنشدوا قول الشاعر (٣) فى مثل ذلك :

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تَكُنْ لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الْأَصْبعِ

أى لم تكن موصوفا بالمبالغة فى الخيانة . ومعنى مغلّ الأصبع : أى سارق مختلس .

---

(١) هذه اللفظة ساقطة من الأصل ، وهى ضرورية فى معرض تفصيل الاستعارتين .

(٢) سورة الشورى . الآية رقم ٥٢ .

(٣) لم ينسبه المؤلف لقائله . وفى « شرح شواهد الكشاف » للعلامة محب الدين : أنه للشاعر الكلابى . وقد استشهد به الإمام الزمخشرى فى تفسيره عندما تحدث عن قوله تعالى فى سورة النساء : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) .

وأضاف الأغلال إلى الأصبع ، كما أضاف الآخر[١] الخيانة إلى اليد فى قوله :

أولَّيْتَ العِرَاقَ وَرَافِدَيْهِ   فزَارِيًّا أحَذَّ يَدِ القَمِيصِ

أى خفيف اليد فى السرقة والأخذ الخفيف السريع . وعنى برافديه : دجلة والفرات .

وإنما ذكرت اليد والأصبع فى هذين الموضعين ، لأن فعل السارق والمختلس فى الأكثر إنما يكون باستعمال يده ، واستخدام أصابعه .

(١) هو الشاعر الفرزدق . والبيت من أبيات فى ديوانه ، وقد أشار إليه ابن قتيبة فى مقدمته لكتابه « الشعر والشعراء » ص ٣٤ ، وهو يتحدث عن التكلف وضرورات القافية . والفرزدق يخاطب الخليفة يزيد بن عبد الملك شاكيا عمر بن هبيرة .

وفى « أساس البلاغة » للزمخشرى روى هذا البيت هكذا :

بعثت على العراق ورافديه   فزاريا أحذ يد القميص

ومن حٰمٓ

وهى السورة التى تجب فيها « السجدة »[١]

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [٥] وهذه استعارة . والأكنَّة جمع كنان ، وهو الستر والغِطاء . مثل : عِنان ، وأعنَّة . وسِنَان ، وأسنَّة .

وليس هناك على الحقيقة شيء مما أشاروا إليه . وإنما أخرجوا هذا الكلام مُخْرَج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن ، وبواقع البيان . فكأنُّهم من قوة الزهادة فيه ، وشدَّةِ الكراهية له، قد وقرت أسماعهم عن فهمه ، وأُكِنَّتْ قلوبهم دون علمه .

وذلك معروف فى عادات الناس أن يقول القائل منهم لمن يَشْنَأُ كلامه ، ويستثقل خطابه : ما أسمعُ قولك ، ولا أعِي لفظك . وإن كان صحيحَ حاسَّةِ السمع . إلا أنه حَمَل الكلام على الاستثقال والمقْتِ .

وعلى هذا قول الشاعر[٢] :

وكلامٍ سَيِّءٍ قدْ وقِرَتْ أُذُنِي عنه ، وما بى من صَمَمْ

---

(١) هى سورة فصلت ، وهى السورة الحادية والأربعون من القرآن .

(٢) لم أهتدإلى اسم هذا الشاعر ، وقد ورد هذا البيت فى « أساس البلاغة » للزمخشرى مادة « وقر » ولم يذكر قائله . وروايته فى الأساس هكذا :

كم كلام سيء قد وقرت أذنى عنه ، وما بى من صمم

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [١١] . وهذه استعارة . فليس هناك ـ على الحقيقة ـ قول ولا جواب ، وإنما ذلك عبارة عن سرعة تكوين السموات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) ولو لم يكن المراد ما ذكرنا لكان فى هذا الكلام أمر للمعدوم ، وخطاب لغير الموجود . وذلك يستحيل من فعل الحكيم سبحانه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أنهما جرتا على المراد ، ووقفتا عند الحدود والأقدار ، من غير معاناة طويلة ، ولا مشقة شديدة . فكانت فى ذلك جارية مَجْرى الطائع المميِّز إذا انقاد إلى ما أُمر به، ووقَفَ عند ما وقف عندهُ .

وقال بعضهم : معنى قوله سبحانه : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى : كُونا على ماأُريد منكما من لين وشدة ، وسهل وحُزونة ، وصَعْبٍ وذَلول ، ومُبْرَمٍ وسحيل (٢) .

والكره والشدة بمعنى واحد فى اللغة العربية . يقول القائل منهم لغيره : أنا أَكْرَه فِراقَكَ . أى يصعُب علىَّ أن أفارقك .

وقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) أى شديد عليكم . ومعنى الطوع ههنا: التشهد (٤) والانقياد من غير إبطاء ولا اعتياص .

وإنما قال سبحانه : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ لأنه جعل السموات والأرضَ كلَّها كالواحدة والأرض جميعا كذلك ، فحسُن أن يعبر عنهما بعبارة الاثنين دون عبارة الجميع .

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٤٠ .
(٢) المبرم : الخيط أو الحبل الذى فتل فتلين ، والسحيل : الحبل الذى فتل فتلا واحدا .
(٣) سورة البقرة . الآية رقم ٢١٦ .
(٤) هكذا بالأصل . ولعلها التسهل .

وأما قوله سبحانه : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فكان وَجْه الكلام أن يكون طائعتين ، أو طائعات رداً على معنى التأنيث . فالمراد به ـ والله أعلم ـ عند بعضهم : قالتا أتينا بمن فينا من الخَلْق طائعين . فكان (طائعين) وَصْفاً للخلق المميزين ، لا وصفا للسموات والأرض .

وقال بعضهم : لمّا تَضَمَّنَ الكلامُ ذِكْرَ السموات والأرض فى الخطاب لهما ، والكناية عنهما بما يُخَاطَبُ به أهلُ التميز ويُكْنَى به عن السامعين الناطقين ، أُجْرِيَتَا فى رد الفعل إليهما مُجْرَى العاقل اللبيب ، والسامع المجيب . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (١) . ولو أجرى اللفظ على حقيقته ، وَحُمِلَ على محجَّته لقيل ساجدات . ولكن المراد بذلك لما كان ما أشرنا إليه حَسُنَ ، أن يُقال ساجدين ، وطائعين .

وقوله سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [١٧] وهذه استعارة . والمراد بالعَمَى ههنا ظلام البصيرة ، والمتاه فى الغواية . فإن ذلك أخفُّ على الإنسان وأشد ملاءمة للطباع ، من تحمل مشاق النظر ، والتلجيج فى غمار الفكر .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٢٣] وهذه استعارة . لأن الظن الذى ظنوه على الحقيقة لم يُرْدِهِمْ بمعنى يُهْلِكهم . وإنما أهلكهمُ اللهُ سبحانه جزاء على ماظنوه به من الظنون السيئة ، ونَسَبُوه إليه من الأفعال القبيحة . فلما كان ذلك الظن سببا فى هلاكهم جاز أن يُنْسَبَ إليه الهلاكُ الواقع بهم .

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٤ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [٣٩] وهذه استعارة . وقد مضى الكلام على نظيرها فى «الحج» . إلا أن ههنا زيادة ، وهى صفة الأرض بالخشوع ، كما وُصفت هناك بالهمود . واللفظانِ جميعا يرجعان إلى معنى واحد ، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب ، وأعلام المحْل ، فتكون كالإنسان الخاشع الذى قد سكنت أطرافه ، وتطأطأ استشرافه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [٤١] ، [٤٢] وهذه استعارة . وقد قيل فيها أقوال : منها أن يكون المراد بذلك أن هذا الكتاب العزيز لا يشبهه شىء من الكلام المتقدم له ، ولا يشبهه شىء من الكلام الوارد بعده . فهذا معنى : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لأنه لو أشبهه شىء من الكلام المتقدم أو الكلام المتأخر لَأَبْطَل معجزته ، وفصم حجته . فكأن الباطل قد أتاه من إحدى الجهتين المذكورتين ، إما من جهة أمامه ، وإما من جهة ورائه . وهذا معنى عجيب .

وقال بعضهم : معنى ذلك أنه لا تَعَلَّقُ به الشُّبهةُ من طَرِيقِ المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة ، فهو الحق الخالص الذى لا يشوبه شائب ، ولا يلحقه طالب .

وقال بعضهم : معنى ذلك أن الشيطان والإنسانَ لا يقْدِران على أن ينتقصا منه حقا ، ولا يزيدا فيه باطلا .

وقال بعضهم : معنى ذلك أنه لا باطل فيه من الإخبار عمّا كان وما يكون . فكأنّ المراد بقوله سبحانه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى من جهة ما أخبر عنه

من الأمور الواقعة . وبقوله : ﴿ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أىْ من جهة ما أخبر عنه من الأمور المتوقعة .

وقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [٤٤] وهذه استعارة . والمراد بها ـ والله أعلم ـ صفتُهم بالتباعد عن طريق الرشد ، والإعراضِ عن دُعاء الحق . كأنهم من شدة الذهاب بأسماعهم ، والانصراف بقلوبهم يُنَادَوْنَ من مكان بعيد . فالنداء غير مُسمع لهم ، ولا واصل إليهم . ولو سَمِعُوه لضلّ عنهم فَهْمُه ، للصدِّ[1] المنفرج بينهم وبينه .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [٥١] وهذه استعارة ، والمراد بها صفة الدعاء بالسّعة والكثرة ، وليس يراد العرض الذى هو ضد للطول . وذلك أن صفة الشىء بالعرض تفيد فيه معنى الطول ، لأنه لو لم يكن مع العرض طولٌ لكان العرض هو الطُّولُ . ألا ترى أنهم يصفون الرُّمْحَ بالطول ، ولا يصفونه بالعرض إذ كان طولهُ أضعافَ عرضه . ويصفون الإزَار بأنه عريض إذ كان عرضه مقارباً لطوله .

وقد استقصينا شرح ذلك فى كتابنا الكبير ، واقتصرنا منه ههنا على البُلغة الكافية ، والنكتة الشافية .

---

(١) غير واضحة بالأصل ، ولعلها للبعد .

ومن حم عسق

وهى السورة التى يذكر فيها «الشورى»

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [١٣] وهذه استعارة . والمراد بإقامة الدين إعلان شعاره ، وإعلاء مناره ، والدوام على اعتقاده ، والثبات على العمل بواجباته .

وقد مضى الكلام على نظائر هذه الاستعارة فيما تقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [١٦] وهذه استعارة . والدحض : الزَّلق . فكأنه تعالى قال : حجتهم ضعيفة غير ثابتة ، وزالّةٌ غير متماسكة ، كالواطىء الذى تضعف قدمُه فيزلق عن مستوى الأرض ، ولا يستمر على الوطء . وداحضةٌ ههنا بمعنى مدحوضة . وإذا نُسب الفعل إليها فى الدحوض كان أبلغ فى ضعف سنادها ، ووهاء عمادها . فكأنها هى المبطلة لنفسها من غير مُبْطِلٍ أبْطلها ، لظهور أعلام الكذبِ فيها ، وقيام شواهدِ التهافُت عليها . وأطلق تعالى اسم الحجة عليها وهى شبهة ، لاعتقاد المُدْلى بها أنها حجة ، وتسميته لها بذلك فى حال النزاع والمناقلة .

وأيضا فإن المتكلم بها لما أوردها مورد الحجة ، وأسلكها طريقها ، وأقامها مقامها ، جاز أن يطلق عليها اسمها .

وقوله سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [٢٠] وهذه استعارة . والمراد بحرث الآخرة والدنيا كدْحُ الكادح لثواب الآجلة وحُطام العاجلة ، فهذا من التشبيه العجيب ، والتمثيل المصيب . لأن الحارث المزدَرِعَ إنما يتوقع عاقبة حَرْثِهِ ، فيجنى ثمرةَ غراسه ، ويفوز بعوائد ازدراعه .

وقيل معنى : ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى نعطيه بالحسنة عشْرًا إلى ما شئنا من الزيادة على ذلك . وَمَنْ عمل للدنيا دُون الآخرة أعْطيناه نصيباً من الدُّنيا دُونَ الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [٢٨] وهذه استعارة . وليس المراد أن هناك رحمةً كانت مطْويَّةً فنُشرتْ ، وخفيَّةً فأظْهِرَتْ . وإنما معنى الرحمة ههنا الغيثُ المنزَّل لإحياء الأرض ، وإخراج النَّبْت . ونَشْرُهُ عبارةٌ عن إظهار النفع به ، وتعريفِ الْخلق عواقبَ المصالحِ بموْقعه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [٤٥] وهذه استعارة . وقد أشرنا إليها فيما تقدم لمعنى جرَّ ذكرها . والمراد بذلك أن نظرهم نظَرُ الخائف الذليل ، والمرتاب الظَّنين . فهو لا يَنْظرُ إلا مُسْتَرِقًا ، ولا يُغْضِى إلا مُشْفقا . وهذا معنى قولهم : فلانٌ لا يملأُ عَيْنيه مِنْ فلان . إذا وصفوه بعظم الهَيْبَة له ، وشدَّة المخافة منه . فكأنهم لا ينظرون بمتَّسعاتِ عيونهم ، وإنما ينظرون بشفافاتها[1] . مِنْ ذُلِّهم ومخافتهم .

---

(١) لعلها جمع شفافة وهى بقية الشىء .

وقد يجوز أن يكون الطرف ههنا بمعنى العين نفسِها . فكأنه تعالى وصفهم بالنظر من عين ضعيفة ، على المعنى الذى أشرنا إليه ، أو يكون الطرف مصدرَ قولك : طَرَفْتُ ، أطْرِفُ ، طَرْفاً . إذا لحظت . فيكون المعنى أن لحظهم خفِيٌّ ، لأن نظرهم استراقٌ — كما قلنا أولا — من عظيم الخيفة ، وتوقُّع العقوبة .

ومن حم

وهى السورة التى يذكر فيها « الزخرف »

قوله سبحانه : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [٥] وهذه استعارة . ويقال : ضربتُ عنه وأضربت عنه بمعنى واحد .

وسواء قولك ذهبْتُ عنه صَفْحًا ، وأعْرَضْتُ عنه صفحاً ، وضَرَبْتُ وأضرَبْتُ عنه صَفْحاً ، ومعنى صفحاً ههنا أى أعرضتُ عنه بصفحة وجهى .

والمراد ـ والله أعلم ـ أفَنُعرض عنكم بالذِّكْر ، فيكون الذِّكْرُ مرورا بصَفْحه عنكم من أجْل إسرافكم وبَغْيِكُمْ ؟ أى لسنا نفعل ذلك ، بل نوالى تذكيركم لتتذكروا ، ونتابع زجركم لتنزجروا . ولما كان سبحانه يستحيل أن يصف نفسه بإعراض الصفحة ، كان الكلام محمولا على وَصْف الذِّكْر بذلك على طريق الاستعارة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [١١] وهذه استعارة . وقد مضى مثلها فيما تقدم ، إلا أن ههنا إبدال لفظة مكان لفظة . لأن ما مضى[١] من نظائر هذه الاستعارة إنما يكونُ يَرِدُ بلفظ إحياء الأرض بعد موتها . وورد ذلك ههنا بلفظ الإنشار بعد الموت . وهو أبلغ . لأن الإنشار صفة تختص بها الإعادة بعد الموت ، والإحياء قد يشترك فيه ما يُعاد من الحيوان بعد موته ، وما يُعاد من النبات والأشجار بعد تسلبه[٢] وجفوفه . يقال : قد أحيا اللهُ الشجر .

---

(١) فى الأصل . (لأن أمضى) وهو تحريف من الناسخ .

(٢) هكذا بالأصل . ولعلها (تلبده) .

كما يقال : قد أحيا البشرَ . ولا يقال : أنشرَ اللهُ النبات ، كما يقال : أنشرَ الأموات .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٢٨] وهذه استعارة . لأن الكلام الذى هو الأصوات المقطَّعة ، والحروف المنظومة ، لا يجوز عليه البقاء . وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أن إبراهيم عليه السلام جعل الكلمة التى قالها لأبيه وقومه وهى قوله : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [٢٦، ٢٧] باقيةً فى عقبه ، بأن وَصَّى بها وَلدَهَ ، وأمرَهم أن يتواصَوْا بها ما تناقلتهم الأصلابُ ، وتناسختهمُ الأدوار . وهذه الكلمة هى[1] كلمة الإخلاص والتوحيد . والله أعلم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [٤٥] وهذا الكلام أيضا داخل فى قبيل الاستعارة . لأن مسألة الرسل الذين دَرَجَت قرونُهم وخَلَتْ أزمانُهم غير مُمكنة . وإنما المراد ـ واللهُ أعلمُ ـ واسأل أصحابَ مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أو استَعلِمْ مافى كتبهم ، وتعَرَّفْ حقائق سُنَنهم . وذلك على مثال : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[2] .

وقال بعضهم : مسألةُ الرسل ههنا بمعنى المسألة عنهم ، عليهم السلام ، وعمَّا أتوْا به من شريعة ، وأقاموه من عماد سنَّة . وقد يأتى فى كلامهم : اسألْ كذا . أى اطلبه ، واسألْ عنه .

قال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[3] أى مسئولا عنه .

---

(١) فى الأصل « وهى » والواو زائدة من الناسخ .

(٢) سورة يوسف . الآية رقم ٨٢ .

(٣) سورة الإسراء . الآيه رقم ٣٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] أى سُئِل عن قتلها ، وطُلب بدمها . فكأنه تعالى قال لنبيه عليه السلام : واسأل عن سنن الأنبياء قبلك ، [و][2] شرائع الرسل الماضين أمامك ، فإنك لا تجد فيها إطلاقا لعبادة معبود إلا الله سبحانه . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

---

(١) سورة التكوير . الآيتان ٨، ٩ .

(٢) ليست الواو بالأصل ، وقد وضعناها لأن السياق يقتضيها عطفا على ماقبلها .

ومن حم

وهى السورة التى يذكر فيها « الدخان »

قوله سبحانه : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [٤] وهـذه استعارة ، وقد مضى الـكلام على مثلها فى بنى إسرائيل . والمراد ـ والله أعلم ـ تبيين كل أمر حكيم فى هذه الليلة ، حتى يصير كفَرْق الصبح فى بيانه ، أو مَفْرِق الطريق فى اتضاحه . ومنه قولهم : فرقت الشعر . إذا خلصت بعضه من بعض ، وبيّنتَ مخطّ وسطه بالمدْرَى[١] أو بالأصبع .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [١٩] وهـذه استعارة . والمراد بالعُلُوّ ههنا : الاستكبار على الله سبحانه ، وعلى أوليائه .

ويوصَف المستكبر فى كلامهم بأن يُقال : قد شمخ بأنفه . وهـذه الصفة مِثْلُ وصفه بالعلو . لأن الشامخ : العالى .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[٢] أى تجبّر فيها ، واستكبر على أهلها . وليس يراد بذلك العلوّ الذى هو الصعود . وإنما يراد به العلوّ الذى هو الاستكبار والعتوّ . وضدُّ وصفهم المستكبرَ بالعلو والتطاول وَصْفُهُم المتواضع بالخشوع والتضاؤل .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [٢٩] وهذه استعارة . وقد قيل فى معناها أقوال : أحدها أن البكاء ههنا بمعنى الحزن ، فكأنه

---

(١) المدرى : المشط الذى يدرى به الرأس ويمشط .

(٣) سورة القصص . الآية رقم ٤ .

تعالى قال : فلم تحزن عليهم السماء والأرض بعد هلاكهم وانقطاع آثارهم . وإنما عبَّر سبحانه عن الحزن بالبكاء لأن البكاء يصدر عن الحزن فى أكثر الأحوال . ومن عادة العرَب أن يصفُوا الدَّار إذا ظَعَنَ عنها سُكَّانها ، وفارقها قُطَّانها بأنها باكية عليهم ، ومتوجعة لهم . على طريق المجاز والاتساع . بمعنى ظهور علَامات الخشوع والوحشة عليها ، وانقطاع أسباب النعمة والأنَسَة عنها .

ووجه آخر وهو أن يكون المعنى : لوكانت السموات والأرض من الجنس الذى يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم ، ولم تتوجَّعا لهم ، إذ كان الله سبحانه عليهم ساخطا ، ولهم ماقِتاً .

ووجه آخر ، قيل معنى ذلك : مابكى عليهم من السموات والأرض مايبكى على المؤمن عند وفاته ، من مواضع صلواته ، ومَصَاعِد أعماله ، على ماوَرَد الخبَرُ به .(١)

وفى ذلك وَجْهان آخران يخرجُ بهما الكلام عن طريق الاستعارة ، فأحدهما أن يكون المعنى : فما بكى عليهم أهل السماء والأرض . ونظائرُ ذلك فى القرآن كثيرة . والآخَر أن يكون المعنى أنه لم ينتصر أحدٌ لهم ، ولم يَطْلُب طالب بثأرهم .

ومضى فى أشعار العرب : بَكَيْنا فلانا بأطراف الرماح ، وبمضارب الصفاح . أى طلبنا دمه ، وأدركنا ثأره .

---

(١) روى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن مؤمن إلا وله فى السماء بابان : باب ينْزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه . ثم تلا قوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض) انظر « الجامع لأحكام القرآن » ج ١٦ ص ١٤٠ وقال على وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء . (نفس المصدر السابق) .

ومن حم

ومن السورة التى يذكر فيها « الجاثية »

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ [١٨] وهذه استعارة . لأن الشريعة فى أصل اللغة اسم للطريق المُفْضِيَةِ إلى الماء المَوْرود . وإنما سُمِّيَتِ الأديان شرائع لأنها الطرق الموصِّلة إلى موارد الثواب ، ومنافع العباد ، تشبيها بشرائع المناهل التى هى مَدْرَجَةٌ إلى الماء ،ووُصْلَةٌ إلى الرِّواء .

وقوله سبحانه : ﴿ هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [٢٩] وهذه استعارة . وقد مضت الإشارة إلى نَظيرها فيما تقدم . والمعنى أن الكتاب ناطق من جهة البيان ، كما يكون الناطق من جهة اللِّسانِ . وشهادة الكِتاب ببيانه ، أقوَى من شهادة الإنسان بلسانه .

ومن حم

وهى السورة التى يذكر فيها «الأحقاف»

قوله تعالى : ﴿ إِيتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٤] وهـذه استعارة على أحد التأويلات . وهو أن يكون معنى : ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى شىء يستخرج من العلم بالكشف والبحث ، والطَّلَبِ والفَحْص ، فتثور حقيقته ، وتظهر خبيئته ، كما تُستثار الأرض بالمحافر ، فيخرجُ نباتُها ، وتظهر نثائلها[١] . أو كما يُستَثار القنيص من مجاثمه ، ويُستطلع من مكامنه .

وسائر التأويلات فى الآية تُخرج الكلام عن حيِّز الاستعارة . مثل تأولهم ذلك على معنى خاصة[٢] من عِلْم . أى بقية من علم ، وما يجرى هذا المجرى .

وأنشد أبو عبيدة للراعى[٣] فى صفة ناقة :

وذات أثارة أكلت عليها نباتا فى أكمته قفـــارا

---

(١) النثائل : جمع نثيلة ونثالة وهى التراب المستخرج من الحفر .

(٢) الخاصة : البقية من الشىء . انظر «القرطبى» ج ١٦ ص ١٨٢ .

(٣) هو الراعى النميرى حصين بن معاوية . ولقب بهذا اللقب لأنه كان يصف راعى الأبل فى شعره وكان معاصرا للشاعر جرير فى العصر الأموى ودخل معه فى مهاجاة لأنه اتهمه بالميل الى الفرزدق . والبيت فى «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس ج ١ ص ٥٦ بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وقد ورد فى المقاييس هكذا :

وذات أثارة أكلت عليها نباتا فى أكمته تؤاما

وقد رواه القرطبى فى «الجامع» ج ١٦ ص ١٨٢ كما . رواه الشريف هنا .

أى ذات بقية من شحم رعت عليها هذا النبات المذكور . وقوله قفارا أى خاليا من الناس ، ليس به راعية غيرها ، فهو أهنأ لها ، وأرْفق بها

وقال صاحب « الغريب[١] المصنف » : يقال سَمِنَتْ الناقةُ على أثارةٍ ، أى على سِمَنٍ متقدم قد كان قبل ذلك .

(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، اشتغل بالحديث والفقه واللغة والأدب وهو صاحب كتاب «غريب الحديث » وكتاب « غريب المصنف » المشار إليه هنا بالتعريف . وقد اشتغل فى تأليفه أربعين عاما · وتوفى سنة ٢٢٣ هـ . وأخباره فى «وفيات الأعيان » و « الفهرست » و « طبقات الأدباء » و « تاريخ آداب اللغة العربية» وهناك « الغريب المصنف » أيضا لأبى عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى ، كما فى « كشف الظنون » والمقصود هنا كتاب أبى عبيد ، كما فى « المجازات النبوية » للمؤلف ص ٢٢٠ .

ومن السورة

التي يذكر فيها «محمد» صلى الله عليه وعلى آله وسلم

قوله سبحانه : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[٤] وهذه استعارة . والمراد بالأوزار ههنا الأثقالُ ، وهى آلةُ الحرب وعتادها ، من الدروع ، والمغافِر ، والرماح ، والمناصل وما يجرى هذا المجرى ، لأن جميع ذلك ثقلٌ على حامله، وشاقٌ[1] على مستعمله .

وعلى هذا قول الأعشى .

وأعددتُ للحرْب أوْزَارها رماحاً طِوَالاً وخيلاً ذُكُورا[2]

ومِنْ نَسْج دَاودَ موضونةً تساقُ مع الحى عِيرا فعيرا

والمراد بذلك فى الظاهر: الحرب ، وفى المعنى: أهل الحرب ، لأنهم الذين يصحُّ وصفُهم بحمل الأثقال ووضعها ، ولُبْسِ الأسلحة ونزعها .

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾[٢١] . وهـذه استعارة ، لأن العزم لا يوصف بحقيقته إلا الإنسان المميز الذى يوطِّنُ النفسَ على فِعل الأمر قبل وقته ، عَقْداً بالمشيئة على فعله . فيصح أن يسمَّى عازما عليه ،

---

(١) فى الأصل « وساق » بالسين المهملة . وهو تحريف .

(٢) فى « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى ج ١٦ ص ٢٢٩ ، روى البيتان هكذا :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

ومن نسج داود يحدى بها على أثر الحى عيرا فعيرا

وفى الديوان ص ٩٩ ، روى البيتان كما فى رواية الشريف الرضى هنا .

وإنما قال تعالى : ﴿ عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ مجازا . أى قويت العزائم على فعله ، فصار كالعازم فى نفسه .

وقال بعضهم : معنى عَزَمَ الأمر ، أى جَدَّ الأمر ، ومنه قول النابغة الذبيانى[1] .

حياك ود فأنا لا يحلُّ لنا   لَهْو النساء لأن الدين قد عزما

أى استحكم وَجَدَّ ، وقوِى واشتدّ .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢٤] وهذه استعارة . والمراد : أم قلوبهم كالأبواب المقفلة ، لا تنفتح لوَعْظِ واعظٍ ، ولا يلجُ فيها عذل عاذل . وفى لغة العرب أن يقول القائل إذا وصف نفسه بضيق الصدر ، وتشعُّب الفكر : قلبى مُقْفل ، وصدرى ضيِّقٌ . وإذا وصفَ غيره بضد هذه الصفات : قال انفتح قلبه ، وانفسح صدرُهُ .

وقد يجوز أيضا أن يكون المعنى أن[2] . . . .

. . . .

. . . .

---

(١) انظر القصيدة فى شعر النابغة بديوان « فحول الشعراء » المطبوع فى بيروت سنة ١٣٥٢ هـ ص ٩٣ . ومطلع القصيدة :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما   واحتلت الشرع فالأجزاع من أضما

(٢) هنا قدر ورقتين ضائعتين من الأصل ، من الآية ٢٤ من سورة محمد إلى الآية ١٥ من سورة ق .

ومن السورة التي يذكر فيها «قٓ»

[﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾][١٦] . . . . وأراد سبحانه أنه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره ، ونجيّ أسراره . فكأنه باستبطانه ذلك منه أقرب إليه من وريده . لأن العالم بخفايا قلبه ، أقرب إليه من عروقه وعَصَبه .

وليس القرب ههنا من جهة المسافة والمساحة ، ولكن من جهة العلم والإحاطة .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[١٩] وهذه استعارة . والمراد بسكرة الموت ههنا : الكَرْبُ الذي يتغشى المحتضر عند الموت ، فيفقد له تمييزه ، ويفارق معه معقولهُ . فشبَّه تعالى ذلك بالسَّكرة من الشراب ، إلا أن تلك السَّكرة مُنعمة ، وهذه السَّكرة مؤلمة .

وقوله تعالى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون جاءت بالحق من أمر الآخرة ، حتى عَرَفه الإنسان اضطرارا ، ورآه جهارا . والآخر أن يكون المراد ﴿ بالحق ﴾ ههنا أي بالموت الذي هو الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [٢٢] . وهذه استعارة والمراد بها مايراه الإنسان عند زوال التكليف عنه مِنْ أعلام السّاعة ، وأشراط القيامة ، فتزول عنه اعتراضات الشكوك ، ومشتبهات الأمور ، يصدّق بما كذّب ، ويُقرّ بما جَحَد ، ويكون كأنه قد نَفَذَ[١] بَصَرُه بعد وقوف ،

---

(١) فى الأصل « نفد » بالدال المهملة وهو تحريف فاحش من الناسخ لأنه ليس القصد نفاد البصر وضياعه ، بل القصد نفوذه وحدته .

وأَحَدّ بعد كلال و نُبُوٍّ . فهذا معنى قوله سبحانه : ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [٣٠] . وهذه استعارة . لأن الخطاب للنار والجواب منها فى الحقيقة لا يصحان . و إنما المراد ــ والله أعلم ــ أنها فيا ظهر من امتلائها ، وَبَانَ من اغتصاصها بأهلها، بمنزلة الناطقة بأنه لا مَزِيدَ فيها ، ولا سَعَة عندها . وذلك كقول الشاعر :(١)

امتلأَ الحوض وقال قَطْنِي مهلا رُوَيْداً قد مَلأْتَ بطْنِي

ولم يكن هناك قول من الحوض على الحقيقة ، ولـكن المعنى أن ماظهر من امتلائه فى تلك الحال جارٍ مَجْرى القول منه ، فأقام تعالى الأمر المدرَكَ بالعين ، مُقَام القول المسموع بالأذن .

وقيل : المعنى أنا نقول لخزَنَةِ جهنمَ هذا القول ، ويكونُ الجوابُ منهم على حدِّ الخطاب . ويكون ذلك من قبيل : ﴿ وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾(٢) فى إسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . وذلك كقولهم : ياخيل الله اركبى ، والمراد يارجالَ الله اركبى .

وعلى القول الأول يكون مخرج هـذا القول لجهنم على طريق التقرير لاستخراج الجواب بظاهر الحال ، لا على طريق الاستفهام والاستعلام . إذ كان الله سبحانه قد عَلِمَ امتلاءها قبل أن يَظهر ذلك فيها . و إنما قال سبحانه هـذا الـكلام ليعلم الخلائقُ صحةَ وَعْده ، إذ يقول تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٣) . والوجه

---

(١) لم أهتد إلى اسم قائل هـذا الرجز . وفى « الجامع لأحكام القرآن » ج ١٧ ص ١٨ لم ينسبه لقائله . بل قال : إنه لشاعر .

(٢) سورة يوسف : الآية رقم ٨٢ .

(٣) سورة هود . الآية رقم ١١٩ .

[فى قوله (١)] تعالى فى الحكاية عن جهنم : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ بمعنى لا مِن مَزِيْدٍ فىَّ . وليس ذلك على طريق طلب الزيادة ، وهذا معروف فى الكلام . ومثله قوله عليه السلام : (وَهَلْ تَرَكَ (٢) عَقِيل لنا مِنْ دَارٍ ؟) أى ماترك لنا دارا .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٣٧] وهذه استعارة. وقد مضى نظيرٌ لها فيما تقدم . والمعنى أنه بَالَغَ فى الإصغاء إلى الذكرى ، وأشْهَدَها قلبَه ، فكان كالمُلْقِى إليها سَمْعَه ، دُنوًّا من سماعِها ، ومَيْلا إلى قائلها.

والمراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[٣٧] أى عَقْلٌ ولُبٌّ .[و](٣) يعبّر عنهما بالقلب ، لأنهما يكونان بالقلب . أو يكون المعنى : لمن كان به قلب ينتفع به . لأن من القلوب مالا يُنْتَفَعُ بِهِ ، إذا كان مائلا إلى الغىّ ، ومنصرفاً عن الرُّشد .

---

(١) مطموسة فى الأصل .

(٢) قاله عليه السلام حين فتح مكة . فقد مضى الزبير بن العوام برايته حتى ركزها عند قبة رسول الله ، وكان معه أم سلمة وميمونة رضى الله عنهما ، وقيل : يارسول الله ! ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ وكان عقيل بن أبى طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل إخوته . والرجال والنساء بمكة . فقيل : يارسول الله ! فانزل فى بعض بيوت مكة فى غير منازلك، فقال ! : لا أدخل البيوت ! فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا ، وكان يأتى المسجد من الحجون لكل صلاة .انظر الخبر فى « إمتاع الأسماع » للمقريزى المؤرخ ، ج ١ ص ٣٨١ .

(٣) ليست بالأصل ، والسياق يقتضيها .

ومن السورة التى يذكر فيها « الذاريات »

قوله سبحانه فى صفة حجارة القذف : ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [٣٤] وهذه استعارة . والمسوَّمة : المُعْلَمَةُ . وأصْلُ ذلك مستعمل فى تسويم الخيل للحرب . أى تعليمها بعلامات تتميز بها من خيل العدو . شبهت هذه الحجارة بها لأنها مُعلَّمة بعلامات تدلُّ على مكروه المصابين ، وضَرَرَ المعاقَبين ، كما كانت الخيل المسوَّمة تدل على ذلك فى لقاء الأعداء . وإرسال هذه للعراك كإرسال تلك للهلاك .

وقيل : إن التسويم فى تلك الحجارة هو أن تجعل نكتة سوداء فى الحجرَ الأبيض ، أو نكتة بيضاء فى الحجرَ الأسود .

وقيل : كان عليها أمثالُ الطوابيع والخواتيم . وقد تكلمنا على نظير هذه الاستعارة فى « هود » .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى خلقها سبحانه كذلك من غير أن يفعلها فاعل ، أو يجعلها جاعِلٌ . فلأجْل هذه الحال وَجَبَ أن يجعل لها تعالى هذا الاختصاص بقوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أنها مسوَّمة فى سلطان الله تعالى ومَلَكُوته . وفى موضع العِقَابِ المُعَدِّ للمذنبين من خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [٣٩] وهذه استعارة .

وقد قيل : إن المُراد بها أنه أعرض بجنوده الذين هم كالركن له ، والحجارة

دونه . وقد يسمّى أعوانُ المرء وأنصارُه أركانَه واعتماده (١) ، إذ كان بهم يَصُولُ ، وإليهم يؤول .

وقيل أيضا معنى ذلك فتولّى (٢) وسلطانه ، فإن ذلك كالركن له والمانع منه . ونظيره قوله سبحانه حاكيا عَنْ لوطٍ عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣) أى إلى عزّ دافع ، وسُلطان قامع .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [٤١] وهذه استعارة . ومعنى العقيم ههنا التى لا تحمل القِطار ، ولا تُلقح الأشجار ، ولا تعود بخير ، ولا تنكشف عن عواقب نفع . فهى كالمرأة التى لا يُرجى وَلدُها ، ولا يَنمى عَدَدُها .

---

(١) هكذا بالأصل . ولعلها « وأعماده » .

(٢) بياض بالأصل.

(٣) سورة هود ، الآية رقم ٨٠ .

ومن السورة التى يذكر فيها « الطُّور »

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [٣٢] وهذه استعارة . أى كانوا حكماء عقلاء كما يدّعون ، فكيف تحملهم أحلامهم وعقولهم على أن يرموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسِّحْرِ والجنون ، وقد علموا بُعْدَه عَنْهما ، ومباينته لهما ؟

وهذا القول منهم سفه[1] وكذب ، وهاتان الصفتان مُنافيتان لأوصاف الحلماء ، ومذاهب الحكماء .

ومخرجُ قوله سبحانه : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا ﴾ مخرج التبكيت لهم ، والإزراء عليهم . ونظير هذا الكلام قوله سبحانه حاكيا عن قوم شُعيبٍ عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[2] أى دينك وماجئتَ به من شريعتك التى فيها الصلوات وغيرُها من العبادَاتِ ، تَحْمِلُكَ على أَمْرِنَا بِتَرْكِ ما يَعْبُدُ آباؤنا[3] . وقد مضى الكلام على ذلك فى موضعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ النُّجُومِ ﴾[٤٩] وقرِئَ : ﴿[4] وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ بكسر الهمزة . وهذه استعارة على القراءتين جميعاً .

---

(١) فى الأصل « صفه » بالصاد . وهو تحريف بالغ .

(٢) سورة هود . الآية رقم ٨٧ .

(٣) كرر الناسخ هذه العبارة من قوله : أى دينك إلى قوله ما يعبد آباؤنا .

(٤) قرأ السبعة : وإدبار بكسر الهمزة على أنها مصدر للفعل أدبر . وقرأ سالم بن أبى الجعد ويعقوب وسلام وأيوب : وأدبار بالفتح . انظر القرطبى جـ ١٧ ص ٨٠ .

فمن قرأ بفتح الهمزة كان معناه : وأعْقَابَ النجوم . أى أواخرها إذا انصرفت . كما يقال : جاء فلانٌ فى أعْقَاب القوم . أى فى أواخرهم . وتلك صفة تخصُّ الحيوان المتصرف الذى يوصَفُ بالمجىء والذّهاب ،والإقبال والإدْبارِ . ولكنها استُعملت فى النجوم على طريق الاتساع . فأمّا قراءةُ مَن قَرَأ : ﴿ وإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ بالكسر فمعناه قريب من المعنى الأول . فكأنه سبحانه وَصَفَها بالإدبار بعد الإقبال . والمراد بذلك الأُفُولُ بعد الطلوع ، والهبوطُ بَعْدَ الصعود .

ومن السورة التى يذكر فيها « النَّجم »

قوله سبحانه : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[١١] وهذه استعارة . والمراد — والله أعلم — أن ما اعتقده القلب من صحة ذلك المنظر الذى نظره ، والأمرِ الذى باشره لم يكن عن تخيُّلٍ وتوهُّمٍ ، بل عن يقينٍ وتأمُّلٍ . فلم يكن بمنزلة الـكاذب من طريق تعمُّد الـكذب ، ولا من طريق الشكوك والشُّبَه .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[١٧] وهذه استعارة . وهى قريبة المعنى من الاستعارة الأولى . والمراد بذلك — والله أعلم — أن البَصَر لم يَمِلْ عن جهة المبصَرِ [١] إلى غيره مَيْلا يدخُل عليه به الاشتباه ، حتى يشكَّ فيما رآه . ولا طغى ، أى لم يجاوز المُبصر ويرتفع عنه ، فيكون مخطئا لإدراكه ، ومتجاوزا لمحاذاته .

فكأن تلخيص المعنى أن البصر لم يقصر عن المرْئىِّ فيقع دونه ، ولم يزد [٢] عليه فيقع وراءه ، بل وافَق موضعه ، ولم يجاوز موقعه . وأصل الطغيان طلبُ العلو والارتفاع ، من طريق الظلم والعدوان ، وهو فى صفة البصر خارجٌ [٣] على المجاز والاتساع .

(١) فى الأصل « البصر » وهو تحريف من الناسخ .
(٢) فى الأصل « ولم يرد » بالراء المهملة ، وهو تحريف .
(٣) أى سائر على طريق المجاز والاتساع فى التعبير .

ومن السورة التي يذكر فيها «انشقاق القمر»

قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [١١ ، ١٢] وهذه استعارة . والمراد - والله أعلم - بتفتيح أبواب السماء تسهيلُ سُبُلِ الأمطار حتى لايحبسها حابس ، ولا يلفتها لافت . ومفهومُ ذلك إزالةُ العوائق عن مجارى العيون من السماء ، حتى تصير بمنزلة حبيس فُتح عنه بابٌ ، أو مَعقولٍ أُطلِقَ عنه عقال . وقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى اختلط ماء الأمطار المنهمرة ، بماء العيون المتفجرة ، فالتقى ماءاهما على ماقَدَره الله سبحانه ، من غير زيادةٍ ولا نُقصان . وهذا من أفصح الكلام ، وأوقع العبارات عن هذه الحال .

وقوله سبحانه : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [٢٥] ولفظُ إلقاء الذِّكْرِ ههنا مستعار : والمراد به أن القرآن لعظم شأنه ، وصعوبة أدائه ، كالعبء الثقيل الذى يشقُّ على من حُمِّلَهُ ، وأُلْقِيَ عليه ثقله .

وكذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (١) . وكذلك قولُ القائل : (ألقيتُ على فلان سؤالا ، وألقيتُ عليه حسابا) أى سألتُه عما يستكدُّ له هاجسَه ، ويستعمل به خاطره .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [٤٦] وهذه استعارة . لأن المرارة لايوصف بها إلا المذوقات والمتطعمات ، ولكنَّ الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقِّ العقاب ، حَسُنَ وصفها بما يوصفُ به الشيء المكروهُ المذاق .

ومن عادة مَن يُلاقى مايكرهُه ، ويَرى مالا يحبُّه ، أن يُحْدث ذلك تهيُّجا فى وجهه ، يدل

---

(١) سورة المزمل . الآية رقم ٥ .

على نفور جأشه ، وشدة استيحاشه ، فكذلك هؤلاء إذا شاهَدوا أماراتِ العذاب ، ونوازلَ العقاب ، ظَهرَ فى وجوههم مايُستدل به على قَطاعة الحال عندهم ، و بلوغ مكروهها من قلوبهم ، فكانوا كلائك [1] المُضغةِ المَقِرة ، [2] وذائقِ الكأس الصَّبِرَة ، فى فَرْط التقطيب ، وشدة التهيج . وشاهدُ ذلك قولُه سبحانه : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [3] .

---

(١) اللائك : اسم فاعل من لاك يلوك أى مضغ .

(٢) المقرة على وزن فرحة : المرة الطعم يقال: مقر الشىء مقرا إذا صار مرا

(٣) سورة المؤمنون . الآية رقم ١٠٤ .

ومن السورة التى يذكر فيها «الرحمن» سبحانه

قولُه تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [٦] وهذه استعارة : والنجم ههنا مانَجم من النبات . أى طَلَعَ وظَهَرَ . والمراد بسجود النبات والشجر ـ واللهُ أعلمُ ـ مايظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم ، والمقدِّر العليم ، بالتنقل من حال الإطْلاع ، إلى حال الإيناع ، ومن حال الإيراق إلى حال الإثمار ، غير ممتنعة على المصرِّف ، ولا آبية على المدبِّر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [٧] ولَفْظُ الميزان ههنا مستعار ، على أحد التأويلين . وهو أن يكون معناه العدل الذى تستقيم [١] به الأمور ، ويعتدل عليه الجمهور . وشاهِدُ ذلكَ قوله تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [٢] أى بالعدل فى الأمور .

ورُوِى عن مجاهد [٣] أنه قال : القسطاس : العدل بالرومية . ويقال : قُسطاس ، وقِسطاس . بالضم والكسر ، كقُرطاس وقِرطاس .

وقولُه تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ [١٩]،[٢٠] وهذه استعارة . والمراد بها أنه سبحانه أرسل البحرين طاميين ، وأمَارَهُما مائعين ،

---

(١) فى الأصل « يستقيم » وهو تحريف .

(٢) سورة الإسراء . الآية رقم ٣٥ .

(٣) هو من المفسرين الأولين للقرآن الكريم ، والمشهور أنه أول من دون فى التفسير ، وتفسيره غير موجود ، ولعل الموجود هو تفسير ابن عباس رواه مجاهد . وذكر ابن عطية فى « مقدمته » أن صدر المفسرين والمؤيد فيهم هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويتلوه عبدالله بن عباس ، ويتلوه مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ويذكر ابن عطية أن مجاهدا قرأ على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية . وذكر جورجى زيدان أن مجاهدا توفى سنة ١٠٤ هـ . انظر « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ١ س ٢٠٥ ، و « مقدمتان فى علوم القرآن » بتحقيق المستشرق أرثر جفرى ، ونشر مكتبة الخانجى .

وهما يلتقيان بالمقاربة ، لا بالممازجة ، فبينهما حاجز يمنعهما من الانحراق(١) ويصدّهما عن الاختلاط .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أى لا يغلب أحدهما على الآخر ، فيقلبه إلى صفته ، إمّا الملحُ على العذب ، أو العذب على الملح . وكنى تعالى بلفظ البغى عن غلبة أحدهما على صاحبه . لأن الباغى فى الشاهد اسم لمن تغلّب من طريق الظلم بالقوة والبسطة ، والتطاول والسطوة .

وقد مضى الكلام على مثل هذه الاستعارة فيما تقدم . إلاّ أن فيها ههنا زيادة أوْجَبَتْ إعادةَ ذِكْرِها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٢٢] وهذه استعارة . وقد تقدم الكلام على نظيرها . والمراد : وتبقى ذاتُ ربّك وحقيقتُه .

ولو كان الكلام محمولا على ظاهره لكان فاسدا مستحيلا على قولنا وقول المخالفين . لأنه لا أحدَ يقول من المشبّهة والمجسّمة ، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضا مؤلفة(٢) ، وأعضاء مصرّفة إنّ وجه الله سبحانه يَبْقى ، وسائره يَبْطُل ويَفْنَى . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

ومن الدليل على أن المراد بوجه الله ههنا ذاتُ الله قولُهُ سبحانه : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ألا ترى أنه سبحانه لما قال فى خاتمة هذه السورة : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ قال: ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٧٨] ولم يقل (ذو) لأن اسم الله غيرُ الله ، ووجهُ

(١) هكذا بالأصل ولعلها الانجراف أو الإغراق .

(٢) فى الأصل « ومؤلفة » بواو قبل الصفة . وهى زائدة من الناسخ .

الله هو الله ، وهذا واضح البيان ، وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [٣١] وهذه استعارة . وقد كان والدى الطاهر الأوحد ، ذو المناقب ، أبو أحمد الحسين[1] ، بن موسى الموسوى ، رضى الله عنه وأرضاه ، سألنى عن هذه الآية فى عُرض كلام جرّ ذكرها ، فأجبتُه فى الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها . وهو أن يكون المراد بذلك: سنعمد لعقابكم ونأخذ فى جزائكم على مساوىء أعمالكم ، وأنشدتهُ بيت جرير كاشفا عن حقيقة هذا المعنى . وهو قوله :

ألآنَ وقد فرغت إلى نمير فهذا حين صرت لها عذابا

فقال : فرغت إلى نُمير ، كما يقول : عمدت إليها . فأعلمنا أن معنى فرغت ههنا معنى عمدت وقصدت . ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال : فرغت لها ، ولم يقل فرغت إليها .

وقال بعضهم: إنما قال سبحانه : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ ولم يقل : سنعمِد . لأنه أراد أى سنفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تمجيع[2] فيه ، ولا اشتغال بغيره عنه ، ولأنه لما كان الذى يعمد إلى الشىء ربما قصّر فيه لشغله معه بغيره ، وكان الفارغ له — فى الغالب — هو المتوفَّر عليه دون غيره ، دُلِلْنا بذلك على المبالغة فى الوعيد من الجهة التى هى أعرف عندنا ، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ ، وأدلّ الكلام على معنى الإبعاد .

وقال بعضهم : أصل الاستعارة موضوع على مستعار منه ومستعار له ، فالمستعار منه

---

(١) كان نقيب العلويين فى بغداد . وهو والد الشريفين : الرضى ، والمرتضى . وقد تعرض للقبض عليه من قبل عضد الدولة بن بويه سنة ٣٦٩ ﻫ ثم أطلقه ابنه شرف الدولة بن بويه ، وعزل عن النقابة سنة ٣٨٤ ﻫ ثم أعيد إليها سنة ٣٩٤ ﻫ وأضيف إليه الحج والمظالم ، فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ضريرا سنة ٤٠٠ ﻫ فرثاه ولداه كما رثاه أبو العلاء المعرى ، ومهيار الديلمى ، وجماعة من الشعراء .

(٢) التمجيع : الممازحة والماجنة فى العمل وعدم أخذه مأخذ الجد .

أصل ، وهو أقوى . والمستعارُ له فرعٌ ، وهو أضعف . وهذا مطَّرد فى سائر الاستعارات ، فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ من هذا القَبيل .

فالمستعار منه ههنا مايجوز فيه الشغل ، وهو أفعال العباد ، والمستعار له مالا يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال الله تعالى . والمعنى الجامعُ لهما الوعيدُ ، إلا أن الوعيد بقول[1] القائل : سأتفرغ لعقُوبتك ، أقوى من الوعيد بقوله : سأعاقبك . مِن قِبلِ أنه كأنما قال : سأتجرد لمعاقبتك ، كأنه يريد استفراغ قوَّته فى العقوبة له .

ثم جاء القرآن على مَطْرَح كلام العرب ، لأن معناه أسبق إلى النفس ، وأظْهَرُ للعقل ، والمراد به تغليظ الوعيد ، والمبالغة فى التحذير . ومثل ذلك قولهُ تعالى فى المدَّثِّر ، عليه الصلاة والسلام ، : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [2] فالمستعار منه ههنا مايجوز فيه المنع ، وهو أفعال العباد ، والمستعارُ له مالا يجوز فيه المنع ، وهو أفعال القديم سبحانه كما قلنا أولا . والمعنى الجامع لهما التخويف والتهديد .

والتهديدُ بقول القائل : ذَرْنى وفلانًا ـ إذا أراد المبالغة فى وعيده ـ أقوَى مِنْ قوله : خوِّفْ فلانا من عقوبتى ، وحَذِّرْهُ من سطوتى . وهذا بَيِّنٌ بحمد الله تعالى .

وقد يجوز أن يكون لذلك وجه آخر ، وهو أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أى سنُفَرِّغُ لكم ملائكتنا الموكَّلين بالعذاب ، والمعدين لعقاب أهل النار . ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [3] أى جاء ملائكةُ ربِّك . ويكون تقدير الكلام : وجاء ملائكة ربِّك وهم صفًّا صفًّا . كما تقول : أقْبَل القوم وهمْ

---

(١) فى الأصل « يقول » على أنها فعل مضارع . وهو تحريف من الناسخ .

(٢) سورة المدثر . الآية رقم ١١ .

(٣) سورة الفجر . الآية رقم ٢٢ .

زَحْفاً زَحْفاً. والملك ههنا لفظ الجنس ، وإنما أعيد ذكر الملك ليدل على المحذوف الذى هو اسم الملائكة ، لأنه ما كان يسُوغُ أن يقول : وجاء ربك وهُمْ صفًّا صفًّا ، ويريد الملائكة على التقدير الذى قدرناه ، لأن الكلام كان يكون مُلْبسًا ، والنظام مختلاً مضطرباً .

وقد يجوز أيضا أن يكون المعنى : وجاء أمر ربك ، والمَلَكُ صفًّا صفًّا . كلا القولين جائز .

وقرأنا[1] حمزة والكسائى : سيفرُغ لكم ، بالياء وفتحها ، وقرأنا[2] : سنفرُغ لكم بالنون كقراءة السبعة .

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولعلها « وقرأ حمزة والكسائى » كما فى القرطبى ج ١٧ ص ١٦٩ .

(٢) ليس قوله « وقرأنا » واضحا لأن هذه قراءة ابن شهاب والأعرج ، كما فى « الجامع لأحكام القرآن » .

ومن السورة التي يذكر فيها « الواقعة »

قوله[1] تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [٢] وهذه استعارة . والمراد أنها إذا وقعت لم ترجع عن وقوعها ، ولم تَعْدل عن طريقها ، كما يقولون : قد صَدَقَ فلانٌ الحَمْلَةَ[2] ولم يَكْذِبْ . أى ولم يَرجع على عَقِبه ، ويقف عن وجهة عزمه جُبْناً وضعفا ، أو وجلاً وخوفا .

وكاذبة ههنا مصْدَرٌ ، كقولك : عافاه الله عافية ، فيكون كَذَبَ كذباً وكاذِبَةً . [و][3] تلخيص المعنى : ليس لوقْعتها كذب ولا خُلْفٌ . وقيل أيضا : ليس[4] لها قضية كاذبة ، لإخبار الله سبحانه بها ، وقيام الدلائل عليها ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامَهُ ..

وذلك فى كلامهم أظهر مِنْ أن يُتعاطَى بيانُهُ .

وقيل أيضا : ليس لها نفْسٌ كاذبة فى الخبر[5] عنها ، والإعلامِ بوقوعها . والمعنيان واحد .

---

(١) فى الأصل « وقوله » بواو قبل الكلمة وهى زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل « الجملة » بالجيم المعجمة، وهو تحريف من الناسخ .

(٣) ليست هذه الواو بالأصل وهى ضرورية .

(٤) مطموسة بالأصل وهى مفهومة من السياق .

(٥) فى الأصل « الخير » بالياء المثناة التحتية . وهى تحريف .

ومن السورة التى يذكر فيها « الحديد »

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ، وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٣] .

وهذه استعارة عليه سبحانه ، كإطلاقنا لذلك على غيره ، لأنه سبحانه لا يأتى بالكلام المستعار والمجاز عليه ـ كما قلنا فى أول هذا الكتاب ـ ولكن لأن ذلك اللفظ أبْعَدُ فى البلاغة منزعا ، وأبْهَرُ فى الفصاحة مطلعا .

والواحد منّا ـ فى الأكثر ـ إنما يستعير أغلاق الكلام ، ويَعْدِل عن الحقائق إلى المجازات ، لأن طُرُق القول ربما ضاق بعضها عليه فخالَفَ إلى (١) . . . . . بقية الكلام ، وربما استَعْصَى بعضها على فكرِهِ فعَدَل إلى المطاوعة .

معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ أى الذى لم يَزَلْ قبلَ الأشياء كلها ، لاعن انتهاء مدة ، ﴿ وَٱلْآخِرُ ﴾ أى الذى لايزال بَعْدَ الأشياء كلِّها ، لاإلى انتهاء غاية .

﴿ وَٱلظَّاهِرُ ﴾ المتجلى للعقول بأدلّته ، ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ أى الذى لا تدركه (٢) أبصار بَرِيَّته .

وقال بعضهم : قد يجوز أن يكون معنى الظاهر ههنا أى العالم بالأشياء كلها . من قولهم : ظَهَرْتُ عَلَى أمْرِ فلان أىْ عَلِمْتُهُ . ويكون الظاهر مخصوصا بما كان فى الوجود والجهرْ ، ويكون الباطنُ مخصوصا بما كان فى العَدَم والسر (٣) .

---

(١) هنا لفظة غير واضحة .

(٢) فى الأصل (لايدركه) .

(٣) فى الأصل « والستر » وهو تحريف .

وتلخيص معنى الظاهر والباطن أنه العالم بما ظَهَرَ وَمَا بَطَن ، وما اسْتَتَرَ وما عَلَن .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٠] وهـذه استعارة على ماتقدم فى كلامنا من نظير ذلك . والمعنى أن الخلائق إذا فَنُوا وانقرضوا خلَّوا ما كانوا يسكُنُونه ، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه (١) . . . . . إلا الله سبحانه ، وصار تعالى كأنه قد ورث عنهم ماتركوه (١) . . . . خلفوه . لأنه الباقى بعد فنائهم ، والدائم بعد انقضائهم .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [١٢] وهذه استعارة على أحد التأويلين (٢) . . . .

وقوله سبحانه : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [١٥] وهذه استعارة . ومعنى مولاكم : أى أَمْلَكُ بكم ، وأَوْلَى بأخذكم . وهذا بمعنى المولى (٣) من طريق الرق ، لاالمولى من جهة العتق . فكأنَّ النار ـ نعوذ بالله منها ـ تملكهم رِقا ، ولا تحررهم عتقا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [٢٩] وهذه استعارة .

ومعنى بيد الله ، أى فى مِلْكِ الله وقدرته ، يبسُطُهُ إذا شاء على حَسَب المصالح والمفاسد ، والمَغَاوِى والمَرَاشِد . وقد مضى الكلام على نظائرها .

---

(١) هنا ألفاظ ممحوة .
(٢) هنا بضعة أسطر مبتورة الأطراف غير واضحة المعالم .
(٣) فى الأصل « بمعنى أولى » وهو تحريف واضح .

ومن السورة التى يذكر فيها « المجادلة »

قوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ [٧] وظاهرُ هذا الكلام محمول على المجاز والاتساع ، لأن المراد به إحاطته تعالى بعِلْم نجوىَ المتناجين ، وَمعَاريض المتخافتين ، فكأنه سبحانه يعلم جميع ذلك، سامع للحوار ، وشاهد للسِّرَار .

ولو حُمل هذا الكلام على ظاهره لتناقضَ . ألا ترَى أنه تعالى لوكان رابعا لثلاثة فى مكان على معنى قول المخالفين، استحال أن يكون سادسا لخمسة فى غير ذلك المكان إلا بعد أن يفارق المكان الأول ، ويصير إلى المكان الثانى ، فينتقل كما تنتقل الأجسام ، ويجوز عليه الزوال والمقام . وهذا واضح بحمدالله وتوفيقه .

وقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [١٢] وهذه استعارة . وقد مضت لها نظائر كثيرة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ ﴾ أى أمام نجواكم، وذلك كقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (١) أى مطرقة أمام الغيث الوارد ، ومبشِّرة بالخير الوافد .

وقوله سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [١٦] وهذه استعارة . والكلام وارد فى شأن المنافقين .

والمراد أنهم جعلوا إظهار الإيمان الذين (٢) يبطنون ضدَّه جُنَّةً يعتصمون بها و يستلئمون (٣)

---

(١) سورة الأعراف . الآية رقم ٥٦ .

(٢) هكذا بالأصل . والصواب : الذى

(٣) بالأصل : يستلمون ، وهو تحريف ويستلئم : أى يلبس الدرع

فيها، تعوُّذًا بظاهر الإسلام الذى يسعُ مَن دخل فيه، ويعيذُ[1] من تعوَّذ به.

وقوله سبحانه: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٢١] وهذه استعارة. والمراد بالكتابة ههنا الحُكمُ والقضاء. وإنما كَنَى تعالى عن ذلك بالكتابة، مبالغةً فى وصف ذلك الحكم بالثبات، وأنّ بقاءه كبقاء المكتوبات.

وقوله سبحانه: ﴿ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [٢٢] وفى هذا الكلام استعارتان، إحداهما قوله تعالى: ﴿ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ ﴾ ومعناه أنه ثبَّته فى قلوبهم، وقرَّره فى ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، والرُّقوم الثابتة، على ماأشرنا إليه من الكلام على الاستعارة المتقدمة. وذلك كقول القائل: هو أبقَى من النقش فى الحَجَرِ، ومن النقش فى الزُّبُر.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ ولذلك وجهان: إمّا أن يكون المراد بالروح ههنا القرآن، لأنه حياة فى الأديان، كما أنّ الروح حياة فى أمر الأبدان. وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[2] والمراد القرآن.

والوجه الآخر أنْ يكون الروح ههنا معنى النَّصر والغَلَبة والإظهارِ للدولة. وقد يُعبَّر عن ذلك بالريح. والرَّوْحُ والريحُ يرجعان إلى معنى واحد. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3] أى دولتكم واستظهارُكم.

---

(١) فى الأصل «ويعيده» بالدال المهملة، وهو تحريف من الناسخ.

(٢) سورة الشورى الآية رقم ٥٢.

(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٤٦.

ومن السورة التي يذكر فيها « الحشر »

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [٩] الآية . وهذه استعارة لأن تبوُّؤ الدار هو استيطانها والتمكن فيها ، ولا يصحُّ حمْل ذلك على حقيقته فى الإيمان . فلا بُدَّ إذن من حمله على المجاز والاتساع .

فيكون المعنى أنهم استقروا فى الإيمان كاستقرارهم فى الأوطان . وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة . وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقا . ألا ترَى كم بين قولنا : استقَرُّوا فى الإيمان ، و بين قولنا : تبَوَّءوا الإيمان .

وأنا أقول أبدا إن الألفاظ خَدَمٌ للمعانى ، لأنها تعمل فى تحسين معارضها ، وتنميق مطالعها .

وقوله سبحانه : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [٢١] وهذا القول على سبيل المجاز . والمعنى أن الجبلَ لو كان مما يَعى القرآنَ ويَعْرف البيان ، لخشع فى[١] سماعه ، ولتصدّع من عظم شأنه ، على غِلَظِ أجرامه ، وخشونة أكنافه . فالإنسان أحقُّ بذلك منه ، إذ كان واعيا لقوارعه ، وعالما بصوادعه .

---

(١) كذا بالأصل . ولعلها « من » .

ومن السورة التي يذكر فيها «الامتحان [1]»

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [١] وهذه استعارة على أحد التأويلين ، وهو أن يكون المعنى : تلقون إليهم بالمودة ليتمسّكوا [2] بها منكم . كما يقول القائل : أَلْقَيْتُ إلى فلانٍ بالحبل ليتعلق به ، وسواء قال : ألقيت بالحبل ، أو ألقيت الحبل . وكذلك لو قال : ألقيت إلى فلان بالمودة ، أو أَلْقَيْتُ إليه المودة . وكذلك قولهم : رَمَيْتُ إليه بما فى نفسى ، وما فى نفسى ، بمعنى واحد .

وقال الكسائى : تقولُ العرب : أَلْقِهِ من يَدِك وأَلْقِ به من يَدِكَ ، واطْرحه من يدك ، واطْرَحْ به من يدك ، كلام عربى صحيح . وقد قيل : إن فى الكلام مفعولا محذوفا ، فكأنه تعالى قال : تُلقون إليهم أسرار النبي صلى الله عليه وسلم بالمودة التى بينكم . وهذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين ، كانوا يخالُّون قوما من المنافقين ، فيتسقَّطونهم أسرار النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، استزلالا لهم ، واستغمارا لعقولهم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾[٢] وهذه استعارة . لأن بسْط الألسن على الحقيقة لايتأتّى كما يتأتّى بسْط الأيدى ، وإنما المراد إظهار الكلام السيء فيهم بعد زمِّ الألسن عنهم ، فيكون الكلام كالشيء الذى بُسط بعد انطوائه ، وأُظهر بعد إخفائه .

وقد يجوز أيضا أن يكون تعالى إنما حَمل بَسْط الألسن على بسط الأيدى ، ليتوافق الكلام ، ويتزاوج النظام ، لأن الأيدىَ والألسن مشتركة فى المعنى المشار إليه ، فللأيدى الأفعالُ وللألسن الأقوال . وتلك ضررها بالإيقاع ، وهذه ضررها بالسَّماع .

---

(١) هى سورة الممتحنة .

(٢) فى الأصل « ليتسمكوا » وهو تحريف من الناسخ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [١٠] وقرأ أبو عمرو وحده ﴿ تَمَسَّكُوا ﴾ بالتشديد ، وقرأ بقية السبعة ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بالتخفيف . وهذه استعارة . والمراد بها : لا تُقيموا على نكاح المشركات ، وخلاطِ الكافرات ، فكَنَى سُبحانه عن العلائق التى بين النساء والأزواج بالعِصَم ، وهى ههنا بمعنى الحبال ، لأنها تصلُ بعضَهم ببعض ، وتربطُ بعضَهُم إلى بعض . وإنما سميت الحبالُ عصما ، لأنها تعصم المتعلق بها والمستمسك بقوّتها . وقال الشاعر :

* وآخذ من كل حىّ عِصم *

أى حبالا . وهى بمعنى العهود فى هذا الشعر .

وقال أبو عبيدة : العِصْمة : الحَبْل والسَّبَبُ . وقال غيره : العِصمُ : العقد . فكأنه تعالى قال : وَلَا تَمَسَّكُوا بعقد الكوافر ، أى بعقود نكاحهن . وأبو حنيفة يستشهد بهذه الآية على أنه لا عِدّةَ فى الحَرْبية إذا خرجتْ إلى دار الإسلام مُسلمةً ، و بانَتْ مِن زوجها بتخليفها له فى دار الحرب كافرا : ويقول إن فى الاعتداد منه تَمسُّكا بعصمة الكافر التى وقع النهى عن التمسك بها . ويذهبُ أن الكوافر ههنا جمع فرقةٍ كافرة ، كما أن الخوارج جَمْعُ فرقةٍ خارجة . ليصحّ حَمْلُ الكوافر على الذكور والإناث .

ويكون قوله تعالى : ﴿ولا تَمَسَّكوا﴾ خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . والمعنى : ولا تأمروا النساء بالاعتداد من الكفار ، فتكُونوا كأنكم قد أمرتموهُنّ بالتمسك بِعِصَمِهِمْ .

وقال أبو يوسف (١) ومحمد (٢) يجب عليها العدّة .

---

(١) أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصارى الكوفى ، صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان . تولى القضاء ببغداد فى أيام المهدى والهادى والرشيد ؛ وهو أول من لقب بقاضى القضاة فى الإسلام ، وأول من وضع الكتب فى الفقه الحنفى . توفى سنة ١٨٢ هـ .

(٢) محمد هو محمد بن الحسن بن واقد الشيبانى ، كان إماما فى الفقه والأصول ، وهو صاحب أبى حنيفة وناشر علمه ومذهبه . تولى القضاء فى زمن الرشيد ، ثم صحبه إلى خراسان فمات فى الرى سنة ١٨٩ هـ .

ومن السورة التي يذكر فيها « الصف »

قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [٥] وهذه استعارة . وكنا أغفلنا الكلام على نظيرها فى آل عمران . وهو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[١] لأن ذلك أدخلُ فى باب الكلام على الآى المتشابهة ، وأبعدُ من الكلام على الألفاظ المستعارة . إلا أننا رأينا الإشارة إلى هذا المعنى ههنا ، لأنه مما يجوز أن يَجْرى فى مضمار كتابنا هذا ، فنقول :

إن المراد بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أىْ لا تحمِّلنا من التكاليف مالا طاقة لنا به ، فتزيغ قلوبُنا ، أى تميل عن طاعتك ، وتعدلُ عن طريق مَرْضاتك ، فتصادفها زائغة ، أو يحكم عليها الزيْغُ عند كونها زائغة .

وقد يجوز أن يكون المرادُ بذلك : أى أدِمْ لنا ألطافَك وعِصَمَك لتدوم قلوبُنا على الاستقامة ، ولا تزيغ[٢] عن مناهج الطاعة . وحَسُن أن يُقال : لا تُزِغْ قلوبنا بمعنى الرغبة فى إدامة الألطاف ، لما كان إعدامُ تلك الألطاف فى الأكثر يكونُ عنه زَيْغُ القلوب ، ومواقعةُ الذنوب .

وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

وأما قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فهو أوضح فيما يذهَبُ إليه من الأول ، لأنه سبحانه لما زاغوا عن الحق حَكَم عليهم بالزَّيْغ عنه ، وحُكمه

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٨ .

(٢) فى الأصل « ولا تزغ » وهو تحريف إذ لا محل لجزم الفعل هنا .

بذلك أن يأمر أولياءه بذمِّهم ولَعْنهم والبراءة منهم عقوبة لهم على ذميم فعلهم . وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لما زاغوا عن الحق خذلهم وأبعدهم وخلَّاهم واختيارهم ، وأضاف سبحانه الفعل إلى نفسه على طريق الاتساع ، لما كان وقوع الزّيغ منهم مقابلا لأمره لهم باتباع الحقّ ، وسلوك الطريق النهْج . كما قال تعالى : ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي[1] ﴾ أى وَقَع نسيانكم لذِكرى،فى مقابلة أمرِ أولئك العِباد الصالحين لكم بأن تسلكوا الطريق الأسلم ، وتتَّبعوا الدين الأقوم .

ومن السورة التى يذكر فيها « الجمعة »

قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [٧] وهذه استعارة . والمراد : ولا يتمنّوْن الموت أبدا خوفا مما فرّط منهم من الأعمال السيئة ، والقبائح المجترحة . ونَسَب تعالى تلك الأفعال إلى الأيدى لغلبة الأيدى على الأعمال ، وإن كان فيها مايُعمل بالقلب واللسان .

ومن السورة التى يذكر فيها « المنافقون »

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [٧] وهذه استعارة . والمراد بخزائن السموات والأرض مواضع أرزاق العباد ، من مَدَارّ السحاب ، ومخارج الأعشاب ، ومايجرى مجرى ذلك من الأرفاق .

وقال بعضهم : المراد بالخزائن ههنا مقدوراتُ الله سبحانه ، لأن فيها كلّ مايشاء

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ١١٠ .

إخراجه ، من مصالح العباد ، ومنافع البلاد . وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدّم .

ومن السورة التي يذكر فيها « التغابُن »

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [٨] وهذه استعارة . والمراد بالنور ههنا القرآن . وإنما سُمّىَ نورا لأن به يُهتدى في ظُلَم الكفر والضلال ، كما يُهتدى بالنور الساطع ، والشهاب اللامع . وضياء القرآن أشرفُ من ضياء الأنوار ، لأن القرآن يعشُو إليه القلب ، والنورُ يعشُو إليه الطَّرف .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [٩] فذكر التغابن ههنا مجاز ، والمراد به — والله أعلم — تشبيه المؤمنين والكافرين بالمتعاقدين والمتبايعين ، فكأن المؤمنين ابتاعوا دار الثواب ، وكأنّ الكافرين اعتاضوا منها دار العقاب ، فتفاوتوا في الصَّفقة ، وتغابنوا في البيْعة ، فكان الربحُ مع المؤمنين ، والخسران مع الكافرين .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ (١) ﴾ الآية .

وليس في السورة التي يذكر فيها « الطلاق » (٢) شيء من الغرض الذي نقصدهُ في هذا الكتاب .

---

(١) سورة الصف . الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٢) يرى المؤلف رضي الله عنه أن سورة الطلاق ليس فيها شيء من مجازات القرآن .

ومن السورة التى يذكر فيها «التحريم»

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[٤] وهـذه استعارة . ومعنى صَغَتْ قلوبكما : أى مالت وانحرفت .

قال النضر بن[1] شميل : يقال قد صغوتُ إليه وصغَيت ، وصغِيت ، وأصغيت إليه ، وهو الكلام . ولم تمل قلوبهما على الحقيقة ، وإنما اعتقد قلباهما خلاف الاستقامة فى طاعة النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فحسُنَ أن يوصف بميل القلبين من هذا الوجه . وذلك كقول القائل : قد مال إلى فلان قلبى . إذا أحبه . وقد نفر عن فلان قلبى . إذا أبغضه . والقلب فى الأمرين جميعا بحاله ، لم يخرج عن نياطه ، ولم يُزَلْ عن مناطه .

وإنما قال سبحانه : قلوبكما ، والخطاب مع امرأتين ، لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع فى عادة العرب . قال الراجز[2] .

---

(١) هو النضر بن شميل بن خرشة التميمى المازنى وكان عالما بأيام العرب ورواية الحديث واللغة . اتصل بالخليفة المأمون العباسى فأكرمه وقربه إليه . توفى بمرو سنة ٢٠٣ هـ .

(٢) لم يذكر القرطبى اسم هذا الراجز . وقد نسبه محقق « الجامع لأحكام القرآن » للشاعر الخطام المجاشعى ونبه على ذلك فى هامش الجزء الخامس ص ٧٣ . ولم يذكر ابن مطرف الكنانى فى « القرطين » اسم الشاعر واكتفى بقوله : أنشدنى بعضهم ، وكذلك فعل العلامة محب الدين فى « شرح شواهد الكشاف » ص ٣١٨ .

والخطام اسمه بشر — كما كتب ذلك بخطه عبد القادر البغدادى ، على هامش « المؤتلف والمختلف » للآمدى ص ١١٢ — وهو شاعر إسلامى اشتهر بالرجز .

والقذف (بفتحتين وبضمتين) : البعيد من الأرض . والمرت (بفتح الميم وسكون الراء) : الأرض لا ماء فيها ولا نبات . والظهر : ما ارتفع من الأرض .

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْن ظهراهما مثل ظهور التُّرْسَيْنِ

وقال الله سبحانه فى موضع آخر: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾(١) وإنما أراد سبحانه قَطْع يمين السارق، ويمين السارقة. وذلك مشهور فى اللغة.

وقوله سبحانه: ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾[٨] وهذه استعارة. لأن نصوحا من أسماء المبالغة. يقال: رجل نصوحٌ. إذا كان كثير النصح لمن يستنصحه. وذلك غير متأت فى صفة التوبة على الحقيقة. فنقول: إن المراد بذلك — والله أعلمُ — أنّ التوبة لما كانت بالغة غاية الاجتهاد فى تلافى ذلك الذَّنْب(٢)، كانت كأنها بالغةٌ غاية الاجتهاد فى نصح صاحبها، ودلالته على طريق النجاة بها. فحسُن أن تسمَّى «نصوحا» من هذا الوجه.

وقال بعضهم: النَّصوح: هى التوبة التى يُناصح الإنسانُ فيها نفسه، ويبذل مجهوده فى إخلاص الندم، والعزم على ترك معاودة الذنب. وقرأ أبو بكر بن عياش(٣) عن عاصم(٤): ﴿ نُصُوحًا ﴾ بضم النون. على المصدر. وقرأ بقية السبعة ﴿ نَصوحًا ﴾ بفتح النون على صفة التوبة.

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم ٣٨.

(٢) فى الأصل «المذنب» وهو تحريف.

(٣) أبو بكر بن عياش. واسمه شعبة هو إمام فى اللغة والقراءات، وكان راوى عاصم وإماما من أئمة السنة توفى سنة ١٩٣ هـ. له ترجمة موجزة فى «الأعلام»، و«النشر»، و«القراءات واللهجات» لعبد الوهاب حمودة، و«الفهرست» لابن النديم.

(٤) هو عاصم بن أبى النجود الكوفى الأسدى أحد القراء السبعة، كان ثقة فى القراءات. وله اشتغال بحديث رسول الله. توفى سنة ١٢٧ هـ وقد روى عنه أبو بكر بن عياش. وله ترجمة فى «تهذيب التهذيب» و«الوفيات» و«الأعلام» للزركلى، و«القراءات واللهجات» لعبدالوهاب حمودة.

وقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [١٠] وهذه استعارة . لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفَوْق والتَّحْت ، وإنما المراد أنَّ منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل ، لقيامه عليها ، وغلبته على أمرها . كما قال سبحانه : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[1] . وكما يقول القائل : فُلانٌ الجندىُّ تحت يَدَىْ فلان الأمير . إذا كان من شحنة عمله ، أو متصرفا على أمره . وكما يقول الآخر : لا آخذ رزقى من تحت يَدَىْ فلان . إذا كان هو الذى يلى إطلاق رزقه ، وتوفية مستحَقه . وذلك مشهور فى كلامهم .

ومن السورة التى يذكر فيها « الملك »

قولهُ تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١] وهذه استعارة . وقد مضت لها نظائرها فيما تقدم . والمراد بذكر اليد ههنا استيلاء الملك وتدبير الأمر . يقال : هذه الدار فى يد فلان أى فى ملكه . وهذا الأمر فى يد فلانٍ أى هو المدبِّر له .

فمعنى ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ أى هو مالك المُلك ، ومدبِّر الأمر .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [٤] وهذه من الاستعارات المشهورة . والمراد بها — والله أعلم — أى كرِّر أيها الناظر

---

(١) سورة النساء . الآية رقم ٣٤ .

بصَرك إلى السماء مفكرا فى عجائبها ، ومستنبطا غوامض تركيبها ، يرجعْ إليك بصرك بعيدا مما طلبه ، ذليلا[١] بفوْتِ ماقدَّره .

والخاسئ فى قول قوم : البعيدُ . من قولهم : خسأت الـكلْبَ . إذا أبعَدْته . وفى قول قوم : هو الذليل[٢] . يقال رجل خاسٍ أى ذليل ، وقد خسئَ أى خَضَع وذَلَّ . والحسير : البعير المُعْيِيَ ، الذى قد بلَغَ السير مجهوده ، واعتصر عوده . فتلخيص المعنى أن البصر يرجع بعد سروحه فى طلب مراده ، وإبعاده فى غايات مرامه ، كَالًّا مُعْيِيًا[٣] ، بعيدا من إدراك بغيته ، خائبا من نيل طلبته

وقوله سبحانه فى صفة نار جهنم نعوذ بالله منها : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ، تَـكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [٨،٧] الآية .

وفى هذا الـكلام استعارتان . إحداهما قوله تعالى : ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ﴾ والشهيق : الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد ، والـكمد الطويل . وهو صوتٌ مكروه السماع . فـكأنه سبحانه وَصَف النار بأنَّ لها أصْوَاتا مقطعة تَهُول من سمعها ، ويُصعق من قرُبَ منها .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : ﴿تَـكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ من قولهم : تغيظت القِدْرُ . إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان المغضب . فـكأنه سبحانه وَصَف النار ــ نعوذ بالله منها ــ بصفة المغيظ الغضبان ، الذى من شأنه إذا بلغ ذلك الحد أن يبالغ فى الانتقام ، ويتجاوز الغايات فى الإيقاع والإيلام .

وقد جرت عادتهم فى صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا : يكاد فلان يتميز غيظا .

---

(١) فى الأصل « دليلا » بالدال المهملة وهو تحريف من الناسخ .

(٢) فى الأصل « الدليل » بالدال المهملة ، وهو تحريف .

(٣) الـكال : هو الذى أدركه الـكلال . والمعيى : هو الذى أدركه الإعياء .

أى تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل ، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد ، من شدة اهتياج غيظه ، واحتدام طبعه . فأجْرى سبحانه هـذه الصفة ـ التى هى أبلغ صفات الغضبان ـ على نار جهنم لما وصفها بالغيظ ، ليكون التمثيل فى أقصى منازله ، وأعلى مراتبه .

وقوله سبحانه : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾[١٥] وهـذه استعارة . لأن الذَّلول من صفة الحيوان المركوب . يقال : بعيرٌ ذَلول . وفرسٌ ذَلول . إذا أمكن مِنْ ظهره ، وتصرَّف على مراده راكبُه .

وضدُّ ذلك وصفُهم للمركوب المانع ظهرَه ، والممتنع على راكِبه بالصَّعب والمصْعَب .

والمعنى : أنه سبحانه جَعَل الأرض للناس كالمركوب الذلول ، ممكنةً من الاستقرار عليها ، والتصرُّفِ فيها ، طائعة غير مانعة ، ومذعنةً غير مدافعة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أى فى ظهورها وأعاليها ، وأعلى كلِّ شىء منكبٌ له .

وقال بعضهم : معنى ذلك أنه سبحانه لما أصابنا فى بعض الأحيان بالرجفات والزلازل التى لا قَرار معها على وجْه الأرض ، وخَلَق الجبال الخُشْنَ الملَامس ، الصعبةَ المسالك لتكون للأرض ثقلا ، وللخلق معقلا ، أعْلَمنا سبحانه أنه لولا ما أنعم به علينا من تسكين الأرض وتوطئتها ، ونَفْى الحزُونة[1] والوعُوث عن أكثرها حتى أمكنتْ من التصرف على ظهرها ، لما كان عليها مثبت قدم ، ولا مسْرحُ نَعَم . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

---

(١) الحزونة : غلظ الأرض ، والوعوث : صعوبة الطريق وتعسر السلوك فيه .

وقوله سبحانه : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢٢] وهذه استعارة، والمراد بها صفة مَنْ يخبِط فى الضلال ، وينحرفُ عَن طريق الرشاد . لأنهم يَصِفون مَنْ تلك حالُهُ بأنه ماشٍ على وَجْهه . فيقولون : فلانٌ يَمشى على وجهه ، ويَمضى على وجهه ، إذا كان كذلك .

وإنما شَبَّهوه بالماشى على وجهه ، لأنه لاينتفع بمواقع بصره ، إذكان البصرُ فى الوجه . وإذا كان الوجه مكبوبا على الأرض كان الإنسان كالأعمى الذى لايسلك جَدَدا ، ولا يقصد سددا .

ومن الدليل على أن قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ من الكنايات عن عَمَى البصر ، قولُه تعالى فى مقابلة ذلك : ﴿أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ لأن السَّوىّ ضدُّ المنقوص فى خَلْقه ، والمبتلى فى بعض كرائم جسمه .

ومن السورة التى يذكر فيها « نٓ والقلم »

قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [٤٢] وهذه استعارة . والمراد بها الكنايةُ عن هَول الأمر وشدته ، وعظم الخطب وفظاعته . لأن من عادة الناس أن يشمّروا عن سُوقِهم عند الأمور الصَّعبة ، التى يُحتاج فيها إلى المعاركة، ويُفزَع عندها إلى الدفاع والممانعة . فيكون تشمير الذيول عند ذلك أمكنَ للقراع ، وأصدق للمِصَاع .

وقد جاء فى أشعارهم ذكر ذلك فى غير موضع . قال قيس [1] بن زهير بن جذيمة العَبْسى :

(١) قيس بن زهير هو صاحب الفرسين : داحس والغبراء وبسببهما قامت الحرب بين عبس وذبيان ودامت أربعين سنة . وتجد أخباره فى « اللسان » و « أيام العرب » و « الشعر والشعراء » و « شعراء النصرانية » وغيرها .

فإن[١] شمّرت لك عن ساقها   فويها ربيعُ فلا تسأم[٢]

وقال الآخر[٣] :

قد شمّرت عن ساقها فشدُّوا   وجدّت الحرب بكم فجدُّوا

وقوله سبحانه : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤٤] وهذه استعارة . ولها نظائر فى القرآن . منها قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي[٤] وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[٥] ومعنى ذلك أن الكلام خرَج على مذهبٍ للعرب معروف ، وغرضٍ مقصود . يقول قائلهم لمخاطبه إذا أراد تغليظ الوعيد لغيره : ذَرْنى وفلانا فستعلمُ ماأنزلهُ به . فالمراد إذن بهذا الخطاب النبى صلى الله عليه وعلى آله . فكأنه تعالى قال له : ذَر عقابى وهؤلاء المكذبين . أى[٦] اترك مسألتى فى التخفيف عنهم ، والإبقاء عليهم . لأن الله سبحانه لايجوز عليه المنع ، فيصح معنى قوله تعالى لنبيِّه عليه السلام : ذَرْنى وكذا ، لأنه المالك لاينازَع ، والقادر لايُدافَع .

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ

---

(١) فى الأصل « فإذا » وهو تحريف من الناسخ به ينكسر الوزن .

(٢) هكذا بالأصل . وفى « شعراء النصرانية » ص ٩٢٧ يروى هكذا :

فإن شمرت لك عن ساقها   فويها ربيع ولم يسأموا

(٣) هو رويشد بن رميض العنبرى المعروف بشريح بن ضبيعة ، كما فى هامش « العقد الفريد » ج ٤ ص ١٢٠ طبع لجنة التأليف والترجمة . وفى « شرح ديوان الحماسة » للمرزوقى بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون أن اسمه رشيد بن رميض ، لارويشد . ويرجح الأستاذ هارون أنه العنزى ، لا العنبرى ، نسبة إلى بنى عنزة ، ص ٣٥٤ .

(٤) فى الأصل : فذرنى بالفاء . وهو تحريف . والصواب بالواو . سورة المزمل . الآية رقم ١١ .

(٥) سورة المدثر . الآية رقم ١١ .

(٦) فى الأصل « أترك » وهو تحريف من الناسخ .

وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾[٥١] وهذه استعارة . والمراد بالإزلاق ههنا : إزلالُ القدم حتى لايستقر على الأرض . وذلك خارج على طريقة للعرب معروفة . يقول القائل منهم : نظرَ إلىَّ فلانٌ نظرًا يكاد يصْرَعنى به . وذلك لايكونُ إلا نظر المقْتِ والإبغاض ، وعند النزاع والخصام . وقال الشاعر (١) :

يتقارضون إذا التقَوْا فى موقف نظَرا يُزِيل مواقف الأقدام

وقد أنكر بعضُ العلماء أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ الإصابة بالعين ، لأن هذا من نظر السخط والعداوة ، وذلك من نظر الاستحسان والمحبّة .

ومن السور التى يذكر فيها « الحاقة »

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[٦] وهذه استعارة . والمراد بالصّرصر: الباردة . وهو مأخوذ من الصِّرّ ، والعاتية : الشديدةُ الهبوب التى ترد بغير ترتيب ، مشبّهةً بالرجل العاتى ، وهو المتمرد الذى لا يبالى على ماأقدم ، ولا فيما ولج ووقع .

وقوله سبحانه . ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾[١٠] وهذه استعارة . والمراد بالرابية ههنا : العالية القاهرة . مِنْ قولهم : رَبَا الشىء إذا زاد . والرِّبا مأخوذ من هذا. فكأن تلك الأخذة كانت قاهرة لهم ، وغالبةً عليهم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[١١] وهذه استعارة .

---

(١) لم يذكر « لسان العرب » اسم الشاعر . وفى شرح « شواهد الكشاف » لم ينسب لقائل أيضا . انظر اللسان مادة قرض . وقد استشهد الزمخشرى بهذا البيت فى حديثه عن هذه الآيات بالذات ، ولكنه روى « نظرا يزل » بدلا من « يزيل » .

والمراد بها قريب من المراد بالاستعارتين الأوليين [١] ، وهو تشبيه للماء فى طمو أمواجه، وارتفاع أثباجه بحال الرجل الطاغى ، الذى علا متجبرا ، وشمخ متكبرا .

وقال بعضهم : معنى طغى الماء أى كثُر على خُزّانه ، فلم يضبطوا مقدار ماخرج منه كثرة ، لأن للماء خَزَنَةً ، وللرياح خَزَنَةً من الملائكة عليهم السلام ، يخرجون منهما على قدر مايراه الله سبحانه من مصالح العباد ، ومنافع البلاد ، على ماوردت به الآثار .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [٢١] وهـذه استعارة . وكان الوجه أن يُقال : فى عيشة مرضيَّة . ولـكن المعنى خرج على مخرج قولهم : شعرٌ شاعرٌ ، وليلٌ ساهر . إذا شُعر فى ذلك الشعر وسُهر فى ذلك الليل ، فـكأنهما وصفا بما يكون فيهما ، لا بما يكون منهما . فبَانَ أنّ تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الإنسان فيها حالَهُ جاز أن توصفَ هى بالرضا . فيقال راضية . على المعنى الذى أشرنا إليه . وعلى ذلك قول أوس بن حجر [٢] .

جُدلت على ليلةٍ ساهرة بصحراء شرج إلى ناظره [٣]

وَصفَ الليلة بصفة الساهر فيها ، وظاهرُ الصفة أنها لها .

وقال بعضهم : إنما قال تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ لأنها فى معنى : ذات رضى ، كما قيل : لابنٌ ، وتامرٌ . أى ذو لبَنٍ ، وتمْرٍ .

وكما قالوا لِذِى الدِّرع: دارع، ولِذِى النَّبْل: نابِل، ولصاحِب الفَرسَ : فارسٌ . وإنما

---

(١) فى الأصل « الأولتين » وهو تحريف شنيع من الناسخ .

(٢) هو أوس بن حجر بن مالك التميمى ، كان شاعر تميم فى الجاهلية ، وعمر طويلا ، ولم يدرك الإسلام . وفى شعره رقة وحكمة . وهو صاحب الأبيات المشهورة التى أولها :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

(٣) البيت فى « الأغانى » جـ ١١ ص ٧٢ . وفى مخطوطتنا هـذه « حدلت » بالحاء المهملة ، وفى أصول « الأغانى » خذلت بالخاء والذال المعجمتين . وجدلت : صرعت . وشرج ، وناظرة : اسما مكان بأرض بنى أسد .

جاءوا به على النّسب ، ولم يجيئوا به على الفعل . وعلى ذلك قول النابغة الذّبيانى (١) :

كِلينى لهمٍّ ياأميمةُ ناصِبِ ... ولَيلٍ أقاسيه بَطِىءِ الكواكِبِ

أى : ذى نَصَب . قال فكأنّ العيشة أعطيَتْ من النعيم حتى رضيَتْ ، فحسُن أن يقال : راضية ، لأنها بمنزلة الطالب للرضا ، كما أنّ الشهوة بمنزلة الطالب المشتهى .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٤٤، ٤٥] وهذه استعارة على أحد التأويلات ، وهو أن يكون المراد باليمين ههنا القوة والقدرة . فيكون المعنى : أنه لو فَعَل مانكَرِهُه فِعلَه لا نتقمنا منه عن قدرة ، وعاقبناه عن قوة .

وقد يجوز أن تكون اليمين ههنا راجعةً على النبى صلى الله عليه وسلم ، فيكون المعنى : لو فَعَل ذلك لسلبناه قُدرته ، وانتزعنا منه قوّته . ويكون ذلك كقوله سبحانه : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ (٢) أى تُنبت الدُّهن على بعض التأويلات . وكقول الشاعر (٣) :

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أى نرجو الفرَج .

---

(١) هو أشهر من أن نعرف به هنا ، وهو من شعراء الجاهلية المقدمين ، وأخباره مع النعمان بن المنذر واعتذاراته له معروفة متعالمة .

(٢) سورة المؤمنون . الآية رقم ٢٠ .

(٣) هو النابغة الجعدى كما فى « معجم ياقوت » و« تاج العروس » وقد نقل ذلك عنهما محقق « معجم مااستعجم » للبكرى ص ١٠٢٩ . والبيت كاملا هو :

نحن بنو جعدة أرباب الفلج ... نضرب بالبيض ونرجو بالفرج

والفلج بفتحتين : اسم مكان لبنى جعدة من قيس ببلاد نجد .

وفى « القرطين » لابن مطرف : نضرب بالسيف ، مثل رواية مخطوطتنا هذه . ج ٢ ص ٣٠ .

ومن السورة التي يذكر فيها «سأل سائل»

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ [١٧] وهذه استعارة . والمراد بدعائها مَنْ أدبر وتولّى ــ والله أعلم ــ أنه لما استحقها بإدباره عن الحق صارت كأنها تدعوه إليها ، وتَسُوقه نحوها . وعلى ذلك قول ذى الرمّة[١] فى صفة الثور :

غدا بوهنين مجتازا لمرتعه بذى الفوارس تدعو أنفه الرِّبب

والرِّبَبُ جمع رِبَّة ، وهى نبت من نبات الصيف .

يقول لما وجد رائحة الربب مضى نحوها فكأنها دعته إلى أكلها . وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أنها لا يفوتها ذاهب ، ولا يُعجزها هارب . فكأنها تدعو الهاربَ منها فيجيبها ، مدًّا له بأسبابها ، وردًّا له إلى عذابها .

وقال بعض المفسرين : إنه تخرج عنُق من النار ، فتتناول الكافر حتى تقحمه فيها ، فكأنها بذلك الفعل داعية له إلى دخولها .

وقد يجوز أن يكون المراد أنها تدعو مَن أدْبَر عن الحق . بمعنى أنها تخوّفه بفظاعة الخبرَ عنها ، وتغليظِ الوعيد بها ، فكأنها تستعطفه إلى الرشد[٢] ، وتستصرفه عن الغى .

وحُكى عن المبرد أنه قال : تدعُو مَن أدْبر وتولّى . أى تعذّبه . وحُكى عن الخليل أن أعرابيا قال لآخر : دعاكَ الله . أى عذبك الله . وقال ثعلب : معنى دَعاكَ الله . أى أماتَكَ اللهُ . فَعلى هذا القول يدخل الكلام فى باب الحقيقة ، ويخرج عن حيز الاستعارة .

---

(١) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة . شاعر فحل اشتهر بالتشبيب وبكاء الأطلال ذاهبا مذهب الجاهليين . توفى بأصبهان سنة ١١٧ هـ .

(٢) كانت بالأصل : (الرتبة) وهى تحريف . فصوبناها على طريق المقابلة مع الغى .

ومن السورة التي يذكر فيها « نوح » عليه السلام

قوله سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [١٣] وهذه استعارة . لأن الوقار ههنا وُضع وَضْع الحلم مجازا . يقال : رجل وقور . بمعنى حليم .

فأما حقيقة الوقار الذى هو الرزانة والثقل فلا يجوز أن يوصف بها القديم سبحانه ، لأنها من صفات الأجسام ، وإنما يجوز وصفه تعالى بالوقار ، على معنى الحِلْم كما ذكرنا . والمعنى أنه يؤخر عقاب المذنبين مع الاستحقاق ، إمهالا للتوبة ، وإنظارا للفيئة والرجعة . لأن الحليم فى الشاهد اسم لمن يترك الانتقام عن قدرة . ولا يسمى غير القادر إذا ترك الانتقام حليما، للعلة التى ذكرناها . وقوله تعالى: ﴿لا ترجون﴾ ههنا أى لا تخافون . فكأنه سبحانه قال : مالكم لا تخافون لله حِلْما ؟ وإنما أخّر عقوبتكم ، إمهالا لكم ، وإيجابا للحجة عليكم . وإلاَّ فعقابه من ورائكم ، وانتقامه قريبٌ منكم .

وقد جاء فى شعر العرب لفظ الرجاء ، والمرادُ به الخوف . ولا يَرِدُ ذلك إلا وفى الكلام حرف نفى . لا يقال : فلان لا يرجو فلانا بمعنى يخافه ، بل يقال : فلان لا يرجو فلانا . أى لا يخافه . وقال الهذلى أبو ذؤيب[١] :

إذا لسعتهُ الدَّبر[٢] لم يرج لَسْعَها ... وحالفها فى بيت نُوب عواسل[٣]

أراد : لم يَخَفْ لسْعها .

---

(١) أبو ذؤيب الهذلى : تقدمت الإشارة إليه والترجمة له فى الحديث عن مجازات سورة الزمر .

(٢) الدبر : جماعة النحل والواحدة دبرة .

(٣) فى الأصل « عوامل » والتصويب عن « ديوان الهذليين » ورواية ابن قتيبة فى « تأويل مشكل القرآن » عوامل بالميم كما فى الأصل . ص ١٤٧ .

وقال الآخر (١) :

لاترتجى حين تلاقى الذائدا أخمسةً لاقت معاً أو واحدا

أى لاتخاف . وقال بعض العلماء : إنما كنوا عن الخوف بالرجاء فى هذه المواضع ، لأن الراجى ليس يستيقن ، فمعه طرف من المخافة . وقال بعضهم : الوقار ههنا بمعنى العظمة وسعة المقدرة . وأصل الوقار ثبوت مابه يكون الشىء عظيما من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل .

ومن ذلك قول القائل : قد وَقَر قولُ فلان فى قلبى . أى ثبَت واستقرّ ، أو خدش وأثر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [١٧] وهذه استعارة . لأن حقيقة الإنبات إنما تجْرى على ماتُطلعهُ الأرض من نباتها ، وتُخرجه عند ازدراعها . ولما كان سبحانه يخرج البريّة من مَضايق الأحشاء ، إلى مَفَاسح الهواء ، ويُدرجهم من الصغر إلى الكِبَر ، وينقلهم من الهيئات والصور ، كل ذلك على وجه الأرض ، جاز أن يقول سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ .

وقال بعضهم قد يجوز أن يكون المراد بذلك خَلْق آدم عليه السلام من الطين ، وهو أصل الخليقة . فإذا خلقه سبحانه من طين الأرض كانَ نسله مخلوقين منها ، لرجوعهم إلى الأصل المخلوق من طينها . فحسُنَ أن يقول سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أى استخرجكم من طين الأرض . ونباتا ههنا مصدرٌ وَقَع مخالفا لما يُوجبه بناء فِعْلِه . وكان الوجه أن يكون : إنباتا . لأنه فى الظاهر مصدر أنبتكم . وقد قيل إن هناك فعلا محذوفا

---

(١) لم ينسب فى « أساس البلاغة » لقائله . وروى فى الأساس هكذا :

لاترتجى حين تلاقى الذائدا أسبعة لاقت معا أم واحدا

جَرى المصدر عليه ، فكأنه تعالى قال : واللهُ أنبتكم من الأرض فنبتُّم نباتا . لأن أنبت يدل على نَبَتَ من جهة أنه مضمن به .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [١٩ ، ٢٠] وهذه استعارة . والمراد بالبساط ههنا : المكان الواسع المستوى . مشبَّه بالبساط ، وهو النمط الذى يمد على الاستواء فيُجْلَسُ عليه .

وقال الأصمعى (١) : وبنو تميم خاصة يقولون بَسَاط ، بفتح الباء . وقال الشاعر : (٢)

وَدُونَ يَدِ الحَجَّاجِ مِنْ أَنْ يَنَالَنِى بساط لأيدى الناعجات (٣) عريض

وتَصْيِير الأرض بساطاً ، كتصَييرها فِراشا ومهادا .

وهذه الألفاظ الثلاثة ترجع إلى معنى واحد :

ومن السورة التى يذكر فيها «الجن»

قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [١١] وهذه استعارة . والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ كنا ضروبا مختلفة ، وأجناسا مفترقة .

---

(١) هو أبو سعيد عبدالملك بن قريب الراوية المشهور وأحد علماء اللغة الأثبات . ونسب إلى جده « أصمع » وكان يتلقى الأخبار مشافهة من البوادى ويتحف بها الخلفاء فيكافأ عليها بأجزل الهبات . قال فيه الأخفش : مارأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعى . وقد انفرد برواية قصائد جمعها المستشرق الألمانى وليم أهلورت . وتوفى بالبصرة سنة ٢١٦ .

(٢) هو العديل بن الفرخ ، ولقبه العباب : والعباب اسم كلب له فلقب باسم كلبه . وكان هجا الحجاج ابن يوسف فطلبه فهرب منه إلى قيصر ملك الروم ، فقال أبياتا منها هذا البيت . وأخباره فى « الشعر والشعراء » ص٣٧٥ ، و«الأغانى» ج٢٠ و«الخزانة» ج٢.

(٣) فى « الشعر والشعراء » اليعملات » والناعجات هى النياق البيض . واليعملات : جمع يعملة وهى الناقة المطبوعة على العمل .

والطرائق : جمع طريقة . وهى ـ فى هذا الموضع ـ المذهب والنحلة . والقِدَدُ : جمع قِدَّة ، وهى القطعة من الشىء المقدود طولا ، مثل فِلْذة وفِلَذ ، وقِرْبة وقِرَب . وقد غلَبَ على ما كان من القِطَع طولا لفظُ القدِّ ، وعلى ما كان من القطع عَرضا لفظ القطِّ . فكأنه سبحانه شبه اختلافهم فى الأحوال ، وافتراقهم فى الآراء بالسُّيور المقدودة ، التى تتفرق عن أصلها ، وتتشعب بعد ائتلافها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [١٥] وهذه استعارة . والمراد أن نار جهنم ـ ونعوذ بالله منها ـ يُسْتدام وقودُها بهم ، كما يستدام وَقُودُ النار بالحَطب ، لأن كل نار لابدّ لها من حشاش يحشها ، ووقود يمدها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [١٩] وهذه استعارة . واللِّبد ههنا كناية عن الجماعات المتكاثرة التى تظاهرت من الكفار على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أى اجتمعوا عليه متألبين ، وركبوه مترادفين . فكانوا كلِبَد الشَّعْر ، وهى طرائقه وقطعُه التى يَرْكب بعضُها بعضا . وواحدتها لِبْدة . ومنه قيل : لِبْدة الأسد . وهى الشعر المتراكب على مناكبه . وذلك أبلغُ ماشبِّهت به الجموع المتعاظلة ، والأحزاب المتألفة .

وقال بعض أهل التأويل : المراد بذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما صلَّى الصبح ببطن نخلة (١) منصرفا من حُنين ، وقد حضره الوفد من الجن ـ وخبرُهم مشهور ـ كادوا يركبون منكبه ، ويطأون أثوابه ، لما سمعوا قراءته ، استحسانا لها ، وارتياحا إليها ، وتعجبا منها

رُوى عن ابن عباس فى هذا المعنى ـ وهو أغرب الأقوال ـ أن هذا الكلام من صلة كلام الجن لقومهم لما رجعوا إليهم ، فقالوا إنَّا سمعنا قرآنا عجبا . وذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قام ببطن (١) نخلة يصلى بأصحابه عَجِب الجن الحاضرون من طواعيتهم له فى

(١) فى الأصل « بطن نحلة » بالحاء المهملة وهو تحريف والتصويب عن « معجم ما استعجم » للبكرى .

الركوع والسجود. والقيام والقعود ، فلما رجعوا إلى قومهم قالوا فى جملة ماقصُّوه عليهم : وأنَّه لما قام عبدُ الله يدعوه — أى يصلى له — كادوا يكونون عليه لبداً . أى كاد أصحابه يركبونه تزاحما عليه ، وتدانيا إليه ، واحتذاء لمثاله ، واستماعا لمقاله .

ومن السورة التى يذكر فيها « المزمل »

عليه الصلاة والسلام

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [٥] وهذه استعارة . لأن القرآن كلام ، وهو عَرَض من الأعراض . والثقل والخفة من صفات الأجسام ، والمراد بها صفة القرآن بعظم القدر ، ورجاحة الفضل[1] ، كما يقول القائل : فلان رَصِينٌ رزينٌ . وفلان راجحٌ ركين . إذا أراد صفته بالفضل الراجح ، والقدْر الوازن .

وقوله سبحانه . ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[٦]وقرىء : وَطْأً[2] بالقصر . وهـذه استعارة .

والمراد بناشئة الليل ههنا ما يُنشأ فعله ، أى يُبتدأ به من عمل الليل ، كالتهجد فى أثنائه ، والتلاوة فى آنائه . ومعنى ﴿ أشد وَطْأً ﴾ فى قول بعضهم ، أى أشد مواطاة ، وهو مصدر . يقال : واطاه ، مواطاة ، ووطاء . أى يواطىء فيها السمع القلبَ ، واللسانُ

(١) فى الأصل « الفصل » بالصاد المهملة .

(٢) قرأ أبو العالية وأبو عمرو ومجـاهد وابن أبى إسحـاق وحميد وابن عامر والمغيرة وأبو حيوة « وطاء » بالمد . وقرأ الباقون « وطأ » بفتح الواو وسكون الطاء ، على وزن بحر . انظر « القرطبى » ج ١٩ ص ٣٩ .

العملَ ، لقلة الشواغل العارضة ، واللوافت الصارفة ، ولأن البال فيها أجمع ، والقلب أفرغ ، فالقراءة فيها أقوم ، والصلاة أسلم .

ومَن جعَل وطاء ههنا اسما[١] لما يُستوطى ويفترش ، كالمهاد وما يجرى مجراه ، فأنه ذهب إلى أن عمل الليل أوعث مقاما ، وأصعبُ مراما . وعندهم أن كل ماينشأ بالليل من قراءة ، أو تهجد ، أو طروق ، أو ترحل أشقُّ على فاعِلِه ، وأصعَبُ على مستعمله ، لأن الليل موحش هائل ، ومخوف مُحاذَرٌ . [فكل[٢]] ماوقع فيه مما أومأنا إليه كان كالنسيب له ، والشبيه به .

ومن قرأ وَطْأً بالقصر فالمعنى فيه قريب من المعنى الأول . والمراد أن قيام الليل أشد وَطْأً عليك أى أصعب وأشق، كما يقول القائل : هذا الأمر شديد الوطأة علىّ . إذا وصف بلوغه منه وصعوبته عليه ومع أن عمل الليل أشد كلفة ومشقة فهو أقْوَمُ صلاة وقراءة، للمعنى الذى قدمنا ذكره .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾[٧] وهذه استعارة . والمراد بها المضطَرَبُ الواسع ، والمجالُ الفاسح . وذلك مأخوذ من السباحة فى الماء ، وهى الاضطراب فى غمراته ، والتقلب فى جهاته . فكأنه سبحانه قال : إن لك فى النهار متصرفا ومتسعا ، ومذهبا منفسحا ، تقضى فيه أوطارك ، وتبلغُ آرابك .

وقوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾[١٧] وهذه استعارة . والمراد بها : أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يَشِيبُوا الرائع خطْب ،

---

(١) فى الأصل « السهاد » وهو تحريف من الناسخ .
(٢) ليست بالأصل، ويبدو أنها مطموسة، وقد زدناها لأن النص يتطلبها .

أو طارقِ كرْب ، لشابُوا فى ذلك اليوم لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله . وذلك كقول القائل : قد لقيتُ من هذا الأمر ماتشيب منه النواصى ـ كنايةً عن فظيع مالاق ، وعظيم ماقاسى .

ومن السورة التى يذكر فيها « المدثر »

عليه السلام

قوله سبحانه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [٤] وهـذه استعارة على بعض التأويلات ، وهو أن تكون الثياب ههنا كناية عن النفس أو عن الأفعال والأعمال الراجعة إلى النفس . قال الشاعر[(١)] :

ألَا أبْلغْ أبَا حَفْصٍ رسولا   فِدًى لَكَ مِنْ أخى ثقة إزارى

قيل : أراد فِدًى لك نفسى . وكذلك قول الفرزدق :

سكَّنتُ جروتها[(٢)] وقلت لها اصبرى   وشددتُ فى ضيق المَقام إزارى

---

(١) هو بقيلة الأكبر الأشجعى ، وكنيته أبو المنهال . شاعر إسلامى . وله خبر مع عمر بن الخطاب بشأن رجل كان واليا على مدينتهم اسمه جعدة بن عبد الله ، وكان له شأن غير مرضى مع النساء . فأرسل الشاعر بقيلة أبياتا إلى عمر يستعديه على هـذا الوالى . والقصة كاملة فى « لسان العرب » . وذكر ابن مطرف الـكنانى فى « القرطين » الأبيات فى ص ٨٠ ج ٢ ولم ينسبها لقائلها واكتفى بقوله: روى فى بعض الحديث أن رجلا كتب إلى عمر بن الخطاب . وفى مادة أزد فى « لسان العرب » أن اسمه نقيلة ، والتصويب من « المؤتلف والمختلف » ص ٦٢ حيث ورد فى باب الباء لا النون .

(٢) فى ديوان الفرزدق ص ٣٢٢ .

فضربت جروتها وقلت لها اصبرى   وشددت فى ضيق المقام إزارى

وضرب الجروة: كناية عن العزم والتصميم على الأمر .

أى شددت نفسى ، وذمرت قلبى. والإزار والثياب يتقارب معناهما . وعلى هذا فسّروا قول امرىء القيس :

* فسُلِّى ثيابى من ثيابك تنسُلِ [1] *

أى نفسى من نفسك ، أو قلبى من قلبك .

ويقولون : فلان طاهر الثياب ، أى طاهر النفس ، أو طاهر الأفعال . فكأنه سبحانه قال : ونفسَك فطهِّر ، أو أفعالك فطهِّر .

وقد يجوز أن يكون للثياب ههنا معنى آخر ، وهو أن الله سبحانه سمَّى الأزواج لباسا فقال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [2] واللباس والثياب بمعنى واحد . فكأنه سبحانه أمره أن يستطهر النساء . أى يختارهن طاهرات من دنس الكفر ، ودَرَن العيب ، لأنهن مظانُّ الاستيلاد ، ومضامُّ الأولاد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [٣٤] وهذه استعارة ، والمراد بها انكشاف الصبح بعد استتاره ، ووضوحه بعد التباسه ، تشبيها بالرجل المُسْفِر الذى قد حَطَّ لثامه ، فظهرت مجالى وجهه ، ومعالم صورته .

---

(١) البيت بكماله هو :

وإن تك قد ساءتك منى خليقة ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

(٢) سورة البقرة . الآية رقم ١٨٧ .

ومن السورة التى يذكر فيها « القيامة »

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [١٤، ١٥] وهذه استعارة . والمراد ـ والله أعلم ـ أن الإنسان حجة على نفسه فى يوم القيامة ، وشاهدٌ عليها بما اقترفتْ من ذنب ، واحتملت مِنْ وزر . وإن ألقى معاذيره . أى هو وإنْ تعلّق بالمعاذير ولفّق الأقاويل شاهدٌ على نفسه بما يوجب العقاب ، ويجر النكال .

وقال الكسائى : المعنى : بل عَلَى نفْس الإنسان بصيرة . فجاء على التقديم والتأخير . أى عليه من الملائكة رقيب يرقبه ، وحافظ يحفظ عمله . وقال أبو عبيدة : جاءت هذه الهاء فى بصيرة ، والموصوفُ بها مذكَّر ، كما جاءت فى علّامة ، ونسّابة ، وراوية ، وطاغية . والمراد بها المبالغة فى المعنى الذى وَقَع الوصْف به .

ووجْه المبالغة فى صفة المَلَكِ المُحْصِى لأعمال المكلّف بأنه بصيرة أنّ ذلك المَلَكَ يتجاوز علم الظواهر إلى عِلْم السرائر ، بما جعل الله تعالى له على ذلك من الأدلة ، وأعطاه من أسباب المعرفة . فهو للعلة التى ذكرناها يُوفى على كل رقيب حافظ ، ومُراع مُلاحظ .

والتأويل الآخر يخرُج به الكلام عن حيّز الاستعارة . وهو أن تكون المعاذير ههنا من أسماء السُّتور . لأن أهل اليَمَن يسمُّون السِّتر بالمعذار . فكأن المراد أن الإنسان رقيب على نفسه ، وعالم بمستسر غيبه ، فيما يقارفه من معصية ، أو يقاربه من ريبة ، وإن ألقى ستوره مستخفيا ، وأغلق أبوابه متواريا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [٢٩، ٣٠]

وهـذه استعارة على أكثر الأقوال . والمرادُ بها ـ والله أعلم ـ صفةُ الشدَّتين المجتمعتين على المرء من فراق الدنيا ، ولقاء أسباب الآخرة . وقد ذكرنا فيما تقدم مذهبَ العرب فى العبارة عن الأمر الشديد ، والخطب الفظيع ، بذكر الكشف عن الساق ، والقيامِ عَنْ ساق . فلا فائدة فى تكرير ذلك وإعادته .

وقد يجوز أن يكون السّاق ههنا جَمْعَ ساقة كما قالوا : حاجةٌ وَحاجٌ . وغاية وغاىٌ . والساقةُ : هم الذين يكونون فى أعقاب الناس يحفزونهم على السَّير ، وهذا فى صفة أحوال الآخرة وَسوْق الملائكة السابقين بالكثرة ، حتى يلتفّ بعضهم ببعض من شديد الحفز ، وعنيف السير والسَّوق . ومما يقوِّى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ .

والوجه الأول أقرب ، وهذا الوجه أغرب .

ومن السورة التى يذكر فيها

«هل أتى على الإنسان»

قوله سبحانه : ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[٧] وهـذه استعارة . وحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة . يقال : طار الطّائر ، واستطرتُه أنا إذا بعثتهُ على الطيران . ويقولون أيضا من ذلك على طريق المجاز : استطار لهيبُ النار . إذا انتشر وعَلا ، وظهر وفشا . فكأنه سبحانه قال : يخافون يوما كان شرُّه فاشيا ظاهرا ، وعاليا منتشرا .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [١٠] وهذه استعارة . لأن العبوس من صفة الإنسان القاطب المعبِّس . فشبَّهَ سبحانه ذلك اليوم ـ لقوّة دلائله

على عظيم عقابه ، وأليم عذابه ـ بالرجل العَبوس الذى يستدلُّ بعبوسه وقُطو به على إرصاده بالمكروه ، وعزمه على إيقاع الأمر المخوف . وأصْلُ العُبوس تقبيض الوجه ، وهو دليل السخط ، وضده الاستبشار والتطلّق وهما دليلا الرضا والخير .

وكما سمّت العربُ اليوم المحمود طَلْقا ، فكذلك سمّت اليوم المذموم عبُوسا . ويقال : يوم قَمْطَرِيرٌ وقماطر (١) إذا كان شديدا ضرُّه ، طويلا شرُّه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [١٤] وهذه استعارة . والمراد بتذليل القطوف ـ وهى عناقيد الأعناب وواحدها قطف (٢) ـ أنها جُعلت قريبة من أيديهم ، غير ممتنعة على مجانيهم ، لايحتاجون إلى معاناة فى اجتنائها ، ولا مشقة فى اهتصار أفنانها ، فهى كالظّهر الذلول الذى يوافق صاحبه ، ويواتى راكبه .

والتذليل ههنا مأخوذ من الذِّلّ بكسر الذال ، وهو ضد الصعوبة . والذُّل ـ بضم الذال ـ ضدُّ العز والحميّة .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [٢٧] وهذه استعارة . وقد مضى الكلام على نظيرها فيما تقدم . والمراد باليوم الثقيل ههنا : استثقاله من طريق الشدة والمشقة ، لامن طريق الاعتماد بالأجزاء الثقيلة . وقد يوصف الكلام بالثقيل على هذا الوجه ، وهو عرض من الأعراض ، فيقول القائل : قدْ ثقُل علىَّ خِطَابُ فلان . وما أثقلَ كلام فلان .

---

(١) قماطر : بضم القاف .

(٢) القطف بكسر القاف : العنقود ساعة يقطف ،أو اسم للثمار المقطوفة . والجمع قطوف ، وقطاف .

ومن السورة التى يذكر فيها « المرسَلات »

قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [٨] وهذه استعارة . والمراد بطمس النجوم ـ والله أعلم ـ مَحْوُ آثارها ، وإذهاب أنوارها ، وإزالتها عن الجهات التى كان يُستدلُّ بها ، ويُهتدَى بسمتها . فصارت كالكتاب المطموس الذى أَشْكَلَت(١) سطورهُ ، واستَعْجَمت حُروفه .

والطمس فى المكتوبات حقيقة . وفى غيرها استعارة .

ومن السورة التى يذكر فيها « عمَّ يتساءلون »

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [٦ ، ٧] وهاتان استعارتان، وقد مضى الكلام على الأولى منهما . أما معنى كونِ الجبالِ أوتادا فلأنّ بها مِسَاكَ الأرض وقوامَها، واعتدالها وثباتها ، كما يثبت البيت بأوتاده ، والخباء على أعماده .

ومن السورة التى يذكر فيها « النازعات »

قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَإِذَاهُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [١٣ ، ١٤] وهذه استعارة . لأن المراد بالساهرة ههنا ـ على ماقال المفسرون والله أعلم ـ الأرض .

قالوا إنما سُمِّيت ساهرةً على مثال : عيشة راضية . كأنه جاء على النسب : ذاتُ السَّهَر وهى الأرض المَخُوفَة . أى يُسهر فى ليلها ، خوفا من طوارق شرِّها .

---

(١) أشكل الأمر ، على وزن أكرم : التبس .

وقيل أيضا : إنما سمِّيت الأرض ساهرة لأنها لاتنام عن إنماء نباتها وزُروعها ، فعملُها فى ذلك ليلاً كعملها فيه نهارا .

سورة « عبس »

ولم نجد فى السورة التى يذكر فيها : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (١) شيئا من المعنى الذى قصدنا له .

ومن السورة التى يذكر فيها « إذا الشمس كوِّرت »

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [٨ ، ٩] وهذه استعارة . والمراد ـ والله أعلم ـ أنها سئلت لا لاستخراج الجواب منها ، ولكن لاستخراج الجواب من قاتلها . ويكون ذلك على جهة التوبيخ للقاتل إذ قتَل مَن لا يُعربُ عن نفسه ، ولم يُذْنب ذَنبا يؤخَذ بجريرته . وقيل معنى سُئِلت أى طُلب بدمها ، كما يقول القائل : سألتُ فلانا حق عليه . أى طالبته به .

و إنما سميت موءودةً للثقل الذى يُلقَى عليها من التراب . وتقول : آدَنى هذا الأمر . أى أثقلنى . ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (٢) أى لا يثقله ذلك ، كما يُثقِل أحدَنا فى الشاهد حفظُ المتشعبات ، وضبطُ المنتشرات .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ، ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [١٥ ، ١٦] وهاتان استعارتان . فهما جميعا فى صفة النجوم . فأما الخُنَّس فالمراد بها التى تخنِسُ نهارا ، وتطلُع ليلا . والخنَّس جمع خانس وهو الذى يقبَع ويستسرُّ ، ويَخفى ويستتر . وأما الـكنَّسُ

---

(١) ليس فى سورة عبس شىء من المجازات والاستعارات التى تتبعها المؤلف رحمه الله فى القرآن الكريم .

(٢) سورة البقرة . الآية رقم ٢٥٥ .

فجمعُ كانس ، وهو أيضا المتوارى المستخفى ، مشبَّها بانضمام الوحشية إلى كناسها ، وهو الموضع الذى تأوى إليه من ظلال شجر . وألفاف خمر [١] . وجمعه كُنَّس .

فشبه سبحانه انقباع النجوم فى بروجها ، بتوارى الوحوش فى كُنُسها .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [١٨] وهذه من الاستعارات العجيبة . والتنفس ههنا عبارة عن خروج ضوء الصبح من عموم غسَق الليل . فكأنه متنفِّس من كَرْب ، أو متروِّح من همٍّ ، ومن ذلك قولهم : قد نُفِّس عن فلان الخناق . أى انجلى كربه ، وانفسح قلبه . وقد يجوز أن يكون معنى ﴿ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى إذا انشق وانصدع . من قولهم : تنفَّس الإناء إذا انشق ، وتنفست القوس إذا انصدعت . وهذا التأويل يُخرج اللفظ من باب الاستعارة . وقد استقصينا الكلام على هذا المعنى ، فى كتابنا الكبير ، عند موضع اقتضى ذكره .

سورة « الانفطار »

وليس فى السورة التى يذكر فيها ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ شىء من غرض كتابنا [٢] هذا .

---

(١) هكذا بالأصل، ولعلها ثمر .

(٢) ليس فى سورة الانفطار شىء من المجاز .

ومن السورة التى يذكر فيها «المطففون» وبقية المفصل إلى آخر القرآن العظيم

قوله سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[١٥] وهذه استعارة مجاز ، لأن الحجاب لا يطلق إلا على من يصح عليه الظهور والبطون ، والاستتار والبروز . وذلك من صفة الأجسام المحدثة ، والأشخاص المؤلفة . والمراد بذكر الحجاب ههنا أنهم ممنوعون من ثواب الله سبحانه ، مذودون عن دخول جنته ، ودار مقامته . وأصل الحجب المنع . ومنه قولنا فى الفرائض : الإخوة يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس . أى يمنعونها من الثلث ، ويردُّونها إلى السدس . ومن ذلك أيضا قولهم : حُجِبَ فلان عن باب الأمير . أى رُدَّ عنه ، ودُفع دونه . ويجوز أن يكون كذلك معنى آخر ، وهو أن يكون المراد أنهم غير مقربين عند الله سبحانه بصالح الأعمال واستحقاق الثواب . فعبَّر سبحانه عن هذا المعنى بالحجاب . لأن المُبْعَد المُقْصَى يُحجب عن الأبواب ، ويُبْعَد من الجناب .

سورة « الانشقاق »

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [٣،٤] وهذه استعارة . والمراد بها بعثُ الأموات ، وإعادة الرفات . فكأن الأرض كانت حاملا بهم فوضعتهم ، أو حاملة لهم فألقتهم ، فكانوا كالجنين المولود ، والثقل المنبوذ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [١٧] وهذه استعارة . ومعنى « وَسَقَ » ههنا أى ضم وجمع . فكأنه يضم الحيوانات الإنسية إلى مساكنها ، والحيوانات الوحشية إلى

مواجلها ، والطيورَ إلى أوكارها ومواكنها[١] . فكأنه ضم ما كان بالنهار منتشرا ، وجمع ما كان متبددا متفرقا . والأوساق مأخوذة من ذلك ، لأنها الأحمال التى يجمع فيها الطعام وما يجرى مجراه . ويقال : طعام موسوق . أى مجموع فى أوعيته .

وقد قيل : إن معنى « وَسَقَ » أى طَرَدَ . والوسيقة : الطريدة . فكأن الليل يطرد الحيوانات كلها إلى مثاويها ، ويسوقها إلى مخافيها .

وقوله سبحانه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ [١٩] وهذه استعارة على بعض التأويلات . والمراد بها لَتَنْقَلِبُنَّ من حال شديدة إلى حال مثلها ، من حال الموت وشدته ، إلى حال الحشر وروعته .

وقيل : لتركبن سُنَّةَ من كان قبلكم من الأمم .

وقيل : المراد بذلك تنقُّل الناس فى أحوال الأعمار ، وأطوار الخلق والأخلاق . والعرب تسمى الدواهى « بنات طَبَق » . وربما سمَّوا الداهية : أم طَبَق. قال الشاعر[٢] .

قد طرَّقت ببكرها أمُّ طبقْ   فنتجوها خبرًا ضخمَ العنُقْ

* موت الإمام فِلْقَةٌ من الفلق *

---

(١) الوكن والموكنة بكسر الكاف فيهما : عش الطائر .

(٢) هو خلف الأحمر . وأصله مولى لأبى بردة من فرغانة ، ولكنه حفظ كلام العرب وشعرهم وأخبارهم ، حتى صار يقول الشعر فيجيده وينحله الشعراء المتقدمين . وكان الأصمعى من رواته ، كما سمع هو من حماد الراوية . وأخباره فى « طبقات الأدباء » و« الشعر والشعراء » و« العقد الفريد » و« الفهرست » . وتوفى سنة ١٨٠ هـ .

وأم طبق : هى الداهية . والخبر : الناقة الغزيرة اللبن ، والفلقة : الداهية . وفى « ثمار القلوب » للثعالبى : قال الأصمعى : أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر ، وكنا فى حلقة يونس ، فجاء خلف الأحمر فسلم ، ولم يكن الخبر فشا ، ثم قال : « قد طرقت ببكرها أم طبق » . فقال يونس : وماذاك ياأبامحرز ؟ فقال : « فنتجوها خبرا ضخم العنق » . فقال : لم أدر بعد ! فقال : « موت الإمام فلقة من الفلق » . فارتفعت الضجة بالبكاء والاسترجاع ص ٢٠٧ من « الثمار » .

وانظر الخبر فى « لسان العرب » مادة طبق . وفى الورقة ٦٠ من كتاب « المعول عليه ، فى المضاف والمضاف إليه » للمحبى ، وهو مخطوط مصور بمجمع اللغة العربية

والفلق أيضا من أسماء الدواهى . واحـدها فِلْقَة وفليقة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾[٢٣] وهـذه استعارة . والمراد بها مايُسِرُّون فى قلوبهم ، ويكنُّون فى صدورهم .

يقول : القائل أوعَيْتُ هـذا الأمر فى قلبى . أى جعلتُه فيه كما يجعل الزاد فى وعائه ، ويُضمُّ المتاع فى عيابه ، فالقلوب أوعِيةٌ لما يجعل فيها من خير أو شر ، وعلم أو جهل ، أو باطل أو حق .

سورة « الطارق »

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [٢،١] وهـذه استعارة . لأن الطارق ههنـا كناية عن النجم . فحقيقة الطارق هو الإنسان الذى يطرق ليلا . فلما كان النجم لا يظهر إلا فى حال الليل حَسُن أن يسمَّى طـارقا . وأصل الطَّرق : الدقُّ . ومنه المطرقة . قالوا : وإنما سُمِّى الآتى بالليل طارقا ، لأنه يأتى فى وقت يحتاج فيه إلى الدق أو ما يقوم مقامه للتنبيه على طروقه ، والإيذان بوروده .

وقولـه سبحـانه : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ ﴾ [٦ ، ٧] وهذه استعارة . وحقيقة هذا الماء أنه مدفوق لادافق . ولـكنه خرج على مثل قولهم : سرٌّ كاتم ، وليل نائم . وقد مضت لهذه الآية نظائر كثيرة .

وعندى فى ذلك وجه آخر ، وهو أن هذا الماء لما كان فى العاقبة يؤول إلى أن يخرج منه الإنسان المتصرف ، والقادر المميز ، جاز أن يَقْوى أمره فيوصَف بصفة الفاعل لاصفة

المفعول ، تمييزا له عن غيره من المياه المهراقة ، والمائعات المدفوقة . وهذا واضح لمن تأمّله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱلسَّماء ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ، وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [١١ ، ١٢] وهذه استعارة . والمراد بها صفة السماء بأنها ترجع بدرور[١] الأمطار ، وتعاقُب الأنواء، مرة بعد مرة ، وتُعطى الخيرَ حالةً بعد حالة .

وقد قيل : إن الرَّجع الماء نفسُه . وأنشدوا للمتنخل[٢] الهُذَلى يصف السيف :

أبيضُ كالرَّجْعِ رسوبٌ إذا ماثاخَ فى مُحتفَلٍ يَخْتَــــلى

والمراد بالأرض ذاتِ الصَّدْع : انصداعُها عن النبات ، وتشققها عن الأعشاب .وأنشد صاحب « العين[٣] » لبعض العرب :

وجاءتْ سِلْتِمٌ لارَجْعَ فيها ولا صَدعٌ فتحتلبُ الرِّعاه

فالرجع : المطر ، والصَّدع : العشب ، والسِّلْتِمُ : السنة المجدبة .

سورة « الغاشية »

وقوله سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ [٢ ، ٣] وهذه استعارة . والمراد بالوجوه ههنا أرباب الوجوه . ومثل ذلك قوله تعالى : فى السورة التى يذكر فيها

---

(١) درت الأمطار درورا: هطلت.

(٢) هو مالك بن عويمر الهذلى ، من أشهر شعراء بنى هذيل . والبيت فى « ديوان الهذليين » ج ٢ ص ١٢ . والرجع : الغدير فيه ماء المطر . وثاخ مثل ساخ : أى غاب . والمحتفل : معظم الشىء . ويختلى : يقطع . والرسوب : الذى إذا وقع غمض مكانه لسرعة قطعه .

(٣) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى إمام اللغة والأدب وواضع علم العروض ، وكان أستاذا لسيبويه النحوى المشهور ، ولد فى البصرة ومات بها سنة ١٧٠ هـ وعاش حياته فقيرا صابرا. قال فيه النضر بن شميل: مارأى الراءون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . واشتهر بكتاب « العين » فى اللغة ، وهو لايزال مخطوطا . حققه د. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، وطبع منه حتى الآن ستة أجزاء / ١٩٨٤

القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١) والدليل على ماقلنا إضافته سبحانه النظر إليها ، والنَّظَر إنما يصح من أربابها لامنها . لأنه تعالى قال عقب ذلك : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٢) وكذلك قوله تعالى ههنا : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [٨ ، ٩] والرِّضا والسخط إنما يوصف به أصحاب الوجوه .

فانكشف الكلام على الغَرَضِ المقصود .

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ [١٠ ، ١١] وهذه استعارة . وقد مضت لها نظائر كثيرة جدا فيما تقدم من كلامنا . أى لاتسمع فيها كلمة ذات لغو . فلما كان صاحب تلك الكلمة يسمَّى لاغيا بقولها ، سُمِّيَتْ هى لاغية ، على المبالغة فى وصف اللغو الذى فيها .

وقال بعضهم : معنى ذلك : لايسمع فيها نفْس حالفة على كذِب ، ولا ناطقة برفَث . لأن الجنة لالَغْو فيها ولا رَفَث ، ولا فُحشَ ولا كذب .

سورة « الفجر »

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [٤] وهذه استعارة . والمراد بسُرَى الليل دورانُ فَلَكه ، وسيران نجومه حتى يبلغ غايته ، ويسبق فى قاصيته ، ويستخلف النهار موضعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [١٠] وهذه استعارة . والمراد وفرعون ذى المُلك المتقرم (٣) والأمر المتوطد ، والأسباب المتمهدة التى استقر بها بنيانه ، وتمكن سلطانه ، كما تثبُتُ البيوتُ بالأوتاد المضروبة ، والدعائم المنصوبة . وقد مضى نظير ذلك .

---

(١) سورة القيامة . الآيتان رقم ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة القيامة . الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) المتقرم : المتأصل فى السيادة والمجد .

وقوله سبحانه : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [١٣] وهذه من مكشوفات الاستعارة . والمراد بها العذابُ المؤلم ، والنكال المُرمِض . لأن السَّوط فى عرف عادة العرب يكون على الأغلب سببا للعقوبات الواقعة ، والآلام الموجعة .

وقال بعضهم : يجوز أن يكون معنى ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى أوْقَع عذاب يخالط اللحوم والدماء ، فيَسُوطها سَوْطا ، إذا حرَّك مافيها وخَلَطَهُ . فالسَّوط على هذا القول ههنا مصدرٌ وليس باسم .

سورة « البلد »

وقوله سبحانه ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ [٦] وهذه استعارة . وقد مضى نظير لها . والمراد باللُّبَد ههنا المال الكثير الذى قد تراكب بعضه على بعض ، كما تلبَّدت طرائق الشَّعر ، وسبائخ [1] القطن .

وقد يجوز أن يكون ذلك مأخوذا من قولهم : رَجُلٌ لُبَدٌ . إذا كان لازما لبيته لايبرحهُ . وبه سُمِّى نَسْر لقمانَ لُبَدًا ، لمماطلته للعمر ، وطول بقائه على الدهر . فكأنه قال : أهلكتُ مالاً كان باقيا لى ، وثابتا عندى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ، فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ [١٠ ، ١١] وهذه استعارة . والمراد بالنَّجْدَيْن ههنا الطريقان المُفضيان إلى الخير والشر . والنَّجد : المكان العالى ، وإنما سَمَّى تعالى هذين الطريقين بالنجدين ، لأنه بيَّنهما للمكلَّفين بيانا واضحا ليتَّبعوا سبيل الخير ، ويجتنبوا سبيل الشر . فكأنه تعالى بفَرْط البيان لهما قد رفعهما للعيون ، ونَصَبَهُما للناظرين .

---

(١) سبائخ القطن : ماتناثر أو انتفش منه . يقال : طارت سبائخ القطن . انظر «المحيط» .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [١١] استعارة أخرى . وفسَّر تعالى المراد بالعقبة فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ [١٣، ١٤] الآية .

وقرىء ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾[١] فشبه سبحانه هذا الفعل ـ لو فعله الإنسان ـ باقتحام العقبة ، أى صعودها أو قطعها . لأن الإنسان ينجو بذلك كالناجى من الطريق الشاق ، إذا اقتحم عقبته ، وتجاوز مخافته . وحَسُن تمثيل هـذا الفعل ههنا بالعقبة لمـا شبَّه سبحانه سبيلى الخير والشر بالنَّجدين اللذين هما الطريقان الواضحان والعقاب[٢] إنما تكون فى طريق السالـكين ، وسبيل المسافرين . وعليها يكون بهر الأنفاس، وشدة الضغاط والمراس .

سورة « الضحى »

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [١، ٢] وهذه استعارة . ومعنى سجى ، أى سَـكن . والليل لا يسكُنُ ، وإنما تسكُن حركات الناس فيه ، فأجرى سبحانه صفة السكون عليه لما كان السكون واقعا فيه . وقد مضى الكلام على نظائر ذلك .

سورة « الانشراح »

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ، ٱلَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [١، ٢، ٣] وهـذا القول مجاز واستعارة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن ينتهى عظم ذنبه إلى حال إنقاض الظَّهر ، وهو صوتُ تقعْقُعِ العظام من ثقل

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والـكسائى « فك رقبة أو أطعم » على أنها أفعال ماضية وتكون « رقبة » منصوبة على أنها مفعول به للفعل « فك » ، وقرأ الباقون « فك رقبة أو إطعام » على أنهما مصـدران . وتكون كلمة « رقبة » مجرورة على أنها مضاف إليه .

(٢) العقاب أى العقبات .

الحمل . لأن هذا القول لا يكون إلا كناية عن الذنوب العظيمة ، والأفعال القبيحة . وذلك غير جائز على الأنبياء عليهم السلام ، فى قول من لا يُجيز عليهم الصغائر ولا الكبائر ، وفى قول من يجيز عليهم الصغائر دون الكبائر . لأن الله سبحانه قد نزّههم عن مُوبِقات الآثام، ومسحقات [1] الأفعال ، إذ كانوا أمناء وَحْيه ، وألسنة أمره ونهيه ، وسفراءه إلى خلقه .

وقد استقصينا الكلام على ذلك فى باب مفرد من كتابنا الكبير .

فنقول: إن المراد ههنا بوضْع الوِزر ليس على ما يظنه المخالفون من كونه كناية عن الذنب ، وإنما المراد به ما كان يعانيه النبى صلى الله عليه وسلم من الأمور المستصعبة ، والمواقف المخطرة فى أداء الرسالة ، وتبليغ النذارة [2] ، وما كان يلاقيه عليه السلام من مضار قومه ، ويتلقّاهُ من مَرَامى أيدى معشره . وكلٌّ ذلك حرجٌ فى صدره ، وثقلٌ على ظهره . فقرّره الله سبحانه بأنه أزال عنه تلك المخاوف كلها ، وحطَّ عن ظهره تلك الأعباء بأسرها ، وأذاله من أعدائه ، وفضّله على أكفائه ، وقدّم ذِكْره على كل ذكر ، ورفع قدره على كل قدر ، حتى أَمِنَ بَعْدَ الخيفة ، واطمأنّ بَعْدَ القلقة .

---

(١) فى الأصل « ومستحقات » وهو تحريف من الناسخ . والأفعال المسحقة هى التى توجب السحق والهلاك

(٢) أى الإنذار ، كالبشارة ، وهى تقديم البشرى .

فهارس الكتاب

١ — فهرس مقدمة

محقق الكتاب

٢ — فهرس الأعـــلام

الواردة بمقدمة المحقق

ب

ج-ح-خ

د ـ ذ

٣ — فهرس

تفصيلى لمسائل الكتاب

٤ — فهرس السور

٥ — فهرس الآيات والسور (١)

(١) قد أثبتنا رقم الآيات فى السور تسهيلا المراجعة ، واعتمدنا فى ذلك المصحف الذى قام بطبعه ونشره عيسى البابى الحلبى بتصريح من وزارة الداخلية ومشيخة عموم المقارىء المصرية.

٦ — فهرس الأحاديث

٧ – فهرس الأشعار والأراجيز

الهمزة

صفحة

ض

ع

ق

ل

٨ — فهرس الأعلام

غ

ف

ق

٩ — فهرس الأعلام المترجمة بالهوامش

١٠ — فهرس اللغة *

(ا)

* يشتمل هذا الفهرس على التراكيب والعبارات والاستعمالات الفصاح الواردة بهذا الكتاب . وقد رتبت أبجديا بحسب أوائلها لا بحسب اشتقاقها أوردها إلى أصولها . فالفعل « اقتحم » يأتى فى باب الهمزة لا فى باب القاف . والفعل تنطق يأتى فى باب التاء لا فى باب النون . وذلك تسهيلا للمراجعة ، وتيسيرا للكشف دون حاجة إلى النظر فى المجرد والمزيد .

صفحة		المعنى
١٦١	أنا بعين الله	أى أنا بمكان من حفظ الله
١١٦	أنا بين يديك	أى قريب منك
٢٦١	أنا ممدود الطرف إليك	أى أنا بانتظار أمر يرد علىّ من جهتك
١٥٢	أنت من قلبى	أى أنت قسيم قلبى
١٥٢	أنت من نفسى	« « شقيق نفسى
٢٢٥	أنت منى بمرأى ومسمع	إذا كان منصرفا إليه بالعناية
٣٠١	أنشر الله الأموات	أى أحياهم بعد موتهم
٣٠٩	انفتح قلبه وانفسح صدره	إذا كان واسع الصدر
٢٣٠	إنما هو حجر جلمد	إذا كان بليد الطبع والحس
٢٣٠	إنما هو نار تتوقد	إذا كان ذكيا شديد الذكاء
١٢٩	أين يذهب بك ؟	أى أين تذهب ؟

(ب)

١٧١	بطن الرحل	أى أصاب بطنه
١٦٦	البقية ! البقية !	أى نسألكم الإبقاء علينا
٣٠٤	بكينا فلانا بأطراف الرماح	أى طلبنا دمه وأدركنا ثأره
٣٠٤	بكينا فلانا بمضارب الصفاح	« « « «
٢٥٦	بيوتهم رياء أو رئاء	أى متقابلة

(ت)

١٥٣	تخطى فلان إلى غير الواجب	أى انتقل اليه
٢٦٩	ترقى الأمر إلى الأمير	أى عرفه على حقيقته
١٦٦	تركت مقالتى دبر أذنك	إذا أهملت أمرى فلم تطعه

صفحة		المعنى
٢٥٠	تشققت السحاب بالرعد	أى كثر فيها الرعد
٢٥٠	« الغمائم بالبرق	أى كثر فيها البرق
٢٣٩	تغيظت القدر	إذا اشتد غليانها
٢٠٢	تقاد الدابة بحنكها	أى تؤخذ بحنكها
٣٦٠	تنفس الإناء	إذا انشق
٣٦٠	تنفست القوس	أى انصدعت
		(ث)
٣٥٧	ثقل علىّ خطاب فلان	أى صار غير محتمل على نفسى
		(ج)
٣١٦	جاء فلان فى أعقاب القوم	أى فى أواخرهم
٢٢٠	جاءنى لسان فلان	أى بلغنى مدحه أو ذمُّه
١٩١	جار عن الطريق	أى ضل عن نهجه وخرج عن سمته
١٦٦	جعلت حاجتى وراء ظهرك	أى لم تعن بحاجتى
٢٢٨	جعله الله حصيد سيفك	أى جعل الله سيفك يحصده كما يحصد الزرع بالمنجل
		(ح)
٢٣٣	حصب فلان فلانا	إذا قذفه بالحصباء
٢٣٣	حصبنا الجمار	أى قذفناها بالحصبات
٢٠٢	حنك الدابة	إذا شد فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به
		(خ)
١٥٥	خذى عليك ثوبك	أى البسيه
٣٣٩	خسأت الكلب	أى أبعدته وزجرته

صفحة		المعنى
١٨٧	خفض جناحه	أى صار لين الكنف كاظما عند الغضب
١٩١	خفيف الظهر	أى قليل عدد العيال ، أو قليل الذنوب والآثام
١٧٥	خلت الدار	أى خلا سكانها
		(د)
١٤٩	دارت عليهم الدوائر	إذا أهلكتهم الأيام وأفنتهم الأعوام
١٤٩	دارت لهم الدنيا	إذا واتاهم الإقبال
٢١٩	دارى تلقاء دار فلان	أى فى مقابلتها
٢٣٦	دكه الله ودكدكه	أى زلزل قدمه
٢٤٨	دُور بنى فلان تتراءى	أى يتقارب بعضها من بعض
		(ذ)
٣٢٣	ذرنى وفلانا	هذه صيغة للمبالغة فى الوعيد والتخويف
٣٤٢	ذرنى وفلانا فستعلم ماأنزل به	صيغة يراد بها تغليظ الوعيد
١٩٦	ذق غِبَّ فعلك	أى لاق جزاء جريرتك
٣٠٠	ذهبتُ عنه صفحا	إذا أعرضتُ عنه بصفحة وجهى
		(ر)
٢٠٨	ربط الله على قلبك بالصبر	أى شد على قلبك بالصبر
٢٢٨	رتق فَتْقَ الخباء	أى خاط الفتق بالخيمة أو الفسطاط
٢٢٨	رتق فلان الفتق	أى خاطه
٣٦٦	رجل لبد	إذا كان ملازما لبيته
١٩٩	رجل مخبث أو مضعف	إذا كان أهله خبثاء أو ضعفاء

صفحة		المعنى
١٥١	رغبت بنفسى عن الضيم	أى صنت نفسى عن الذل والهوان
٣٣١	رميت إليه بما فى نفسى	إذا أفضيت إليه بما فى نفسى

(ز)

١٨٠	زالت يد الأمير	أى عزل عن ولايته
٢٣٦	زلزل الله قدمه	أى أزالها عن ثباتها فعثر
٢٠٤	زهقت نفس فلان	أى فاضت روحه

(س)

٢١٢	سألنا كم فما أبخلنا كم	أى سألنا كم فلم نصادفكم بخلاء
٣٦٣	سر كاتم	أى مكتوم
٢٦٧	سكت فلان فلم يُعِد ولم يُبْدِ	أى لم يتكلم ابتداء ولا أحار جوابا
٢٦٨	سكت فما أعاد ولا أبدى	أى تحير فلم يتكلم
١٧١	سلبت الرجل	إذا أخذت سلبه
٣٠٧	سمنت الناقة على أثارة	أى على سِمَنٍ متقدم
٢٠٧	سيف جراز	أى قاطع يبرى المفاصل

(ش)

٢٦١	شاخص البصر نحوك	أى منتظر منك أمرا يَرِد من جهتك
٣٤٤	شعرٌ شاعر	مبالغة فى وصف الشعر بالشعور
١٧١	شغفها حبا	أى أن حبه تغلغل إليها وأصاب شغافها
١٩١	شقيق النفس	أى قسيمها ، كأنه شِقٌّ لها

(ص)

١٦١	صحبتك عين الله	أى لازمتك رعاية الله

صفحة	المعنى
٣٠٩ صدرى ضيق	أى شديد التبرم بالأمر
١٨٨ صَدَعَ الرداء	أى شقه فأصابه بصدع
١٨٨ صدْع الزجاجة	أى ظهور الكسر فيها
٣٢٥ صدق فلان الحملة ولم يكذب	أى لم يرجع على عقبه
٢٦١ صرمَ الأمر	أى فرغ من فعله بسرعة
١٤٠ صغى فلان إلى فلان	أى مال إليه

(ض)

١٧٨ ضربت الخباء	إذا نصبته
٣٠٠ ضربت عنه صفحا	أى أعرضت عنه
٢٤٥ ضربت الفسطاط	أى أقمته ونصبت أوتاده
٢٠٨ ضرب فلان على مالى	أى أخذه وحال بينى و بينه
١٧٨ ضرب فى الأرض	أى أوغل السير فيها وأبعد
٢٨٩ ضقت بهذا الأمر ذرعا	أى لم يتسع له صدرى

(ط)

٢١٤ طارقْتُ النعل	أى وضعت لها الطرائق وهى قطع الجلود
١٨٧، ٢٠٠ طار طيره	أى ذهب عنه حلمه
١٨٧ طاش وقاره	أى ذهب عنه الحلم والوقار
١٨٨ طبق المفصل	أى أصاب فى كلامه
١٣٠ طبق مفصل الرأى	أى أدرك حقيقته
١٩١ طريق جائر	أى يجار فيه بالسير

صفحة		المعنى
٢١٩	فلان عندى بالميزان الراجح	أى هو كريم علىّ، حبيب إلىّ
١٣٤	« مغمور فى النعيم	أى أنه واسع الرزق
١٥٢	« من أنفُس بنى فلان	أى من صميم أنسابهم
٢٧٣	« لا ينفذ فى طريق يسلكه	كناية عن الضلال والحيرة
٢٧٣	« لا يعلم أمامه أم وراءه خير له	» » » »

(ق)

صفحة		المعنى
٢١٢	قاتلنا كم فما أجبنّا كم	أى لم نجدكم جبناء عند القتال
٢٤٩	قام فلان بفلان فى الناس	إذا أظهر ذمه وعيبه فى الناس
١٢٩	قتل أرضا عالمها	
١٢٩	قتلتْ أرضٌ أهلها	أهلها: جاهلها
١٢٩	قتلتُ الخبر علما	إذا استقصيت بحثه ومعرفته
١٧٣	قرَى الماء فى الحوض	أى جمع الماء فى الحوض
٣٠٩	قلبى مقفل	أى صدرى ضيق وفكرى متشعب
٢٥٦	قوم رياء ، ورئاء	أى يقابل بعضهم بعضا

(ك)

صفحة		المعنى
١١٦	كذا بين يدى كذا	أى قريب منه ، أو متقدم أمامه

(ل)

صفحة		المعنى
٣٣٨	لا آخذ رزق من تحت يد فلان	أى ليس فلان متصرفا فى أمر رزقى
٢٦١	لا أقطع أمرا دونك	أى لا أقرر العزم على أمر حتى آخذ رأيك فيه
٢٥٧	لا تتراءى ناراهما	أى لا تتقارب دورهما

صفحة		المعنى
٢١٥	مكان دحِض	أى مزلق
١٥٢	من أنفُس بنى فلان	أى من صميم أنسابهم
	(ن)	
٢٣٠	نار تتوقد	يقال للرجل الذكى : هو نار تتوقد
٢٢٦	النساء عوان عند أزواجهن	أى أسيرات عند الأزواج
٣٤٣	نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى به	إذا نظر إلى بمقت وكراهة
١٣٤	النعمة من قرنه إلى قدمه	هذه كناية عن سعة الرزق
٢٨٣	نعوذ بالله من الحور بعد الكور	هذا حديث شريف معناه نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة
٢٣١	نفح الفرس فلانا بحافره	إذا أصابه إصابة خفيفة
٢٣١	نفح فلان فلانا بيده	» » » »
٣٦٠	نُفِّسَ عن فلان الخناق	أى انجلى كربه ، وانفسح قلبه
١١٨	نفسُ فلان سفيهة	أى أن صاحبها سفيه
١٩٩	نهار صائم	أى يصام فيه
	(ه)	
٢١٢	ها جيناكم فما أفحمناكم	أى لم نجدكم ذوى عى فى المقال
٢١١	هذا الأمر غيب مرجَّم	أى يرميه الناس بظنونهم
٢٨٥	هذا الأمر مغال فى جنب ذلك الأمر	أى قريب منه قربا شديدا
١٥٨	هذا الأمر فى طى ضميرى	أى قد اشتمل عليه قلبى
٢٣٩	هذا الشىء منى بمرأى ومسمع	أى بحيث أعرفه وأعلمه
٢٢٦	هذه المرأة فى حبال فلان	أى فى عصمة فلان

صفحة		المعنى
٢٥٨	هضيم الحشا	أى لطيف البطن . وهو وصف ملاحة
١٨٧	هفا حلمه	أى ذهب عنه الحلم واشتد به الغضب
٢٥١	الهوى إله معبود	أى أنه يطاع أمره
٣٢٩	هو أبقى من النقش فى الحجر	أى ثابت دائم
٢٣٩	هو عربى قلبا	أى هو عربى صريح خالص النسب
١٢١	هو على الواضحة من أمره	إذا كان عالما بما يقدم عليه من الأمر
٢٣٠	هو نار تتوقد	أى ذكى شديد الذكاء

(و)

١٥٣	وضع فلان رجله فى الباطل	أى اشترك فى عمل الباطل
٣٤٨	وَقر قولُ فلان فى قلبى	أى ثبت واستقر فى نفسى

(ى)

٣١١	ياخيل الله اركبى	أى يارجال الله اركبى
٢٥٩	يطير بكل جناح	إذا كان تابعا لكل قائد
١٨٨	يفصل الخطاب	أى يصيب حقائقه
٣٣٩	يكاد يتميز غيظا	أى تكاد أعصابهُ المتلاحمة تتزايل
٣٤١	يمشى على وجهه	أى ينحرف عن طريق الرشاد
٣٤١	يمضى على وجهه	» » » »
٢٥٩	يهب مع كل ريح	إذا كان تابعا لكل قائد
١٧٢	يوم آمن	أى ينتشر الأمن فيه
٣٥٧	يوم قمطرير	إذا كان شديدا ضره ، طويلا شرُّه
٣٥٧	يوم قماطر	» » » » »

١١ — فهرس مراجع

التحقيق والبحث

مرتبة وفق الحروف الأبجـــدية

الإتقان فى علوم القرآن : للسيوطى . القاهرة ١٣٥٤ هـ

أدب الكاتب : لابن قتيبة . مصر ١٣٥٥ هـ

الأدب فى ظل بنى بويه : لمحمود غناوى الزهيرى . القاهرة ١٣٦٨ هـ

أساس البلاغة : للزمخشرى . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤١ هـ

إصلاح المنطق : لابن السكيت . دار المعارف ، مصر سنة ١٣٦٨ هـ

إعجاز القرآن : للباقلانى . السلفية ، سنة ١٣٤٩ هـ

إعجاز القرآن : للخطابى . دار التأليف سنة ١٣٧٢ هـ

الأعـــلام : لخير الدين الزركلى . القاهرة ١٣٤٧ هـ

الإفصاح : لعبدالفتاح الصعيدى ، وحسين يوسف موسى . دار الكتب المصرية ١٣٤٨ هـ

الأمالى : لأبى على القالى . دار الكتب المصرية . سنة ١٣٤٤ هـ

أمالى المرتضى : للشريف المرتضى . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ

إمتاع الأسماع : للمقريزى . القاهرة ١٩٤١ م

أنوار التنزيل وأسرار التأويل . القاهرة ١٣٣٠ هـ

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : لابن هشام المصرى . القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ

البداية والنهاية : لابن كثير . القاهرة

بغية الوعاة : للسيوطى . مصر ١٣٢٦ هـ

البلاغة العربية فى دور نشأتها : لسيد نوفل . القاهرة سنة ١٩٤٨ م

البيان والتبيين : للجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٦٧ هـ

تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٧٣ هـ
تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان . القاهرة
تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩ هـ
تحقيق النصوص ونشرها : لعبدالسلام محمد هارون . القاهرة ١٣٧٤ هـ
تفسير الكشاف : للزمخشرى .
تفسير النسفى : للنسفى
تنزيل الآيات ، على الشواهد من الأبيات : لمحب الدين أفندى . المطبعة الأميرية بولاق سنة ١٢٨١ هـ
ثمار القلوب : للثعالبى . القاهرة ١٩٠٨ م
الجامع فى أحكام القرآن : للقرطبى. دار الكتب المصرية ١٩٣٥م
جمهرة أشعار العرب : بولاق سنة ١٣٠٨ هـ
جمهرة أنساب العرب : لابن حزم. دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م
جمهرة خطب العرب : لأحمد زكى صفوت . القاهرة ١٩٣٣ م
جمهرة رسائل العرب « « «
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : للمستشرق آدم متز . القاهرة ١٩٤٠ م
حماسة ابن الشجرى : طبع حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ
الحيوان : للجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ
خزانة الأدب : لعبد القاهر البغدادى . القاهرة ١٣٥١ هـ
دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية
ديوان الأعشى الكبير : تعليق وشرح م . محمد حسين . القاهرة ـ ١٩٥١م
ديوان امرئ القيس : المطبعة الرحمانية . سنة ١٩٣٠م
ديوان حسان بن ثابت : مطبعة السعادة ١٣٣١ هـ
ديوان عمر بن أبى ربيعة : الميمنية . القاهرة ١٣١١ هـ
ديوان النابغة الذبيانى : من مجموعة فحول الشعراء. بيروت ١٩٣٤ م

ديوان الهذليين : دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ
زهر الآداب : للحصرى تحقيق على البجاوى . القاهرة ١٩٥٣ م
سمط اللآلى : للبكرى . القاهرة ١٣٥٤ هـ
سنن النسائى : لأبى عبدالرحمن أحمد بن شعيب : المطبعة الميمنية
سيرة ابن هشام : بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى ١٣٥٦ هـ
شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلى . حسام الدين القدسى سنة ١٣٥٠ هـ
شرح ديوان الحماسة : للمرزوقى . تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون . القاهرة ١٣٧١ هـ
شرح ديوان الشريف الرضى : دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٨ هـ
شرح شذور الذهب : لابن هشام . القاهرة ١٩٤٨ م
شرح القصائد العشر : للتبريزى . مصر ١٣٤٣ هـ
شروح سقط الزند : دار الكتب المصرية ـ ١٩٤٨ م
الشعر والشعراء : لابن قتيبة، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٦٤ هـ
شعراء النصرانية : للأب لويس شيخو . بيروت ١٩٢٦ م
صحيح أبى داود : لأبى داود سليمان بن الأشعث . القاهرة ١٢٨٠ هـ
صحيح البخارى : المطبعة الأميرية . بولاق ١٣١٤ هـ
صحيح مسلم : القاهرة بدون تاريخ
الصناعتين : لأبى هلال العسكرى . القاهرة ١٣٧١ هـ
عبقرية الشريف الرضى : لزكى مبارك . بغداد ١٣٥٧ هـ
العقد الفريد : لابن عبد ربه . لجنة التأليف والترجمة والنشر
العمدة فى صناعة الشعر ونقده : لابن رشيق . مصر سنة ١٩٢٥ م
عيون الأخبار : لابن قتيبة . دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ
الغدير : للشيخ عبدالحسين أحمد الأمينى . النجف ١٣٦٥ هـ
الفائق فى غريب الحديث : للزمخشرى . القاهرة

فتح الرحمن ، لطالب آيات القرآن : بيروت ١٣٢٣ هـ
الفقه على المذاهب الأربعة : للجنة من العلماء . القاهرة ١٣٥٥ هـ
الفهرست : لابن النديم . القاهرة
القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب : لعبدالفتاح القاضي . القاهرة
القرطين : لابن مطرف الكناني . القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ
الكامل : لابن الأثير . القاهرة
الكامل : للمبرد
كشف الظنون : لملا كاتب چلبي ، استنبول ١٣١٠ هـ
لسان العرب : لابن منظور . بولاق سنة ١٣٠٨ هـ
المثل السائر : لابن الأثير . القاهرة ١٩٣٩ م
المجازات النبوية : للشريف الرضي. القاهرة ١٣٥٦ هـ
مجاز القرآن : لأبي عبيدة . القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ
مجالس ثعلب : تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م
محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : للشيخ محمد الخضري . القاهرة بدون تاريخ
محمد : لمحمد رضا . القاهرة ١٩٣٨م
المسند : لابن حنبل . تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر . دار المعارف . مصر سنة١٣٦٥هـ
معجم ألفاظ القرآن الكريم : مجمع اللغة العربية . القاهرة ١٩٥٣ م
معجم الشعراء : للمرزباني . القاهرة ١٣٥٤ هـ
معجم غريب القرآن : لمحمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة ١٩٥٠ م
معجم ما استعجم : للبكري . القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ
معجم مقاييس اللغة : لابن فارس . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ
معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف سركيس . القاهرة سنة ١٩٢٨ م

المعول عليه فى المضاف والمضاف إليه : للمحبى . مخطوط مصور بمجمع اللغة العربية . القاهرة

مغنى اللبيب : لابن هشام . القاهرة سنة ١٣٥٦ ﻫ

المفضليات : للمفضل الضبى . القاهرة سنة ١٣٦١ ﻫ

مقدمتان فى علوم القرآن : لابن عطية وآخر . القاهرة سنة ١٩٥٤ م

المنتظم : لابن الجوزى . حيدر أباد الدكن . الهند ١٣٥٩ ﻫ

المؤتلف والمختلف : للآمدى . القاهرة ١٣٥٤ ﻫ

نهاية الأرب : للنويرى . دار الكتب المصرية

نهج البلاغة : القاهرة بدون تاريخ

وفيات الأعيان : لابن خلكان . طبع بولاق

يتيمة الدهر : للثعالبى . القاهرة ١٩٣٤ م

﴿ والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ﴾